

خيري الذهبي - نزهة الأنام في محاسن الشام

مقدمة الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

أما بعد فإن من الكتب اللطيفة التي عثرنا عليها بين مخطوطات بغداد دار السلام هذا الكتاب المسمّى:

نزهة الأنام، في محاسن الشام

وقد وجدناه من الكتب الجامعة بين لذة الأدب من منثوره إلى منظومه وبين ملح التاريخ من خصوصه إلى عمومه. وفضلاً عما فيه من لذة وفائدة فإنه يصلح أن يكون نموذجاً صحيحاً لروح الأدب في القرن التاسع الهجري.

ولما كانت غوطة دمشق – التي استوحى منها المؤلف موضوع كتابه – من أبدع مجالي الجمال الطبيعي في العالم، بل ربما كانت البقعة المتفردة بجمالها في عصر المؤلف؛ فإن ما انطوى عليه هذا الكتاب من الكلام عليها، ووصف الشعراء والأدباء لأزهارها وأثمارها، والإشارة إلى ضواحيها ونواحيها؛ لمما يشوق الأديب الإطلاع عليه.

إن المدينة التي اختصها البدري بكتابه هذا هي أقدم مدينة ثبت عمرانها على وجه الدهر، ونقل ياقوت في معجم البلدان قول أبي بكر الخوارزمي: جنان الدنيا أربعة؛ غوطة دمشق، وصغد سمرقند، وشعب بوّان، وجزيرة الأبلة. قال: وقد رأيتها كلها، وأفضلها دمشق.

قال ياقوت: وجملة الأمر أنه لم توصف الجنة بشيء إلا وفي دمشق مثله. ومن المحال أن يطلب بها شيء من جليل أعراض الدنيا ودقيقها إلا وهو فيها أوجدُ من جميع البلاد.

ولاحظنا عند العزم على طبع الكتاب أن في النسخة البغدادية نقصاً فسعينا لاستكمالها من النسخة المخطوطة في دار الكتب المصرية (رقم 494 من كتب التاريخ) وعليهما اعتمدنا في نشره طالبين من الله تعالى العون والتوفيق.

بغداد

نعمان الأعظمي

صاحب المكتبة العربية

نزهة الأنام في محاسن الشام

خيري الذهبي

ماذا لو قابلته مرة. ماذا لو فتحت الباب استجابة لطرق عليه لتجده يقف بالباب وكأنه يريد الدخول، دخول من يملك البيت. ماذا لو رأيته فاكتشفت أنك تقف أمام ما يشبه المرآة؟ إنه يشبهك في كل شيء، الملامح، الطول، الحياء المخلوط ببسمة اعتذار أنه قد أزعجك في هذا الوقت من الصباح.

تكاد تطلب إليه الدخول، ولكنك فجأة تنتبه إلى ملابسه.. إنها لا تنتمي إلى هذا العصر. إنها ملابس أنيقة، ولكنها ليست الملابس المتأوربة التي تلبسها حتى في سرير نومك. تكاد تطلب إليه الدخول، ولكنك تفاجأ بتحيته وبصرة يحملها على كتفه معلقة إلى عصا.

شيء ما غريب رغم تشابه اللحى، فأنت وقد تقدمت قليلاً في العمر قد خطر لك أن تربي لحيتك، ولكنك حين ربيتها لم تتخيل أبداً أنها لحيته.. وها هو يقف أمامك بطولك ونظراتك ولحيتك فتتنحى جانباً وتتركه يدخل إلى.. بيتك، ولكنك بعد حديث قصير تكتشف أنك تدعوه إلى.. بيته.

تقدم له قهوة صباحك، فيتلفت من حوله خائفاً مستغرباً وكأنك تقدم له إثماً وخطيئة يعاقب عليها، فتقول في سرك إنه يعاف الكافيين، فتقدم له عصير برتقال معلب طبعاً يتذوقه بطرف لسانه ثم يقول: ولكنه ليس عصير برتقال. إن فيه طعماً غريباً. وتنتبه إلى أنه قد اكتشف أنه ليس مما عصر قبل قليل، بل هو عصير معلب في علبة كرتون وقد منع من الفساد بإضافة مادة كيميائية تحفظه من الفساد.

يترك الصرة والعصا ويقوم ليتجول في البيت، تجوُّل من يعرف دهاليزه وخفاياه ليتوقف أمام المصباح الكهربائي النيون الذي يضيء الدهليز بصورة دائمة، ويكاد يلمسه بيده يتأكد أنه ليس قطعة من النهار حملت إلى الدهليز العتم.

وأخيراً يصارحك بأنه جدك الثالث، أو الخامس هو ليس على ثقة من الترتيب، ولكنه خطر له أن يعود لاستكشاف العالم الذي تركه قبل عدة قرون.

وتبدأ الدخول معه إلى عالمه. عالم مدينة حافظت على هويتها ومعالمها وعاداتها وأشجارها وطيورها وحيواناتها إلى خمسين سنة مضت، ثم بدأ الانفجار الكبير، الانفجار الذي حملته الحضارة والانفجار السكاني الذي سببه الطب الحديث الذي منع الموت عن الضعاف، الانفجار الذي لم يعد يحمل الطواعين التي كانت تبتلع نصف وأحياناً ثلثي السكان، الانفجار الذي قدَّم المواصلات السريعة، فأنقذ ثمر الأرض من نبات وحيوان من كساد فصار ينقل عبر البلاد، وعبر الأقطار، بل عبر القارات معلباً، ومخزناً، ومجمداً إلى آخر ما قدمته التكنولوجيا الغربية التي غيرت كل شيء..

المقدمة التي قدمتها قبل قليل هي إحساسي، وأتمنى أن يكون إحساسك عزيزي القارئ بعد أن تمسك بهذا الكتاب المسمى نزهة الأنام في محاسن الشام، لمؤلفه عبد الله بن محمد البدري المصري الدمشقي. الكتاب يتحدث عن دمشق، عن الشام، عن شامة الدنيا، ولكن لا. ليس هذا أهم ما فيه، فهو يقدم لنا صورة عن الحالة الأدبية في ذلك العصر قبل قرون، وصورة عن الحالة الاجتماعية لدمشق في القرن الخامس عشر، عن دمشق قبل كارثة تيمورلنك التي تلتها كارثة السلطان سليم قبل أقل من قرن. يتحدث المؤلف عن فواكه دمشق والمشمش مثلاً، فيعدد لك ما يوجد منه في المدينة وهو يزيد عن العشرين صنفاً لتكتشف أن ما تبقى منه الآن والذي يعرفه أبناؤنا والذي يباع لدى دكاكيننا لا يزيد عن صنفين أو ثلاثة. ولكن ليس هذا فحسب، بل يقدم لك رؤية شعراء العصر للمشمش، فإذا به يقدم عشرة أو عشرين مقطوعة تتحدث عن المشمش وتشبيهه بقبلة الحبيب، وخد الحبيب، ورائحة الحبيب.

فالمشمش لم يكن فاكهة تشترى من الفاكهاني بقولك: بعني اثنين كيلو مشمش كما نفعل اليوم، لا، فالمشمش ويعدد لك ما قاله فيه أطباء العالم القديم عن طعمه ولونه، وفوائده الصحية، والتأثيرات الجانبية لأكله، وكيف يمكن التغلب عليها ثم يعدد لك أصنافه، وهل سمع القارئ

المعاصر عن المشمش الخراساني، أو الكافوري أو البعلبكي، أو الدغمشي، أو الزيري، أو الحازمي، أو الأيدمري أو السنيني، أو البردي، أو الملوح، أو فراط النجاتي، أو جلاجل القلوع، لكنه بالطبع سمع عن الحموي والبلدي والسندياني والكلابي، أما اللقيس واللوزي و.. .. إلخ.

وتتساءل: ولكن ما للمواطن المحدث المعاصر ولكل هذا الترف، وهذا الاسترخاء الذي يجعله يعرف كل هذه الأنواع من المشمش، وأنا حين أعدد للقارئ الآن كل هذه الأصناف من المشمش فقط، فلست أصف شيئاً معجزاً، فأنا أعرف أن جيل السوريين الذين عاشوا في الأربعينيات والخمسينيات وحتى السبعينيات، كانوا يعرفون معظم هذه الأنواع وكانوا يصرون على تعيينها وشرائها بعينها.

يحدثنا الكتاب عن السيارين الفانتازية، وعن الفواكه الفانتازية ولكن.. ماذا عن الزهور ولنستمع إلى كاتبنا يحدث عن البنفسج والمنثور، والسوسن والزنبق، وأنا أعرف أن كثيرين سيقولون نعرفها، ولا تزال بين أيدينا، ولكن ماذا عن زهر النمَّام، ماذا عن الأذريون، ماذا عن النيلوفر، ماذا عن البان، ماذا.. ولنتأمل شعرية الاسم.. قف وانظر.. تصوروا زهرة تحمل اسم، قف وانظر.. ماذا عن تمر الحنا، عن الحيلاني، عن زهر الكركيش، عن البهار، عن زهر الآس، عن الزنبق.. إلى آخر ما يعدد لنا الكاتب من صنوف الزهر والاحتفال به.

كنت أرى في بيتنا أصص نباتات الزينة، وكنت أرى احتفال أمي بتلك الأصص وعنايتها بها، الأمر الذي أورثته لي، وكنت أظنه هواية خاصة بها، ومن قرأ روايتي حسيبة يذكر، ولا شك تلك الميتة الأسطورية التي ماتتها خالدية مدفونة تحت كنوز زهورها، مشهد كنت قد رأيته طفلاً، ورسخ في ذاكرتي لأضعه فيما بعد في روايتي، ولكني ما كنت أتخيل أن مدينة لم يكن تاريخها الذي وصلت إليه قد خلا من كارثة مدمرة لخمسين سنة واحدة أبداً. كوارث من حروب مدمرة، وطواعين مفنية، ومجاعات تجعل أبناءها يأكلون الكلاب والجرذان وجثث الأموات، ولكنهم ما إن يجتازوا الكارثة حتى يعودوا إلى زهورهم وفواكههم وسيارين الفرجة على زهر السفرجل، وزهر الدراق وشقائق النعمان.

وتكاد تسأل هذا الرجل – المرآة كيف كان يعيش هؤلاء الناس؟ ألم يكن لديهم أميركا؟ ألم يكن لديهم إسرائيل، ألم يكن لديهم ذرَّة تخيف وتهدد؟ ألم يكن لديهم احتباس حراري؟ ألم يكن لديهم تسونامي يحدث في أقصى الأرض، فتحدثهم عنه وسائل الإعلام وتطنب؟ ألم يكن لديهم زلازل تحدث في النصف الثاني من الكرة الأرضية؟ أعوذ بالله. أكان للأرض نصف ثان في

ذلك الحين.

ولكن.. ويخطر لك السؤال. الكتاب وضع في القرن الخامس عشر، فالكاتب ولد 748 هـ وتوفي 894 هـ، أي ما يساوي بتاريخنا الأوروبي المعاصر 1443 – 1489 أي بعد غزوة تيمورلنك المدمرة بأقل من قرن، بل أقل بكثير، والتواريخ تحدثنا عن تدمير تيمورلنك للحياة والنبات والعمارة في الشرق الإسلامي كله في إيران والعراق والأناضول والشام.. أعوذ بالله. هل استطاعوا نسيان الحرائق والدمار اللذين سببهما و.. تعويض الخراب، الغوطة، الأشجار، البساتين، القصور، المتنزهات، الجوامع.. السيارين ج سيران، النزهة الأسبوعية بالمصطلح الشامي، وأقف عند السيارين.. أو النزهات التي كانت طقساً أسبوعياً، أو فصلياً، أو زهرياً للجميع، كل حسب طاقته المالية. يبدأ المتنزهون بالفول يقلونه مع الكزبرة والثوم ويمرون بالمعلاق أي الرئتين والقلب والكلاوي والحلاوات شحوم الصدر، و.. ينتهون بالخروف المحشو، كل حسب طاقته، ولكن ليس من ممتنع، أو عاجز فللربيع الحق، وللنزهات حق، وللمواسم حق.

ولنستمع إلى المؤلف يتحدث عن مواسم السيارين – النزهات.. وأطرف تلك السيارين، نزهة كانوا يقومون بها في موسم زهر السفرجل.. بالله عليكم أن تنتبهوا إلى ما يشبه السريالية هذا. زهر السفرجل. لو أجريت استفتاء بين القراء المعاصرين الآن، وسألتهم كيف يبدو زهر السفرجل، فلربما أجابني بعضهم، وللسفرجل زهر؟.. بل ربما سألني البعض: ما هو السفرجل أصلاً؟ فالعولمة التي غطت على الثقافات، واختصرت الفواكه لدى الأجيال الشابة إلى الفواكه شبه المصنعة، أي الفواكه الموجودة في كل الفصول ولدى كل سوبر ماركت، وأعني الموز والتفاح الأمريكي طبعاً والذي يمكن حمله عبر القارات تماماً مثل علبة السردين المصنعة في الكاريبي مثلاً والمحمولة إلى سيبريا.. من منا أكل سفرجلاً، وكم نوعاً من السفرجل كان في دمشق.. الزعبوب، أو الزعرور.. من أكله منذ عقود، وكم نوعاً هنالك من الزعبوب أو الزعرور. ثمر الميس.. حب الآس، أو ثمر نبتة الآس أو الريحان..

التفاح ما عدا الغولدن والستاركن الأمريكيين، كم صنفاً كان يوجد منه في دمشق، الكمثرى كم صنفاً كان يوجد منه في الغوطة، اللوز.. هل تتخيلون وجود عشرين صنفاً من اللوز فقط.. أين اختفت كل تلك الطبيعة الجميلة، الغنية، المعشوقة، العاشقة؟ أين اختفت كل تلك الأنهار والنهيرات والجداول التي أعرف وعشت مع الكثير منها قبل الانفجار السكاني الكبير،

أين اختفى سمك بردى الذي كان يتسلل إلى البيوت عبر الطوالع، فالبحرات، فألعاب الأشقياء من الأولاد؟.. أين اختفى السمك الذي كان يشوى للمتنزهين في الربوة، والشيخ رسلان؟..

أنا لا أريد أن أقوم بدور عجوز الزفة ذلك الذي ينعى كل جمال معاصر ويبكي دائماً على الجمال الذي عرفه شاباً ومضى، ولكني حين أذكر السيارين التي حدثني عنها هذا الرجل الذي طرق بابي صباحاً وسما لي نفسه بـ أبو بكر بن عبد الله بن محمد بن أحمد البدري الدمشقي، المصري.. إلخ، وحمل لي كتابه الذي سماه نزهة الأنام في محاسن الشام، وحدثني عن السيران ينصب في موسم شقائق النعمان، والسيران ينصب في موسم زهر المشمش، والسيران ينصب في موسم زهر الرمان، والسيران ينصب في موسم زهر الكرز.. أعوذ بالله. أكانوا فعلاً يعيشون هذه المواسم، أم أنهم كانوا يريدون الاتحاد وعشق الحياة مع الطبيعة، فاخترعوا لها هذه المواسم.

هؤلاء الناس الظرفاء أين مضوا؟ ما الذي تغيّر فيهم حتى نسوا سيران زهر السفرجل، وسيران زهر الرمان؟ ما الذي تغيّر فيهم؟ وكانوا قبل بضعة قرون من تأليف هذا الكتاب يرقصون كما نراهم على جرار الأمفورا مع عازفات الناي، تلك الرقصات التي تشبه الطيران، وتريد الطيران وتريد الاتحاد مع خلفية من أزهار وثمار وحياة. ما الذي غيّرهم فحوّلهم إلى هؤلاء الكابين العابسين لا يعرفون الضحك، ولا يعشقون السيارين؟.. أهي العولمة؟.. ولكن العولمة قديمة قدم المنتصرين، منذ عولمة الاسكندر، وعولمة الإسلام المنتصر، وحتى عولمة أميركا المعاصرة.. إذاً، ما الذي جعلهم ينسون الرقص، ينسون الفرح، ينسون الحياة، وينسون سيارين الفرجة على زهر السفرجل؟.

وبعد..

هذا النص بين يدي القارئ هو إعادة طباعة لكتاب نزهة الأنام في محاسن الشام الذي كان قد حققه وطبعه المرحوم نعمان الأعظمي عام 1341 هـ كما ورد على غلاف طبعته التي أنجزتها المطبعة السلفية بمصر لصاحبها محب الدين الخطيب وعبد الفتاح قتلان، وقد بذل الثلاثة مشكورين كل جهدهم لجعل هذه الطبعة قريبة من الكمال، والكمال غاية الإنسان منذ خلق ولكن الكمال لله.

وأنا حين أعيد طبع هذا الكتاب ضمن هذه السلسلة الميسرة لا أدعي التحقيق، ولست

بالمحقق، ولا أبتغي ربحاً مالياً، ولا شهرة أدبية، وإنما كل أملي هو أن أقدم صوراً مختلفة لدمشق وللشام، وصوراً تاريخية وأدبية وكوزموغرافية لهذه المدينة سنقرأها ضمن هذه السلسلة من آفاق ثقافية دمشقية، محاولاً أن أقرب هذا التاريخ وهذا العالم للقارئ العادي الذي أدار ظهره للأسف للكتاب وللقراءة إما لخوف أدمنه من الكتاب، أو لغلاء في سعره لا يشجعه على شرائه ولكننا في الهيئة العامة للكتاب – وزارة الثقافة السورية نتحمل فارق السعر الكبير ونقدمه فيما يشبه المجَّان للقارئ غير المتخصص آملين أن نكون قد سددنا بعض الدين علينا لهذه المدينة بمناسبة صيرورتها عاصمة للثقافة العربية.

دمشق في 6 / 6 / 2008

خيري الذهبي

نزهَة الأنـام فـي مَحـاسن الشّـام

تأليف

أبي البقاء عبد الله بن محمد البدري المصري الدمشقيّ

تقديم وإعداد

خيري الذهبي

نزهة الأنام في محاسن الشام

خيري الذهبي

ماذا لو قابلته مرة. ماذا لو فتحت الباب استجابة لطرق عليه لتجده يقف بالباب وكأنه يريد الدخول، دخول من يملك البيت. ماذا لو رأيته فاكتشفت أنك تقف أمام ما يشبه المرآة؟ إنه يشبهك في كل شيء، الملامح، الطول، الحياء المخلوط ببسمة اعتذار أنه قد أزعجك في هذا الوقت من الصباح.

تكاد تطلب إليه الدخول، ولكنك فجأة تنتبه إلى ملابسه.. إنها لا تنتمي إلى هذا العصر. إنها ملابس أنيقة، ولكنها ليست الملابس المتأوربة التي تلبسها حتى في سرير نومك. تكاد تطلب إليه الدخول، ولكنك تفاجأ بتحيته وبصرة يحملها على كتفه معلقة إلى عصا.

شيء ما غريب رغم تشابه اللحى، فأنت وقد تقدمت قليلاً في العمر قد خطر لك أن تربي لحيتك، ولكنك حين ربيتها لم تتخيل أبداً أنها لحيته.. وها هو يقف أمامك بطولك ونظراتك ولحيتك فتتنحى جانباً وتتركه يدخل إلى.. بيتك، ولكنك بعد حديث قصير تكتشف أنك تدعوه إلى.. بيته.

تقدم له قهوة صباحك، فيتلفت من حوله خائفاً مستغرباً وكأنك تقدم له إثماً وخطيئة يعاقب عليها، فتقول في سرك إنه يعاف الكافيين، فتقدم له عصير برتقال معلب طبعاً يتذوقه بطرف لسانه ثم يقول: ولكنه ليس عصير برتقال. إن فيه طعماً غريباً. وتنتبه إلى أنه قد اكتشف أنه ليس مما عصر قبل قليل، بل هو عصير معلب في علبة كرتون وقد منع من الفساد بإضافة مادة كيميائية تحفظه من الفساد.

يترك الصرة والعصا ويقوم ليتجول في البيت، تجوُّل من يعرف دهاليزه وخفاياه ليتوقف أمام

المصباح الكهربائي النيون الذي يضيء الدهليز بصورة دائمة، ويكاد يلمسه بيده يتأكد أنه ليس قطعة من النهار حملت إلى الدهليز العتم.

وأخيراً يصارحك بأنه جدك الثالث، أو الخامس هو ليس على ثقة من الترتيب، ولكنه خطر له أن يعود لاستكشاف العالم الذي تركه قبل عدة قرون.

وتبدأ الدخول معه إلى عالمه. عالم مدينة حافظت على هويتها ومعالمها وعاداتها وأشجارها وطيورها وحيواناتها إلى خمسين سنة مضت، ثم بدأ الانفجار الكبير، الانفجار الذي حملته الحضارة والانفجار السكاني الذي سببه الطب الحديث الذي منع الموت عن الضعاف، الانفجار الذي لم يعد يحمل الطواعين التي كانت تبتلع نصف وأحياناً ثلثي السكان، الانفجار الذي قدَّم المواصلات السريعة، فأنقذ ثمر الأرض من نبات وحيوان من كساد فصار ينقل عبر البلاد، وعبر الأقطار، بل عبر القارات معلباً، ومخزناً، ومجمداً إلى آخر ما قدمته التكنولوجيا الغربية التي غيرت كل شيء..

المقدمة التي قدمتها قبل قليل هي إحساسي، وأتمنى أن يكون إحساسك عزيزي القارئ بعد أن تمسك بهذا الكتاب المسمى نزهة الأنام في محاسن الشام، لمؤلفه عبد الله بن محمد البدري المصري الدمشقي. الكتاب يتحدث عن دمشق، عن الشام، عن شامة الدنيا، ولكن لا. ليس هذا أهم ما فيه، فهو يقدم لنا صورة عن الحالة الأدبية في ذلك العصر قبل قرون، وصورة عن الحالة الاجتماعية لدمشق في القرن الخامس عشر، عن دمشق قبل كارثة تيمورلنك التي تلتها كارثة السلطان سليم قبل أقل من قرن. يتحدث المؤلف عن فواكه دمشق والمشمش مثلاً، فيعدد لك ما يوجد منه في المدينة وهو يزيد عن العشرين صنفاً لتكتشف أن ما تبقى منه الآن والذي يعرفه أبناؤنا والذي يباع لدى دكاكيننا لا يزيد عن صنفين أو ثلاثة. ولكن ليس هذا فحسب، بل يقدم لك رؤية شعراء العصر للمشمش، فإذا به يقدم عشرة أو عشرين مقطوعة تتحدث عن المشمش وتشبيهه بقبلة الحبيب، وخد الحبيب، ورائحة الحبيب.

فالمشمش لم يكن فاكهة تشترى من الفاكهاني بقولك: بعني اثنين كيلو مشمش كما نفعل اليوم، لا، فالمشمش ويعدد لك ما قاله فيه أطباء العالم القديم عن طعمه ولونه، وفوائده الصحية، والتأثيرات الجانبية لأكله، وكيف يمكن التغلب عليها ثم يعدد لك أصنافه، وهل سمع القارئ المعاصر عن المشمش الخراساني، أو الكافوري أو البعلبكي، أو الدغمشي، أو الزيري، أو

الحازمي، أو الأيدمري أو السنيني، أو البردي، أو الملوح، أو فراط النجاتي، أو جلاجل القلوع، لكنه بالطبع سمع عن الحموي والبلدي والسندياني والكلابي، أما اللقيس واللوزي و.. .. إلخ.

وتتساءل: ولكن ما للمواطن المحدث المعاصر ولكل هذا الترف، وهذا الاسترخاء الذي يجعله يعرف كل هذه الأنواع من المشمش، وأنا حين أعدد للقارئ الآن كل هذه الأصناف من المشمش فقط، فلست أصف شيئاً معجزاً، فأنا أعرف أن جيل السوريين الذين عاشوا في الأربعينيات والخمسينيات وحتى السبعينيات، كانوا يعرفون معظم هذه الأنواع وكانوا يصرون على تعيينها وشرائها بعينها.

يحدثنا الكتاب عن السيارين الفانتازية، وعن الفواكه الفانتازية ولكن.. ماذا عن الزهور ولنستمع إلى كاتبنا يحدث عن البنفسج والمنثور، والسوسن والزنبق، وأنا أعرف أن كثيرين سيقولون نعرفها، ولا تزال بين أيدينا، ولكن ماذا عن زهر النمَّام، ماذا عن الأذريون، ماذا عن النيلوفر، ماذا عن البان، ماذا.. ولنتأمل شعرية الاسم.. قف وانظر.. تصوروا زهرة تحمل اسم، قف وانظر.. ماذا عن تمر الحنا، عن الحيلاني، عن زهر الكركيش، عن البهار، عن زهر الآس، عن الزنبق.. إلى آخر ما يعدد لنا الكاتب من صنوف الزهر والاحتفال به.

كنت أرى في بيتنا أصص نباتات الزينة، وكنت أرى احتفال أمي بتلك الأصص وعنايتها بها، الأمر الذي أورثته لي، وكنت أظنه هواية خاصة بها، ومن قرأ روايتي حسيبة يذكر، ولا شك تلك الميتة الأسطورية التي ماتتها خالدية مدفونة تحت كنوز زهورها، مشهد كنت قد رأيته طفلاً، ورسخ في ذاكرتي لأضعه فيما بعد في روايتي، ولكني ما كنت أتخيل أن مدينة لم يكن تاريخها الذي وصلت إليه قد خلا من كارثة مدمرة لخمسين سنة واحدة أبداً. كوارث من حروب مدمرة، وطواعين مفنية، ومجاعات تجعل أبناءها يأكلون الكلاب والجرذان وجثث الأموات، ولكنهم ما إن يجتازوا الكارثة حتى يعودوا إلى زهورهم وفواكههم وسيارين الفرجة على زهر السفرجل، وزهر الدراق وشقائق النعمان.

وتكاد تسأل هذا الرجل – المرآة كيف كان يعيش هؤلاء الناس؟ ألم يكن لديهم أميركا؟ ألم يكن لديهم إسرائيل، ألم يكن لديهم ذرَّة تخيف وتهدد؟ ألم يكن لديهم احتباس حراري؟ ألم يكن لديهم تسونامي يحدث في أقصى الأرض، فتحدثهم عنه وسائل الإعلام وتطنب؟ ألم يكن لديهم زلازل تحدث في النصف الثاني من الكرة الأرضية؟ أعوذ بالله. أكان للأرض نصف ثان في ذلك الحين.

ولكن.. ويخطر لك السؤال. الكتاب وضع في القرن الخامس عشر، فالكاتب ولد 748 هـ وتوفي 894 هـ، أي ما يساوي بتاريخنا الأوروبي المعاصر 1443 – 1489 أي بعد غزوة تيمورلنك المدمرة بأقل من قرن، بل أقل بكثير، والتواريخ تحدثنا عن تدمير تيمورلنك للحياة والنبات والعمارة في الشرق الإسلامي كله في إيران والعراق والأناضول والشام.. أعوذ بالله. هل استطاعوا نسيان الحرائق والدمار اللذين سببهما و.. تعويض الخراب، الغوطة، الأشجار، البساتين، القصور، المتنزهات، الجوامع.. السيارين ج سيران، النزهة الأسبوعية بالمصطلح الشامي، وأقف عند السيارين.. أو النزهات التي كانت طقساً أسبوعياً، أو فصلياً، أو زهرياً للجميع، كل حسب طاقته المالية. يبدأ المتنزهون بالفول يقلونه مع الكزبرة والثوم ويمرون بالمعلاق أي الرئتين والقلب والكلاوي والحلاوات شحوم الصدر، و.. ينتهون بالخروف المحشو، كل حسب طاقته، ولكن ليس من ممتنع، أو عاجز فللربيع الحق، وللنزهات حق، وللمواسم حق.

ولنستمع إلى المؤلف يتحدث عن مواسم السيارين – النزهات.. وأطرف تلك السيارين، نزهة كانوا يقومون بها في موسم زهر السفرجل.. بالله عليكم أن تنتبهوا إلى ما يشبه السريالية هذا. زهر السفرجل. لو أجريت استفتاء بين القراء المعاصرين الآن، وسألتهم كيف يبدو زهر السفرجل، فلربما أجابني بعضهم، وللسفرجل زهر؟.. بل ربما سألني البعض: ما هو السفرجل أصلاً؟ فالعولمة التي غطت على الثقافات، واختصرت الفواكه لدى الأجيال الشابة إلى الفواكه شبه المصنعة، أي الفواكه الموجودة في كل الفصول ولدى كل سوبر ماركت، وأعني الموز والتفاح الأمريكي طبعاً والذي يمكن حمله عبر القارات تماماً مثل علبة السردين المصنعة في الكاريبي مثلاً والمحمولة إلى سيبيريا.. من منا أكل سفرجلاً، وكم نوعاً من السفرجل كان في دمشق.. الزعبوب، أو الزعرور.. من أكله منذ عقود، وكم نوعاً هنالك من الزعبوب أو الزعرور. ثمر الميس.. حب الآس، أو ثمر نبتة الآس أو الريحان..

التفاح ما عدا الغولدن والستاركن الأمريكيين، كم صنفاً كان يوجد منه في دمشق، الكمثرى كم صنفاً كان يوجد منه في الغوطة، اللوز.. هل تتخيلوا وجود عشرين صنفاً من اللوز فقط.. أين اختفت كل تلك الطبيعة الجميلة، الغنية، المعشوقة، العاشقة؟ أين اختفت كل تلك الأنهار والنهيرات والجداول التي أعرف وعشت مع الكثير منها قبل الانفجار السكاني الكبير، أين اختفى سمك بردى الذي كان يتسلل إلى البيوت عبر الطوالع، فالبحرات، فألعاب الأشقياء من الأولاد؟.. أين اختفى السمك الذي كان يشوى للمتنزهين في الربوة، والشيخ رسلان؟..

أنا لا أريد أن أقوم بدور عجوز الزفة ذلك الذي ينعى كل جمال معاصر ويبكي دائماً على الجمال الذي عرفه شاباً ومضى، ولكني حين أذكر السيارين التي حدثني عنها هذا الرجل الذي طرق بابي صباحاً وسما لي نفسه بـ أبو بكر بن عبد الله بن محمد بن أحمد البدري الدمشقي، المصري.. إلخ، وحمل لي كتابه الذي سماه نزهة الأنام في محاسن الشام، وحدثني عن السيران ينصب في موسم شقائق النعمان، والسيران ينصب في موسم زهر المشمش، والسيران ينصب في موسم زهر الرمان، والسيران ينصب في موسم زهر الكرز.. أعوذ بالله. أكانوا فعلاً يعيشون هذه المواسم، أم أنهم كانوا يريدون الاتحاد وعشق الحياة مع الطبيعة، فاخترعوا لها هذه المواسم.

هؤلاء الناس الظرفاء أين مضوا؟ ما الذي تغيّر فيهم حتى نسوا سيران زهر السفرجل، وسيران زهر الرمان؟ ما الذي تغيّر فيهم؟ وكانوا قبل بضعة قرون من تأليف هذا الكتاب يرقصون كما نراهم على جرار الأمفورا مع عازفات الناي، تلك الرقصات التي تشبه الطيران، وتريد الطيران وتريد الاتحاد مع خلفية من أزهار وثمار وحياة. ما الذي غيّرهم فحوّلهم إلى هؤلاء الكابين العابسين لا يعرفون الضحك، ولا يعشقون السيارين؟.. أهي العولمة؟.. ولكن العولمة قديمة قدم المنتصرين، منذ عولمة الاسكندر، وعولمة الإسلام المنتصر، وحتى عولمة أميركا المعاصرة.. إذاً، ما الذي جعلهم ينسون الرقص، ينسون الفرح، ينسون الحياة، وينسون سيارين الفرجة على زهر السفرجل؟.

خيري الذهبي

O

الحمد لله الذي جعل الشام في وجه الأرض شامة خضراء، وزان عاطله بحالي عيون تروي قلب الصادي، وتشرح له صدراً. وأجرى ماءها الفضي على ثراء كالذهب، وحلَّى به حصباء در لم يكن فيه مخشلب. وأدار من الماء خلاخيل على سوق أصول الأشجار، وقلَّد أجياد فروعها بيواقيت أثمار توّجت رؤوسها بأكليل جواهر الأزهار. وأرسل كفّ النسيم بمشط المطر فسرّح فروع رؤوس عرائس الغصون، وجمَّلها بحلل ذات أكمامٍ من سندس أخضر ومعصفر صبغة من همْ له ساجدون.

أحمده حمداً كثيراً حيث صبح اللوز بأمره على بعضهن عاقد، وبعضهن أثقلها الحمل من الجوز فأمست بإرادته بعد قيامها تتقاعد. وبعضهن من باسقات النخيل من طرحت بقدرته ثمرة الفؤاد. وأجرى لطفه في بعضهن حيث ارتخت نهودها كالرمان هائمة بحضنهن في كل واد.

وأشكره شكراً مزيداً مذ عطف الطلُّ[1] على طفل أمهات السفرجل فيرضعه وهو يشرب، وأسبل ستره على من رفعت كفوفها كورق الكرمة لما امتدت وعليها العنب زبَّب[2]. ومنهن من عمَّها بالحيا فاحمرّ خدها كالتفاح، ومنهن من نكست رأسها من الهيبة كالكمثرى فأكسبها عُرفاً[3] طوت شقق نشره أيدي الرياح.

سبحانه أوجد بها اجناساً ذات أنواع تسقى بماء واحد، وجاد لعليلها من أنواء السحاب وشعاع النيّرين[4] بصلة وعائد. فجعل قطوفها دانية لأحبائه، وقدَّس أرضها إذ هي مرتع ومربع لأصفيائه.

---

[1] أول المطر

[2] صار زبيباً.

[3] رائحة.

[4] النيرين: المنيرين الشمس والقمر.

وحباها لسكنى الأنبياء، واختارها موطناً لعباده الأولياء.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة عبدتقي يرجو بها في غد التفكه في رياض الجنان مع مزيد الأنعام، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي اخترق السبع الطباق بنور أضاءت منه قصور بصرى من أرض الشام. ذو الشرف الأعلى السنيِّ الجبهة الواضح الجبين، الذي أنزل عليه »وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومَعين«.

اللهم فصل وسلم عليه ما دامت الشام عامرة بحديثه الشريف الماحي لصور الكفر الواهية، وعلى آله وأصحابه الذين تعاونوا على البر والتقوى في فتحها فمنهم من أخذ شطرها الشرقي عنوة، ومنهم من أخذ الشطر الغربي صلحاً من باب الجابية.

وبعد فقد سألتني أيها الأخ الأمجد، والحبيب الأسعد، العاشق في محاسن الشام على السماع، والمتشوّق المتتوّق إلى بديع مرآها المشنِّف ذكره للأسماع. أن أعللك بخبرها لعدم العيان، وأن أقرِّبها إليك بوصف يلذه قلب الهائم الولهان. وهل أنا إلاّ قسيمك في الشوق والهيام، وحليفك في الحب والغرام

وليس بتزويق اللسان وصوغه

ولكنه ما خالط اللحم والدما

غير أني رُميت منها بعد الوصل بقطيعة صدِّها، كأني أذنبت في حالة القرب فأدَّبتني بهجرها وبعدها

عشنا زماناً وليس الوصل يقنعنا

واليوم أدنى خيال منك يرضينا

أي والله

وما قلت إيه بعدها لمحدِّث

من الناس إلا قال قلبي آها

كيف لا وهو

بلد صحبت به الشبيبة والصبا

ولبست صوب العز وهو جديد

فإذا تمثل في الضمير رأيته

وعليه أغصان الشباب تميد

أستغفر الله هي مسقط رأسي، ومجمع أهلي وناسي. وملعب خلاني وإخواني

سقا الله شاماً كان فيها اجتماعنا

بأحبابنا النائين مغدودقاً سكبا

وروَّى ثراها من دموعي مسبل

كبحر فإني أستقلُّ لها السحبا

منازل أحبابي ومربع جيرتي

وأوطان إخواني ومن كان لي تربا

لعمري لئن شطّ المزار وأصبحت

منازلهم شرقاً ومنزلنا غربا

فإني على بُعد الديار وقربها

أسِرُّ لهم حباً وأبدي لهم حبا

يهيج أشواقي من البرق لامع

ويبعث أشجاني النسيم إذا هبّا

ويذكرني ليلات وصل تصرّمت

حمام النوى نوحا فأسعده ندبا

ليالي أعطيت البطالة حقها

ورحت بما يقضيه حكم الصبى صبّا

أعاطي الهوى الصحب الكرام وبيننا

أحاديث آداب أرقٌّ من الصهبا

عسى ما مضى من شملنا أن نعيده

ونصبح في أفق ونمسي به شهبا

كيف أخفي ذلك، وقد سبق في علم الله ما كان حمداً وشكراً على حب الوطن، فإنه من الإيمان
وما عن رضى كانت سليمى بديلةً

بليلى، ولكن للضرورات أحكام

نعم
شكوت وما الشكوى لمثلي عادة

ولكن تفيض العين عند امتلائها

فأجبتك أيها السائل إذ هيَّجت عندي من الدموع بحار الاشتياق. وواسيتك أيها العاشق إذ أتيتك بخبر المعشوق، ولعل الخبر يكون وصله في التلاق، وقد فصَّلته لك في هذه الأوراق. وهو من جملة ما عندي، وقدمت لحضرتك السامية ثروة ما ملكه اللّسان من جواهر حفظها القلب في صندوق الصدر وأوردتها بخط يدي. وما هي إلا صبابة من صبٍّ، وقطرة من جفن نازح حبٍّ.
وما تناهيت في بثي محاسنها

إلا وأكثر مما قلت ما أدع

لعلمي أن محاسن »دمشق« كثيرة لا تستقصى، وأوصاف صفاتها تتضاعف أعدادها ولا تحصى. قصرت عن استيفائها أرباب التواريخ المطولة الحسنة، وحفيت سوابق فحول أقلامها في ميادين الطروس أن يدركوا حصر بعضها في مصنفاتهم المدونة. لكن بحمد الله جاءت هذه النبذة حديقة يترنح بها الخاطر، ويتنزه فيها الناظر، ولهذا سميتها:

(نزهة الأنام في محاسن الشام)

والله تعالى أسأل أن يعوضنا عن ضيق هذه الدنيا الجافية، بالدخول إلى جناته الواسعة الرفيعة، وأن يمتعنا فيها بفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة. إن شاء الله تعالى بكرمه ومنَّه وأمنه ويمنه.

فمن محاسن الشام ما ورد فيها من رواية أبي داود في سننه عن عبد الله بن حوالة قال رسول الله (صلعم): »إنكم ستجندون بعدي أجناداً ثلاثة جنداً إلى اليمن، وجنداً إلى الشام، وجنداً إلى العراق«. قال عبد الله: »خِر[5] لي يا رسول الله«. قال: »عليك بالشام، فإنها خيرة الله في أرضه، يجتني إليها خِيرته من عباده، وإن الله قد تكفّل لي بالشام وأهله«. قال أبو إدريس الخولاني: ومن تكفّل الله به فلا ضيعة عليه.

وقال رسول الله (صلعم): »ستفتح عليكم الشام فعليكم بمدينة يقال لها (دمشق) هي خير مدائن الشام، وفسطاط المسلمين بأرض منها يقال لها الغوطة.

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: »أربع مدائن من مدائن الجنة وأربع مدائن من مدائن النار. فأما مدائن الجنة فمكة والمدينة وبيت المقدس ودمشق، وأما مدائن النار: فالقسطنطينية وطبرية وأنطاكية المحترقة وصنعاء«.

قال أبو عبد الله السقطي: ليس هي صنعاء اليمن، وإنما هي صنعا بأرض الروم. وأنطاكية المحترقة إنما سمّيت بذلك لأن العباس بن الوليد بن عبد الملك أحرقها. وهو من فضائل الشام للربعي. وهو عند كعب الأحبار أيضاً من طريق آخر. انتهى

والحديث المبدأ به رويناه من حديث أبي مسهر عبد الأعلى بن مسهر عن سعيد بن عبد العزيز عن ربيعة بن يزيد عن أبي إدريس الخولاني عن عبد الله بن حوالة الأزدي رضي الله عنه، قال شيخ الإسلام وأمير المؤمنين في الحديث شهاب الدين أحمد بن حجر رحمه الله تعالى، وهو حديث حسن مسلسل بالدمشقيين، وهو عن النبي (صلعم) قال: »إنكم ستجندون أجناداً: جنداً بالشام، وجنداً بالعراق، وجنداً باليمن«. قال الحوالي: »خر لي يا رسول الله«. قال: »عليكم بالشام، فمن أبى فليلحق بيمنه ويسقَ من غدره فإن الله قد تكفّل لي بالشام وأهله«. فكان أبو إدريس الخولاني إذا حدَّث بهذا الحديث التفت إلى ابن عامر فقال: »من تكفل الله تعالى به فلا ضيعة عليه«. انتهى. والله

---

[5] **تخيَّر.**

تعالى أعلم.

ومن محاسن الشام هذا الحديث القدسي الذي ورد فيها عن كعب الأحبار[6] رضي الله عنه قال: »إنا نجد في كتاب الله تعالى يعني التوراة أنَّ الأرض على صفة النسر، فالرأس الشام والجناح الأيمن الغرب، والجناح الأيسر الشرق، وهو العراق وخلف العراق أمة يقال لها واق، وخلف واق أمة يقال لها واق واق. وخلفها من الأمم ما لا يعلمه إلا الله تعالى. والظهر السند وخلف السند الهند، وخلف الهند أمة يقال لها مسند، وخلف ذلك من الأمم ما لا يعلمه إلا الله تعالى. والذنب اليمن فلا يزال الناس بخير ما لم يقرع الرأس، فإذا قرع الرأس هلك الناس«.

قال بعض الشرّاح والمؤرخين والمفسرين إنما سمّيت الشام شاماً لأن قوماً من بني كنعان نزلوها، فتشاءموا إليها، فسميّت شاماً لذلك.

وقال طائفة: إنما سمّيت شاماً لمَّا تشاءم لها[7] أهل اليمن من يمنهم، كما يقال تيامنوا وتياسروا، فسميت بذلك. وقال قوم: إنما سميت شاماً لأن بني إسرائيل قتلوا بني كنعان ونفوا ما بقي منهم، فصارت لهم، ثم وثب الروم على بني إسرائيل فقتلوهم، وأجلوا من بقي عنها إلى العراق إلا قليلاً منهم، ثم جاءت العرب فقتلت الروم وسبتهم، وهرب من سلم منهم إلى بلاد الروم، واستمرت بيد أولاد العرب إلى يومنا هذا.

قال الجوهري يذكر ويؤنث ورجل شآمي وشآم على فعال، وشامي أيضاً حكاه سيبويه رحمة الله تعالى عليه، ولا تقل شأم وما جاء في ضرورة الشعر محمول على أنه اقتصر من النسبة على ذكر البلد، وامرأة شاميَّة وشامية مخففة الياء.

ونقلت من خط اللغوي أحمد بن مطرف من الجزء الثاني من كتابه المسمّى بالترتيب في الأخبار والأعاجيب، أن الشام قولين أحدهما أنه يجوز أن يكون مأخوذاً من اليد الشومى، وهي اليد اليسرى واليمنى أختها، فالشومى من الشوم واليمنى من اليمن. وقالت العرب:

فأنحى على شؤمى يديه فذادها

---

[6] **كعب الأحبار: حاخام يهودي أسلم، وسرَّب كثيراً من الإسرائيليات إلى الإسلام. وصيغ هذه الأحاديث التي تذم اليمن ربما كان واضعها قيسي، والصراع في الشام بين القيسيين واليمنيين لم ينقطع حتى زمن قريب.**

[7] **كانت في الأصل »لما تشاءموا لها.. إلخ«.**

باظمأ من فرع الذؤابة أسحما

أظمأ أفعل من الظما وشؤمى مقصور مهموز ويجوز أن يكون فعلى من الشوم.

ويجوز أن يكون فيه قول ثالث، وهو أن يكون جمع شامة والشامة العلامة. يقال شامة وشام مثل حاجة وحاجٍ. والرجل أشأم إذا كان ذا شامة، وحقيقة الشامة أن تكون مخالفة للون سائر الجسم. قال الجاحظ وأطلقت الشامة على النكتة من أي لون كان في أي لون كان أضعافها. ألا ترى قول رسول الله (صلعم) لما نزلت »يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم – إلى قوله – ولكن عذاب الله شديد«. قال عمران بن الحصين: أنزلت هذه الآية وهو في سفر. قال: »أتدرون أي يوم ذلك«؟ قالوا: »الله ورسوله أعلم«. قال: »ذلك يوم يقول الله لآدم ابعث ببعث النار«. قال: »يا رب وما بعث النار؟« قال: »تسعمائة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة«. فأنشأ المسلمون يبكون. فقال رسول الله (صلعم): »قاربوا وسدِّدوا فإنه لم تكن نبوّة قط إلا كان بين يديها جاهلية فيؤخذ ذلك العدد من الجاهلية، فإن تَّمت وإلا كملت من المنافقين. وما مثلكم ومثل الأمم إلا كمثل الرقمة في ذراع الدابة، أو كالشامة في جنب البعير«. ثم قال: »إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة«. فكبَّروا. ثم قال: »إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة«. فكبَّروا. ثم قال: ولا أدري. قال الثلثين أم لا. رواه الترمذي.

فانظر إليه صلى الله عليه وسلم كيف أطلق الشامة وجعلها في جنب البعير. والبعير قد يكون أزرق أو أحمر وغير ذلك. وما الغرض إلا النكتة القليلة من أي لون كانت في جنب البعير من أي لون كان. ألا تراهم يقولون أرض الشام والشام جمع شامة.

وذهب بعضهم إلى تسميته شاما لشامات له يعني اختلاف أراضيه في ألوان ترابها، وقد علمت أن بعض ترابه أبيض وأسود وأحمر وأصفر، وبعضها أكدر. ويختلف كل لون منها في ذاته بالأشدية والأضعفية اختلافاً كثيراً. فصحّ أن إطلاق الشامة هاهنا لكونها نكتة في الأرض، إذ الشام بمجموعه لو كان لوناً واحداً لكان كالنكتة الخفيفة الخفية في أديم الأرض. ثم إنهم تجاوزوا في استعمال الشامة إلى أن أطلقوها على غير اللون، فأطلقوها على كل شيء قليل في نوعه. فقالوا: فلان في قومه شامة. إما لمزيته عندهم بالكرم أو بالحلم أو بالشجاعة أو بغير ذلك من الصفات الحميدة. ومنه قول ابن الساعاتي:

لولا صدودك يا أمامه ما بت أندب عهد رامه

أبكي ليالي غبطة كانت لخدّ الشام شامه

فتأمل كيف أطلق الشامة على لياليه التي قطعها بالشام، لأنه استلذ زمانها، واستطاب أوقاتها من بين الليالي كلها.

ومن محاسن الشام ما يروى عن كعب الأحبار رضي الله عنه أنه قال: ما بعث الله نبياً إلا من الشام، فإن لم يكن من الشام هاجر إلى الشام. وبها رأس يحيى ابن نبي الله زكريا عليهما السلام بين الأساطين[8] من الجانب الشرقي بالجامع الأموي. قباله هود عليه السلام في الجدار القبلي قبره.

ومن محاسن الشام بناؤها ودمشقتها.

قال وهب بن منبه[9]: دمشق بناها العازر غلام إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، وكان حبشياً وهبه له نمرود بن كنعان.

وقال أبو الحسن الرازي[10]: رأيت في الكتاب الذي سماه أبو عبيدة »كتاب فضائل الفرس« أن بيوراسف الملك بنى مدينة بابل ومدينة دمشق.

وفي جزء الدمشقيين ما حكاه أبو الخير العراقي قال: كان في زمان معاوية بن أبي سفيان رجل صالح بدمشق، وكان يقصده الخضر عليه السلام في أوقات للزيارة، فبلغ ذلك معاوية، فجاء إليه وقال: بلغني أن الخضر يأتيك، فأحب أن تجمع بيني وبينه. فقال له: نعم. فلما جاء الخضر عليه السلام على العادة قال له الرجل: إن معاوية سأله الاجتماع به. فقال الخضر عليه السلام لا سبيل إلى ذلك. قال معاوية: قل له قد اجتمع على أفضل الخلق، وحدّثه وجلس معه، وهو سيد الأولين والآخرين صلى الله عليه وسلم، ولكن سله عن ابتداء »دمشق« كيف كان. قال الرجل: فسألته. قال: صرت إليها فرأيت موضعها بحراً تستجمع فيه المياه، ثم غبت عنها خمسمائة عام، ثم صرت إليها فرأيتها قد ابتدئ فيها بالبناء ونفر يسير بها.

ونقل ابن عساكر رحمه الله تعالى في فتوحه قال: وجدت بخط أبي الفرج الأصفهاني فيما ذكر أنه نقله من كتاب فيه أخبار الكعبة المشرفة وفضائلها، وأسماء المدن والبلدان وأخبارها، ثم

---

[8] كانت في الأصل »الأساطوين« = العمد الأسطوانية.

[9] وهب بن منبه: يهودي آخر سرب كثيراً من الإسرائيليات إلى الإسلام.

[10] خرافة أخرى لا سند تاريخياً لها، ولكن ننقلها كما كان جيل المؤلف يؤمن.

ذكر مولد إبراهيم الخليل عليه السلام على رأس ثلاثة آلاف ومائة وخمسين سنة من جملة الدهر، الذي هو سبعة آلاف سنة، وذلك بعد بنيان دمشق بخمسين سنة. ونقل بعض المؤرخين بخمس سنين. قلت: وهذا يناقض ما تقدم والله سبحانه وتعالى أعلم.

وقال صاحب عيون التواريخ: أن الذي بناها غلام (الاسكندر) اسمه »دمشقش« وقيل »دمشق«.

وذلك لما رجع (الاسكندر) من المشرق، وعمل السد بين أهل خراسان وبين يأجوج ومأجوج، وسار يريد المغرب، فلما بلغ الشام وصعد على عقبة (دُمّر)، نظر إلى هذا المكان الذي فيه اليوم (دمشق)، فوجده وادياً يخرج منه نهر جار وغيضة أرز، فلما رآها ذو القرنين ورأى اجتماع الماء بواديها، فأخذ الاسكندر لغلامه (دمشقش) فأمره أن ينزل بها، وكان أمينه على جميع ملكه، فنزل هو والاسكندر في موضع القرية المعروفة (بيلدا)، وهي من غيضة الأرز على ثلاثة أميال. وأمره أن يحفر في ذلك الموضع حفيرة، فلما فعل ذلك، أمر أن يردمها بالتراب الذي حفر منها، فلما ردَّ التراب إليها لم يملأها، فقال للغلام: ارحل بنافإني كنت نويت أن أُأسس[11] في هذا المكان مدينة فبان لي ما يصلح أن يكون ههنا مدينة، فإنه ما يكفي أهلها زرعها، فلما رحل الاسكندر عنها وصار إلى (البثنية) و(حوران)، وأشرف على تلك السعة ، ونظر إلى أرضها الحمراء، فأمر بتناوله من ذلك التراب، فلما لمسه بيده أعجبه، ورأى لونه كالزعفران، فأمر بالنزول هناك، وأن يحفر حفيرةً، فلما حفرت أمر برد التراب فردوه، ففضل منه ثلثه، فقال »الاسكندر« للغلام »دمشقش«: ارجع إلى الموضع الذي به الأرز، وانزل الوادي واقطع الأشجار التي على حافاته، وابنها مدينة وسمها باسمك، فهناك يصلح أن يكون مدينة، وهنا يصلح أن يكون زرعها، فإنه يجزئها[12] ويكون منه ميرتها. يعني المكان المسمّى بحوران والبثينة. فرجع الغلام دمشقش إلى الغيضة واختطَّ بها المدينة، وجعل لها ثلاثة أبواب: الأول »باب جيرون، والثاني »باب البريد«، والثالث »باب الفراديس«، وهذا القدر هو المدينة، فإذا أغلقت هذه الثلاثة الأبواب فقد أغلقت المدينة وتحصّنت. وخارج الأبواب مرعى ونباتٌ وأعشابٌ وما أشبه ذلك. وكان قد بنى له فيها كنيسة يعبد الله تعالي فيها، وهي الموضع الذي هو الآن الجامع.

---

[11] الأصح إملائياً: أؤسس.

[12] يجزئها = يكفيها.

وقيل إن الذي بنى الكنيسة اليونان[13]. وقيل بل وسَّعوها هم وكبَّروها على ما هي عليه اليوم من الجامع المعمور بذكر الله تعالى.

وسكنها »دمشقش« واستمرَّ بها إلى أن مات فيها، وبه عرفت وسمّيت، غير أن طول الأزمنة، وتغيّر الأحوال، واختلاف الألسنة حذفت شينه وسكنت قافه فقيل (دمشق)، وقيل إنما اسمه دمشق وبه سمّيت.

وقال الجوهري دمشق المراد به السرعة ويجمع على دماشق ومنه قول الهذلي:

دماشق يعفقن عنق السعالى

خفاف التوالي طوال الجزور[14]

وناقة دمشق أي سريعة جداً، ومثالها حِضَجر، ومنه قول الزفيان »وصاحبي ذات هباب دمشق«.

قال الجوهري و»دمشق« هي قصبة الشام.

وقال أبو مسهر عبد الأعلى راوي الحديث المتقدم: إن الذي بنى حصن »دمشق« هو الذي حوّل أبواب »بيت المقدس« إلى مسجدها، وجعله على مساحته.

واليونان هم الذي وضعوا الأرصاد، وتكلموا على حركات الكواكب واتصالاتها ومقارنتها، وبنوا »دمشق« في طالع سعيدٍ، واختاروا هذه البقعة إلى جانب الماء الوارد بين هذين الجبلين، وصرفوا أنهاراً تجري إلى الأماكن المرتفعة والمنخفضة، وسلكوا الماء في أبنية الدور بها، وبنوا هذا المعبد، وكانوا يصلون إلى القطب الشمالي، فكانت محاريبه تجاه الشمال، وبابه يفتح إلى جملة[15] القبلة حيث المحراب اليوم، كما شاهدنا ذلك عياناً لما نقضوا بعض الحائط القبلي، وهو بابٌ حسنٌ مبنيٌ بحجارة منحوتة، عن يمينه ويساره بابان صغيران بالنسبة إليه، وكان غربيّ المعبد قصراً منيفاً جداً تحمله هذه الأعمدة التي بباب البريد، وشرقيه باب قصر جيرون وهي »إرم ذات العماد، التي لم يخلق مثلها في البلاد«.

---

[13] اليونان هم السلوقيون ورثة الاسكندر.

[14] لم نجد هذا في (الصحاح) وفي الأسطر الثلاثة التالية.

[15] الأصح جهة.

وقال بعض المؤرخين الذي بنى »باب جيرون« سليمان[16] عليه السلام بنته له الشياطين، وكان الذي تكفّل بعمارته اسمه »جيرون« فسمى به.

وقال بعض المؤرخين بناه »عاد«، وقيل بل ولده »سعد«، كان له ولدان أحدهما اسمه »جيرون« والآخر »بريد«، فبنى لهما هذين القصرين على أعمدة، وفتح لكل قصر منهما باباً إلى المعبد، فسمي كل واحد باسم صاحبه، وهو أول من صنع المدينة وأحدث بها البناء، وعمل لها الأبواب:

الأول (الباب الصغير) وهو الذي نزل عليه »يزيد بن أبي سفيان« في حصار المسلمين للروم، ودخل منه. وسمّي بذلك لأنه كان أصغر أبوابها حين بنيت. وقيل يسمّى »باب الجابية الصغير« وهو في قبلة البلد.

الثاني »باب كيسان« وهو من شرقيّه، وينسب إلى »كيسان مولى معاوية« لنزوله عليه قلت، وهو الآن مسدود.

ويليه الثالث وهو »بابٌ شرقيٌّ« لأنه شرقيّ البلد وعليه نزل »خالد بن الوليد« رضي الله عنه، ومنه دخل عنوةً كما في التواريخ المطولة.

ويليه الرابع وهو »باب توما« من شام البلد، ينسب إلى عظيم من عظماء الروم، وسمّي باسمه، وكان له عليه كنيسة.

ويليه الباب الخامس وهو المسمى »بباب الجنيق« منسوب إلى رومي اسمه »الجنيق«، وبه تعرف »محلة الجنيق« كانت خارج البلد تسمّى »الفراديس« والفراديس بلغة الروم البساتين.

ويليه السابع وهو »باب الجابية« منسوب إلى »قرية الجابية«، وكانت في الجاهلية مدينة عظيمة. وقال الحافظ ابن عساكر رحمه الله: كان باب الجابية ثلاثة أبواب: الأوسط منها كبير، ومن جانبيه بابان صغيران، وكان الباب الشرقي بهذه الصفة لكونه مقابله، وكان من الثلاثة الأبواب ثلاثة أسواق ممتدة من الباب الشرقي إلى باب الجابية.

---

[16] دسيسة يهودية أخرى، فسليمان عليه السلام لم يدس دمشق أبداً، لا هو ولا أي من ملوك بني إسرائيل حسب التاريخ الموثق.

وكان الأوسط من الأسواق الثلاثة للمشاة من الناس، وأحد السوقين (لمن) يشرّق بدابة والآخر لمن يغرّب بدابة حتى لا يلتقي فيهما راكبان.

والأبواب صوَّروها على الكواكب، فزحل على باب كيسان، وعلى الباب الشرقي صورة الشمس، وعلى باب توما الزهرة، وعلى باب الجنيق القمر[17]، وعلى باب الفراديس عطارد، وعلى باب الجابية المشتري، وعلى الباب الصغير المريخ[18].

وكان من حكماء اليونان من اتخذ على باب الجابية صورة إنسان مطرق الرأس كالمتفكر، ومن أعماله أنه إذا دخل أحد يريد بدمشق سوءاً أو بأهلها، فإن ذلك الإنسان يصرُّ لأنينه الباب فيعلم به خدمة الباب وقوامه.

والمرحوم نور الدين محمود بن زنكي الشهيد افتتح لها باباً وسماه »باب السلام[19]« وأحدث باب الفرج وسمّاه بذلك لما وجد الناس به من الفرج.

قال ابن عساكر وكان بقربه باب يسمى باب العمارة، فتح عند عمارة القلعة فسدَّ، وأثره باق إلى يومنا هذا، وأول من بنى القلعة أقسز ابن آوق، ولما جدد الملك العادل أبو بكر بن أيوب القلعة أذهب باب العمارة. والله أعلم.

ويليه الباب الجديد، وهو الآن خاص بالقلعة والذي أحدثه الأتراك[20] في دولتهم، ثم صحفته العوام بالحديد[21]، وهو يفتح إلى القلعة، يليه من الغرب باب السر سمّي بذلك لكونه يفتح إلى القلعة أيضاً، وكانت الأتراك ينزلون منه سراً ويطلعون منه ويجوز الخارج منه على جسر من خشب من تحته الخندق الدائر بالقلعة ينيف عمقه على مائة ذراع بالعملة، به يتخزن الماء وينبت البوص وغير ذلك، وهو غير خندق المدينة.

واصطلح في آخر دولة ابن قلاوون أن من يولى نيابة دمشق أن يصلي عند هذا الباب ركعتين مستقبل القبلة، بحيث يبقى الباب على يساره، ويقف أجناد القلعة وأرباب الوظائف

[17] في ابن عساكر (1: 16) وباب الفراديس الآخر المسدود للقمر.

[18] في ابن عساكر الباب الصغير للمشتري وباب الجابية للمريخ.

[19] في الأصل »باب السلامة«.

[20] السلاجقة ورجالهم من الأتابكة.

[21] قال ابن عساكر (1: 16) باب الحديد في سوق الأساكفة.

والأتراك في منازلهم على حسب العادة، متحملين السلاح إلى أن يفرغ من صلاته ودعائه، فإن أريد به شر قبض عليه ودخلوا به من ذلك الباب ويقفلون الجسر بينهم وبين أعوانه، فإن الجسر بلوالب يحيل بينهم. وإن أريد به خير ركب في عزه ووجوه الدولة في خدمته إلى أن ينزل بدار العدل التي أنشأها المرحوم نور الدين الشهيد. وهي التي تسمّى اليوم بدار السعادة، وهي تلي باب السرور، وعلى بابها باب النصر، فتحه الملك الناصر بن أيوب للمدينة.

وهذه الخمسة الأبواب الحادثة جميعها فيما بين بابي الجابية والفراديس إلا باب السلام، وفي السور أبواب صغار تفتح عند الحاجة إليها غير ما ذكرنا، وغالب هذه الأبواب القديمة بنى عليها منائر نور الدين الشهيد رحمه الله على مساجد، وجعل لكل باب باشورة كالسويقة بها حوانيت مملوءة بالبضائع، فإذا حصنت المدينة وقفلت الأبواب يستغني أهل كل باب من هذه الأبواب بما عندهم، وهو مقصد جميل. والله أعلم.

ومن محاسن الشام افتتاحها على يد الصحابة رضي الله عنهم. قال الحافظ ابن عساكر لما فتح الله تعالي على المسلمين الشام بكماله ومن جملته »دمشق« المحروسة بجميع أعمالها، وأنزل الله عز وجل رحمته فيها وساق بره إليها، كتب أمير المؤمنين[22] وهو إذ ذاك أبو عبيدة رضي الله عنه كتاب أمان وأقرّ بأيدي النصارى أربع عشرة كنيسة، وأخذ منهم نصف هذه الكنيسة، وأخذ منهم التي كانوا يسمونها كنيسة مريُحَنّا[23] بحكم أن البلد فتحه خالد بن الوليد رضي الله عنه من الباب الشرقي بالسيف، وأخذت النصارى الأمان من أبي عبيدة، وهو على باب الجابية، فاختلفوا ثم اتفقوا على أن جعلوا نصف البلد صلحاً ونصفه عنوة، فأخذ المسلمون نصف هذه الكنيسة الشرقي، فجعله أبو عبيدة رضي الله عنه (مسجداً وكانت قد صارت إليه إمارة الشام، فكان أول من صلى فيه أبو عبيدة رضي الله عنه)[24] ثم الصحابة بعده في البقعة التي يُقال لها محراب الصحابة رضي الله عنهم، ولم يكن الجدار مفتوحاً بمحراب محنى، وإنما كان المسلمون يصلون عند هذه البقعة المباركة.

وكان المسلمون والنصارى يدخلون من باب واحد، وهو باب المعبد الأصلي الذي كان في

---

[22] أي الأمير على من شهد هذا الفتح من المؤمنين.

[23] كنيسة ماريوحنا هي الكنيسة الكبرى التي ستصبح الجامع الأموي، والتي كانت معبداً لجوبيتر الدمشقي قبل ذلك، ومعبداً للإله حدد قبل ذلك.

[24] الموضوع بين هاتين الإشارتين ( ) كان ناقصاً من النسخة البغدادية وأكمل من النسخة المصرية.

جهة القبلة مكان المحراب الكبير الذي هو اليوم حسبما سلف لنا ذكره، فينصرف النصارى إلى جهة الغرب لكنيستهم، ويأخذ المسلمون يمنة إلى مسجدهم. ولا يستطيع النصارى أن يجهروا بقراءة كتابهم، ولا يضربون بناقوس إجلالاً للصحابة رضي الله عنهم ومهابة لهم وخوفاً منهم.

ولما ولي إمارتها معاوية رضي الله عنه، بنى دار الإمارة وسماها (الدار الخضراء)، وسكنها معاوية أربعين سنة والأمر على ذلك. والله أعلم.

*ومن محاسن الشام ما ورد في فضل مسجدها. نقل عن بعض المفسرين في قوله تعالى: »والتين والزيتون وطور سنين وهذا البلد الأمين« عن قتاده أنه قال: لقد أقسم الله تعالى بأربعة مساجد، فإن التين هو مسجد دمشق، والزيتون مسجد بيت المقدس، وطور سنين حيث كلّم الله عز وجل موسى عليه السلام، والبلد الأمين مكة المشرفة.

*وعن يزيد بن ميسرة قال: أربعة أجبل مقدسة بين يدي الله تعالى: طور زيتا، وطور سينا، وطور تينا، وطور تيمانا. قال: فطور زيتا بيت المقدس، وطور سينا طور موسى عليه السلام، وطور تينا مسجد دمشق، وطور تيمانا مكة المشرفة.

*وعن محمد بن شعيب قال: سمعت غير واحد من قدمائنا يذكرون أن التين مسجد دمشق، وأنهم قد أدركوا فيه شجراً من تين قبل أن يبنيه الوليد.

*وعن عمرو بن الدونس الغساني في تفسير والتين قال: التين مسجد دمشق، كان بستاناً لهود عليه السلام، وفيه تين قديم[25].

*وعن القاسم بن عبد الرحمن قال: أوحى الله تبارك وتعالى إلى جبل قاسيون أن هب ظلك وبركتك لجبل بيت المقدس. قال ففعل. فأوحى الله عز وجل إليه: أما وقد فعلت فإني سأبني لي في حضنك بيتاً. قال الوليد بن مسلم في حضنك أي وسطك، وهو المسجد أعني مسجد دمشق أعبد فيه بعد خراب الدنيا أربعين عاماً، ولا تذهب الأيام والليالي حتى أرد عليك ظلك وبركتك. قال فهو عند الله بمنزلة المؤمن الضعيف المتضرع.

ويقال إن أول من بنى جدران هذا الجامع الأربعة هود عليه السلام، وكان هود قبل إبراهيم

---

[25] الموضوع أمامه (*) روايات جميلة تعبر عن حب المسلمين لدمشق، ومن الحب ما جعل هؤلاء الناس يفسرون هذه الآية بهذه الصورة الشعرية.

الخليل عليهما السلام بمدة طويلة.

وقد جاء في الأخبار أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام قاتل شمالي دمشق عند »بَرْزَة« قوماً من أعدائه، فظفر بهم، وكان مقامه لمقاتلتهم عند قرية برزة وبه سمّيت عند بروزه على أعدائه، وبها متعبُّده بسفح الجبل ينسب إليه. وكانت دمشق عامرة إذ ذاك.

وعن مسلم بن الوليد قال: لما أمر الوليد بن عبد الملك ببناء مسجد دمشق وجدوا في حائط المسجد القبلي لوحاً من حجر منقوش، فأتوا به الوليد، فلم يجد من يحسن قراءته، فدلوه على وهب بن منبه، فبعث إليه فلما قدم أخبره بموضع ذلك اللوح فقرأه وهب، فإذا فيه موعظة[26] وفي آخرها كتب في زمن سليمان بن داود عليهما السلام. والله سبحانه وتعالى أعلم.

ومن محاسن الشام بناء معبدها. قال ابن عساكر: لما صارت الخلافة إلى الوليد بن عبد الملك عزم على أخذ بقية هذه الكنيسة وإضافتها إلى ما بأيدي المسلمين، وجعل الجميع مسجداً واحداً، وذلك لتأذي المسلمين بسماع قراءة النصارى في الإنجيل، ورفع أصواتهم في الصلاة، فأحب أن يبعدهم عن المسلمين، فطلب النصارى وسألهم أن يخرجوا عن بقية الكنيسة ويعوضهم إقطاعات كثيرة عرضها عليهم، وأن يقرَّ لهم أربع كنائس لم تدخل في العهد، وهي كنيسة مريم وكنيسة المصلَّبة وكلاهما داخل الباب الشرقي، وكنيسة تل الجبن وكنيسة حميد بن درّة[27] التي بدرب الصيقل، فأبوا ذلك أشد الإباء، فقال ائتونا بعهدكم الذي بأيديكم في زمن الصحابة فقرئ بحضرة الوليد، فإذا كنيسة توما التي كانت خارج باب توما لم تدخل في العهد، وكانت فيما يقال أكبر من كنيسة مريُحنَّا، فقال أنا أهدمها وأجعلها مسجداً، فقالوا بل يتركها أمير المؤمنين، وما ذكر من الكنائس ونحن نرضى بأن يأخذ بقية كنيسة مريُحنَّا، فأقرهم على تلك الكنائس وأخذ منهم بقية الكنيسة.

ثم أمر الوليد بالهدم، فجاءت أساقفة النصارى وقساوستهم، وقد ندموا، فقالوا يا أمير المؤمنين، إنا نجد في كتبنا أن من يهدم هذه الكنيسة يجنُّ، فقال أنا أحب أن أجنَّ في الله، والله لا يهدم فيها أحد قبلي، ثم صعد المنارة الغربية، وكانت صومعة عظيمة، فإذا فيها راهب، فأمره بالنزول

---

[26] هذه الموعظة في تاريخ ابن عساكر (1: 197).

[27] قال ابن عساكر (1: 242): هو حميد بن عمرو بن مساحق القرشي العامري، وأمه (درة) بنت أبي هاشم خال معاوية بن أبي سفيان، وهو أبو هاشم بن عتبة بن ربيعة. وكان الدرب إقطاعاً له فنسبت الكنيسة إليه.

(28) علينا أن نلاحظ أن المفسر هو اليهودي المتأسلم وهب بن منبه صاحب الحكايات الإسرائيلية.

منها، فأبى الراهب، فأخذ بقفاه وحدّره منها، ثم وقف على أعلى مكان منها فوق المذبح الأكبر الذي يسمونه الشاهد، وأخذ فأساً وضرب أعلى حجر فألقاه، فتبادر الأمراء والأجناد إلى الهدم بالتكبير والتهليل، والنصارى تصرخ بالعويل على درج باب البريد وجيرون، وقد اجتمعوا، فأمر الوليد صاحب الشُرَط أن يضربهم وهدم المسلمون جميع ما كان من آثارهم من المذابح والأبنية والحنايا حتى بقي صرحة مربعة.

ثم شرع في بنائه بفكرة جيدة على هذه الصفة الحسنة التي لم يشهد مثلها من قبلها ولا من بعدها.

واستعمل الوليد في هذا المسجد خلقاً كثيراً من الصنّاع والمهندسين والمرخِّمين. وكان المستحث على عمارته أخوه سليمان بن عبد الملك، ويقال إن الوليد بعث إلى ملك الروم يطلب منه صناعاً في الرخام والأحجار وغير ذلك، ليعمروا هذا المسجد على ما يريد، وأرسل يتوعَّده إن لم يفعل ليغزونّ بلاده بالجيوش وليخرِّبن كل كنيسة في بلاده حتى القيامة بالقدس الشريف، ويهدم كنيسة الرُّها وجميع آثار الروم. فبعث ملك الروم صنّاعاً كثيرة جداً، وكتب إليه يقول له: إن كان أبوك فهم هذا الذي تصنعه وتركه فإنه لوصمة عليك، وإن لم يفهمه وفهمته أنت فإنه لوصمة عليه. فأراد أن يكتب إليه الجواب وإذا بالفرزدق الشاعر دخل عليه، فأخبره بما كتبه ملك الروم، فقال: يا أمير المؤمنين أنت جعلت أخاك سليمان هو القائم بأمر العمارة، والجواب بنص القرآن: »ففهمّناها سليمان وكلاً آتينا حكماً وعلماً« فأعجب ذلك الوليد وأرسل به جواباً لملك الروم.

ولما أراد الوليد أن يبني القبّة التي في وسط الرواقات التي يقال لها قبّة النسر (قلت وهو اسم حادث على ما أظن كأن العوام شبهوها بالنسر في شكله، لأن الرواقات عن يمينها وشمالها كالأجنحة لها) حفر لأركانها حتى وصل إلى الماء، وشربوا منه ماء عذباً زلالاً، ثم وضعوا فيه جراز الكرم وبنوا فوقها بالحجارة، فلما ارتفعت الأركان عقدوا عليها القبة فسقطت. فقال الوليد وقد أعياه أمرها لبعض المهندسين: أريد أن تبني لي أنت هذه القبة. فقال: على أن تعطيني عهد الله وميثاقه أن لا يبني فيها أحد غيري وأن لا يعارضني فيما أرومه. ففعل ذلك. وبنى الأركان ثم سترها بالبواري والحصر واختفى سنة لا يعلم الوليد أين ذهب، ولا يستطيع أن يدع أحداً يتمَّها. فلما كان بعد العام حضر على الوليد فقال له: كيف حتى عطلت البناء. قال لأمر خفي على أمير المؤمنين وعلى البنائين. ثم قال: يا أمير المؤمنين احضر معي حتى أوقفك على ذلك، فلما حضر الوليد وكشف الحصر والبواري عن الأركان فإذا هي هبطت بعد ارتفاعها حتى ساوت الأرض.

فأعجب الوليد و(رجال) الدولة وخلع عليه. ثم أكمل بناءها وعقدها على الهيئة المعلومة الآن.

وأراد الوليد أن يجعل بيضة القبة من ذهب خالص ليعظم بذلك شأن المسجد، فقال له بعض المعلمين: إنك لا تقدر على ذلك. فضربه خمسين سوطاً وقال له: ويلك أنا أعجز عن ذلك. فقال له المهندس الذي بناها: صدق يا أمير المؤمنين وأنا أوضحه لك. فأمر أن يسبك له لبنة على القدر الذي يطلبه. فلما أحضرها قال أمير المؤمنين: احسبوا القدر الذي دخل فيها. فوجدوه عدة من الألوف فقال: يا أمير المؤمنين أريد مثل هذه كذا وكذا ألف لبنة، فإن كان عندك ما يكفي عملناه. فلما تحقق الوليد صحة قوله أطلق المضروب ورسم له بخمسين ديناراً واعتذر إليه.

ولما سقف الوليد الجامع جعلوا أسقفه جملونات وباطنها مسطحاً مقرنصاً بالذهب. فقال له بعض أهله: أتعبت الناس بعدك بتلبيس سطح هذا الجامع في كل عام. فأمر الوليد أن يجمع ما في بلده وباقي معاملته من الرصاص ليجعله عوض الطين ويكون أخف على السقف، فجمع ذلك. فلم يكفه. ثم بلغ الوليد أنَّ امرأة عندها من الرصاص القناطير المقنطرة ورثته من أبيها، فساوموها في بيعه فأبت، وقالت: لا أبيعه إلا بثقله فضة. فقال لهم: نشتريه لحاجتنا بزنته فضة. فلما أخبروها أن أمير المؤمنين سمح لك بزنة ما قلت. قالت: حيث كان صادقاً في حب الله فأنا أحب أن يكون لي في هذا الجامع شيء في حب الله خذوه بأجمعه، فكفاه وفضل. وذكر بعض المؤرخين[29] أن هذه المرأة كانت إسرائيلية.

وقال ابن عساكر: اشترى الوليد هذين العمودين تحت قبة النسر من خالد بن يزيد بن معاوية بألف وخمسمائة دينار.

قال وكان في مسجد دمشق اثنا عشر ألف مرخم.

واشترى لوحين (من) رخام فستقي من الاسكندرية بمائة أشرفي[30] ونقلهما ووضعهما على محل الغار التي فيها رأس يحيى بن زكريا عليهما السلام. وقيل إنهما كانا في عرش بلقيس مع الستة الشبابيك التي في مشهد المؤذنين على الباب والمشهد الذي تجاهه.

---

[29] من هم هؤلاء المؤرخون؟ وهب بن منبه أم كعب الأحبار؟ أرجو من القارئ الكريم أن ينتبه إلى هذه الإسرائيليات التي دست في تراثنا.

[30] أشرفي دينار منسوب إلى السلطان الأشرف، فكيف يستقيم هذا والحديث عن العصر الأموي أي قبل الأشرف بما لا يقل عن ستة قرون! ولكنها الرغبة في إضفاء الفخامة على ما صنعه الوليد.

وعن يزيد بن واقد قال: وكلني الوليد على العمال في بناء الجامع، فوجدنا فيه مغارة فعرّفنا الوليد. فلما كان الليل وافى وبين يديه الشمع، فنزل فإذا هي كنيسة لطيفة ثلاثة أذرع في ثلاثة أذرع، وإذا فيها صندوق ففتح الصندوق، فإذا فيه سفط وفي السفط رأس يحيى بن زكريا. فأمر الوليد بردّه إلى مكانه وقال: اجعلوا العمود الذي فوقه معيَّناً[31] بين الأعمدة. فجعلوا عليه عموداً مسفط الرأس.

وذكر بعض المؤرخين أنّ أرض الجامع كانت مفروشة بالفصوص المزمكة[32] بالذهب المسماة بالفسيفساء. وإن الرخام كان في جدرانه سبع وزرات[33]. ومن فوقه صفات البلاد والقرى وما فيهما من العجائب. وإن الكعبة المشرفة وضع صفاتها فوق المحراب. ثم فرق البلاد يميناً وشمالاً وما بينهما من الأشجار المثمرة والمزهرة وغير ذلك. وجعل سلاسل المصابيح من نحاس محلّى بالذهب. ورتب له من الشموع ما يوقد منه في أماكن مختصة. واصطنع في صحنه صفة مجامر على أعمدةٍ برسم البخور ووكل بذلك خَدَمَة[34] لا يفترون ليلاً ولا نهاراً حتى كان يشمّ روائح البخور من ميسرة فرسخين، وسبك له سُرُجاً من نحاس كل سراجٍ يوضع فيه قنطار زيت، وجعل على كل باب سراجاً. وجعل في محراب الصحابة رضي الله عنهم أجمعين حجر بلّور، وقيل بل درّةً لا قيمة[35] لها، وكانت إذا طفئت المصابيح يقوم نورها مكانها، وإن الأمين بن الرشيد أرسل إلى صاحب دمشق أن يُسيّرها إليه، فاختلسها وسيّرها إليه، وقيل إنه لمّا رآها أمر بردّها. وقال الحافظ ابن عساكر ثم ذهبت بعد ذلك فجعل مكانها برنية من زجاج وقد رأيتها، ثم انكسرت بعد مدة فلم يوضع مكانها شيء.

وبنى الوليد المنارة التي يقال لها »العروس« وجعل عدة من المصابيح توقد عليها في كل ليلة، ورتّب لها ثلاث نوب، كل نوبة أربعون مؤذناً وهي باقية إلى يومنا هذا. وأما (الغربية) و(الشرقية) فهما على ما كانت عليه من غير عمل أدوار ودرابزين، وهما من بناء اليونان، كالصوامع لضرب النواقيس والرّصد. وقال بعض المؤرخين: إن الشرقيّة احترقت في سنة أربعين وسبعمائة فنقضت وجدّدت من أموال النصارى لكونهم اتّهموا بحرقها، وأقرّ بعضهم بذلك فقامت

---

[31] معيناً: واضحاً عليه علامة.

[32] مزمكة: معشقة.

[33] وزرات: مجموعات فوق بعضها البعض.

[34] خدمة: خدماً.

[35] لا قيمة لها: أثمن من أن تقوَّم = ثمينة جداً.

على أحسن الأشكال. وقال بعض العلماء في المنارة الشرقية البيضاء التي ينزل عليها عيسى بن مريم عليه السلام في آخر الزمان بعد خروج الدجّال كما ثبت في صحيح مسلم عن النوَّاس بن سمعان والله أعلم.

ويقال أنه كان في الركنين الشماليين صومعتان كالمقابلة فهدمهما الوليد، وجُعل من بعض آلتهما قبتان على أعمدة في صحن الجامع، وجعل فيهما خلوتان من فوق الأعمدة وأودع بهما كتب أوقاف هذا الجامع ومصاريفه، ويقفل عليهما بالأقفال الحديدية المانعة[36].

وكانت فيه طلّسمات اصطنعتها اليونان لعدم دخول الحشرات كالحية والعقرب والخنافس والعناكب وغير ذلك من الطيور كالحمام والعصافير والوطاويط وما أشبه ذلك. قال ابن عساكر: وذهب بعض طلسماته. قلت: بل كلها بسبب المِحَن التي توالت وتعدّدت على دمشق، وآخرها محنة تمرلنك.

وقال عمرو بن مهاجر الأنصاري رحمه الله: ضبط الكتّاب ما أنفق على الكوة التي في قبلة المسجد، فكانت سبعين ألف دينار. وقال أبو قصي: أنفق في عمارة مسجد دمشق خمسة آلاف ألف دينار وستمائة ألف دينار. فلما بلغ أمير المؤمنين الوليد أن عمرو بن مهاجر والناس قالوا: »أنفد[37] الوليد بيت مال المسلمين في غير حقّه وكان يعمّر هذا الجامع ببعض ذلك« جمع الناس، ونودي بالصلاة جامعة، ثم صعد المنبر وحمد الله وأثنى عليه فقال: »يا أيها الناس، قد بلغني عنكم أنكم قلتم بأني أنفقت بيت مال المسلمين في غير موضعه بغير حق« فأطرقت الناس، ثم قال: »يا عمرو – يعني ابن مهاجر – قم فأحضر أموال بيت المال«، فحمل على البغال. وبسطت الأنطاع تحت القبة وصَبَّ عليها المال ذهباً وفضّة حتى كان الرجل لا يرى الآخر وجيء بالقبابين ووزنت فإذا هي تكفي الناس ثلاث سنين مستقبلة. وفي رواية سبع سنين مستقبلة لو لم يدخل الناس شيء بالكلية. ففرح الناس وهلَّلوا وكبَّروا وحمدوا الله وأثنوا على أمير المؤمنين ودعوا له وشكروه على ذلك. ثم قال الوليد: »يا أهل دمشق إنكم تفخرون على الناس بأربع: بهوائكم ومائكم، وفاكهتكم،

---

[36] توجد إلى الآن في الشمال الغربي من صحن المسجد قبة على أعمدة فتحت في أواخر عهد السلطان عبد الحميد بطلب من الحكومة الألمانية بناء على اقتراح بعض مستشرقيها. وكان من العلماء الذين حضروا فتحها باسم الحكومة العثمانية شيخنا المرحوم الشيخ طاهر الجزائري، فوجدفيها بعض الصكوك والوقفيات والمصاحف وأمثال ذلك من المكتوبات القديمة. أما الشمال الشرقي من صحن المسجد ففيه الآن قبة الساعات وهي على جدران لا على أعمدة.

[37] ضيَّع.

وحماماتكم، فأحببت أن أزيدكم خامسة وهي هذا المعبد« فحمدوا الله تعالى وانصرفوا شاكرين له.

ومن محاسن الشام ما وصف جامعها به بدر الدين حسن ابن حبيب الحلبي في كتاب أسماه »تشنيف المسامع في وصف الجامع« قال: وأما دمشق فإنها في وجنة الدنيا كالشامة، وزينة البلاد كريش الطاووس أو طوق الحمامة. وفي دائرة الأقطار كالنقطة المعلمة، وفي جيش الأمصار كالملك الذي ينطق بالحكمة. وفي قلادة الإقليم كالواسطة، وفي سماء الحلل كالشمس التي بدت أشعتها في الوجوه باسطة. وهي الربوة المباركة. والغوطة التي جلَّت عن المماثلة والمشاركة. والمعدودة من جملة مدائن الجنة، والمأهولة بالأهلَّة من أرباب الكتاب والسنة. والمعروفة بإرم ذات العماد، والموصوفة بلم يخلق مثلها في البلاد. وأما جامعها ففيه أقول:

يا جامعاً في دمشق في حسنه قد تفرَّد

لم تُطرب الناس طراً ألا لأنك معبد[38]

وقلت أيضاً:

معبد الشام يجمع الناس طراً

وإليه شوقاً تميل النفوسُ

كيف لا يجمع الورى وهو بيت

فيه تجلى على الدوام العروس[39]

وقلت:

يا راغباً في غير جامع (جِلّق)

هل يستوي الممنوع والممنوح

أقصر عناك وفي غلوِّك لا تزد

---

[38] فيه تورية باسم (معبد) الموسيقي العربي الشهير.

[39] فيه تورية باسم (منارة العروس) التي مر ذكرها.

إن الزيادة بابها مفتوح[40]

قلت: وهذا الباب المفتوح في بيت ابن حبيب سرقه من بيتي الشيخ جمال الدين محمد بن نباتة لكن ركَّبه في محله أحسن تركيب وهما:

أرى الحسن مجموعاً بجامع (جِلق)

وفي صدره معنى الملاحة مشروح

فإن يتغالى في الجوامع معشر

فقل لهم باب الزيادة مفتوح

ونقلت من خط الشيخ صلاح الدين الصفدي قوله فيه:

تقول (دمشق) إذ تفاخر غيرها

بمعبدها الزاهي البديع المشيَّدِ

جرى لتناهي حسنه كل معبد

وما قصبات السبق إلا لمعبد

والأصل في ذلك قول الشيخ برهان الدين القيراطي رحمه الله:

سقى بدمشق الغيثُ جامعَ نسكها

وروضاً به غنَّى الحمام المغرّد

إذا ما زهى في العين من ذاك معبد

لذكر حلا في السمع من ذاك معبدُ

ومن معانيه البديعة قوله فيه:

---

[40] **فيه تورية باسم (باب الزيادة) الذي مر ذكره.**

الجامع الأموي أضحى حسنه
حسناً عليه في البرية أجمعا
حلّوه إذ حلّوه فانظر صحنه
تلقاه أصبح للحلاوة مجمعا[41]

ومن تحريره البديع قوله فيه
(دمشق) في الحسن لها منصب
عال وذكر في الورى شائع
فخلّ من قاس بها غيرها
وقل له ذا الجامع المانع

ومن محاسنه قوله في الساعات رحمه الله تعالى:
في الجامع الأموي الحسن مجتمع
وبابه فيه للأحداق لذاتُ
دقائق الحسن يحويها له درج
فحبذا منه بالساعات ساعات
وحبذا معبدٌ كم أطربت أذناً
فيه من الذكر نغمات وأصوات
جلا العروس على الرائي فطلعتها
تزفها من بدور التمِّ[42] طارات

---

[41] مجمع: تعبير شامي يعني علبة الحلوى.
[42] التم: الكاملة.

ومن لطائفه قوله فيه وفي (النسر) تغمده الله برحمته:

يقول لنا نسر بجامع (جلق)

أنا الطائر المحكي والآخر الصدى

وقد أطرب الأسماع مطرب جنكها[43]

وغنى به من لا يغني مغرداً

ومن محاسن الشام ما وصفها (به) الشيخ بدر الدين محمد الدماميني الإسكندري المالكي قال: »فتأملها المملوك فإذا هي جنة ذات ربوة قرار ومعين، وبلدة تبعث محاسنها الفكر على حسن الوصف وتعين. وحسبها بالجامع الفارق بينها وبين سواها، والأنهار التي إذا ذكرت قبّل المحل فماً أجراها، وإذا سُمع حديثُ الخصب فما أرواها. وما أقول ومتنزهات مصر عارية عن المحاسن وهذه ذات الكسوة[44]، وإن النيل ما احترق[45] إلا من الأسف حيث لم يسعده الدهر بالصعود إلى تلك الربوة. وما أظنه احمرّ إلا خجلاً من صفاء أنهارها، ولا ناله الكسر إلا لتألمه بالانقطاع عن الوصول إلى سقي أزهارها. فلو رأى العاشق جبهتها لسلا بمصر معشوقه، ونسي ظهور جوانبه المنحنية بقامات غصونه الممشوقة. ولو تطاولت المجنونة إلى المفاخرة لتأخرت إلى خلفها مستحيية، وأحجمت عن الإقدام حين تحركت لها بدمشق السلسلة. وحق لمصر ألاّ يجري حديث المفاخرة في وهمها، وأن تتقي شر المنازعة قبل أن تصاب من هذه البلدة بسهمها. فسقى الله متنزهاتها التي طرب المملوك برؤية جنكها، ولطالما اهتزَّت له المعاطف على السماع، ورأى بها كل نهر ذاب عنه الجليد، فانعقد على حلاوة شكره الإجماع«.

وما أحسن قول الشيخ برهان الدين القيراطي:

ما فيه إلا جوسق أو روضة

أو جدول أو بلبل أو ربرب

---

[43] الجنك: آلة موسيقية.

[44] فيه تورية بقرية (الكسوة) وهي ضاحية جنوبي دمشق، سميت باسم كسوة المحل الذي كان يسافر منها إلى مكة المكرمة كل عام.

[45] فيه إشارة إلى (تحاريق النيل) أيام انخفاضه.

وكأن ذاك النهر فيه معصم
بيد النسيم مُنَقَّشٌ ومكتّب
وإذا تكسر ماؤه أبصرته
في الحال بين رياضه يتشعب
وشَدَت على العيدان وُرقٌ[46] أطربت
بغنائها من غاب عنه المطرب
فالوُرقُ تنشد والنسيم بها فكم
أضحى له من بيننا متطلّب
ولكم طربت على السماع بجنكها
وغدا بربوتها اللسان يشبّب
فمتى أزور معالماً أبوابها
بسماحها كُتُب الكرام تُبَوَّب

ومن محاسن الشام ما وصف جامعها به العلامة اليعقوبي قال: »مدينة دمشق جليلة قديمة. وهي مدينة الشام، في الجاهلية وفي الإسلام. وليس لها نظير في جميع بلاد الشام في أنهارها ومبانيها وكثرة عمارتها. افتتحت في خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه سنة أربع عشرة وبانيها اسمه دماشق بن نمرود بن كنعان. وقيل دمشق بن قاني بن مالك ابن أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام. وقيل سعد بن عاد، وبنى فيها قصرين لولديه بريد وجيرون، ولما بنى دمشق سماها إرم، وعلى هذا نقلت الأخبار إن إرم ذات العماد هي دمشق، يقال إنه كان فيها أربعمائة ألف عمود. وأما جامعها فليس في مدائن الإسلام أحسن منه، بناه الوليد في خلافته بالرخام والذهب سنة ثمان وثمانين. فرشه بالرخام الأبيض المختم بالأزرق، وسقفه لا خشب فيه، مذهبٌ كله من أعلاه إلى أسفله، وبه ثلاثة منابر«.

---

[46] ورق: جمع ورقاء: اليمامة المغنية.

ومن محاسن الشام وصف الأستاذ ابن جبير[47] لجامعها. نقلت من خط الشريشي قال: أملى عليّ شيخنا ابن جبير في وصف جامع دمشق ما صورته قال: »الجامع الأموي من أشهر جوامع الإسلام حسناً وإتقان بناء، وغرابة صنعة، واحتفال تنميق وتزيين. ومن عجيب شأنه أنه لا ينسج فيه عنكبوت، ولا تدخله ولا تلم به الطير المعروفة بالخطاف.

وجه الوليد إلى ملك الروم بالقسطنطينية فأمر بإشخاص إثني عشر ألف صانع من جميع بلاده، وتقدم إليه بالوعيد في ذلك إن توقف. فامتثل أمره مذعناً، فشرع في بنائه وبُلغت الغاية في التأنق فيه (وأنزلت[48] جدره كلها) بالفصوص الملونة المذهبة المعروفة بالفسيفساء، ومثلت به الأشجار مفرّعة الأغصان بأنواع الأزهار، فجاء يغشى العيون وميضاً وبصيصاً. وبلغت النفقة عليه أحد عشر ألف ألف دينار ومائتي ألف دينار.

وكان أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه لما دخلها صالح النصارى بأن أخذ نصف الكنيسة الشرقي، فصيَّره مسجداً وبقي النصف الغربي للنصارى، فأخذه الوليد وأدخله في الجامع بعد أن أرغبهم في التعويض عنه فأبوا، فأخذه قسراً. وكانوا يزعمون أن من يهدم كنيستهم يجنُّ، فبادر الوليد، وقال: أنا أول من يجنُّ في حب الله. وبدأ الهدم بيده، فتبادر المسلمون للهدم، ثم أرضاهم عمر بن عبد العزيز في خلافته عن الكنيسة بمال عظيم.

وطول هذا الجامع من الشرق إلى الغرب مائتا خطوة، وهي ثلاثمائة ذراع وذرعه في السعة من القبلة إلى الشمال مائة وخمس وثلاثون خطوة، وهي مائتا ذراع، وتكسيره من المرجع الغربي أربعة وعشرون مرجعاً، وهو تكسير مسجد النبي (صلعم) غير أن طوله في مسجد رسول الله (صلعم) من القبلة (إلى الشمال). وبلاطاته المتصلة بالقبلة ثلاث مستطيلة من الشرق إلى الغرب سعة كل بلاطة منها ثماني عشرة خطوة (والخطوة) ذراع ونصف، وقامت البلاطات على ثمانية وستين عموداً منها (أربع وخمسون سارية و) ثماني أرجل وأربع (أرجل مرخمة أبدع ترخيم، مرصعة بفصوص من الرخام ملونة، قد نظمت خواتيم وصورت) يتخللها اثنتنان مرخمة ملصقة في الجدار الذي يلي الصحن وأربعة محاريب، وأشكال غريبة قامت في البلاط الأوسط دور كل رِجلٍ منها اثنان وسبعون شبراً، ويستدير بالصحن بلاط من ثلاث جهات سعته عشر خطوات عدد قوائمه سبع وأربعون منها أربعة عشر رجلاً والباقي سواد.

---

[47] ابن جبير: الرحالة الأندلسي المعروف.
[48] زينت وألصقت.

وسقف الجامع كله من خارج ألواح من رصاص، وأعظمها ما فيه قبة الرصاص المتصلة بالمحراب هي قائمة في الهواء، عظيمة الاستدارة، وقد استقلَّ بها هيكل عظيم وهو غارب لها[49] يتصل من المحراب إلى الصحن والقبة قد أقيمت في الهواء، فإذا استقبلتها أبصرت مرأى عظيماً هائلاً.

ومن أي جهة استقبلت البلد ترى القبة في الهواء كأنها معلقة في الجو، وعدد شمسياتها الزجاجية الملوّنة المذهبة أربع وسبعون، فإذا قابلتها الشمس واتصل شعاعها انعكس الشعاع إلى كل لون منها، واتصل ذلك بالجدار القبلي، وتتصل بالأبصار منها أشعة ملونة هائلة لا تبلغ العبارة بعض صورها.

ومحرابه من أعجب المحاريب الإسلامية حسناً وغرابة صنعة، يتقد ذهباً كله، قد قامت في وسطه محاريب صغار متصلة بجدار، تحفُّها أسورة مفتولات قبلي الأجدرة كأنها مخروطة، بعضها أحمر كأنها مرجان ولم ير شيء أجمل منها.

وفيه ثلاث مقاصير: مقصورة معاوية رضي الله عنه، وهي مقصورة وضعت في الإسلام طولها أربعة وأربعون شبراً، وعرضها نصف الطول. ويليها لجهة الغرب المقصورة التي أحدثت عند زيادة الكنيسة فيه وهي أكبر. والثالثة بالجانب الغربي تجتمع السادة الحنفية فيها للتدريس.

وله أربعة أبواب: باب قبلي يعرف بباب الزيادة، وباب شمال يعرف بباب الناطفيين، وباب غربي يعرف بباب البريد، وباب شرقي يعرف بباب جيرون وهو أعظمها. وله وللغربي (وللشمالي أيضاً) دهاليز متسعة يفضي كل دهليز منها إلى باب عظيم كانت كلها مداخل إلى الكنيسة فبقيت على حالها.

وفي صحنه من عجائب الأبنية والقباب والصوامع الثلاث والمياه المدبرة ما يحير العقول، وتكلّ عنده الأفهام، وهذا الصحن من أجمل المناظر وأحسنها، وفيه يجتمع أهل البلد و(هو) متفرجهم كل عشية تراهم فيه ذاهبين راجعين من باب البريد إلى باب جيرون لا يزالون على هذا الحال إلى انقضاء العشاء الآخرة. منهم من يتحدث مع صاحبه، ومنهم من يقرأ. فهذا دأبهم بالعشي والغداة، والأحفل بالعشي. وأهل البطالة يسمونهم الحراثين«.

---

[49] كانت في الأصل »وهو عمودها« فصححناها من رحلة ابن جبير، ومنها أخذنا الزيادات التي أدخلناها في هذه القطعة بين هاتين الإشارتين ( ).

وما أحسن قول الشاب الظريف محمد بن العفيف في غلام يمشي في صحن الجامع:

تمشَّى بصحن الجامع الشادن الذي

على قدِّه أغصان بان النقى تثني

فقلت وقد لاحت عليه حلاوة

ألا فانظروا هذي الحلاوة في الصحن

وقال ابن جبير: »وللجامع الأموي أربع سقايات في كل جهة:

سقاية باب جيرون، وباب جيرون مفروش بالبلاط الطويل العريض، وهو خمسة أبواب مقوسة لها ستة أعمدة. وفي جهة اليسار منه مشهد كبير كان فيه رأس الحسين رضي الله عنه قبل أن ينقل إلى القاهرة. وبإزائه مسجد صغير لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه. قد انتظمت أمام البلاط أدراج ينحدر عليها إلى الدهليز وهو كالخندق العظيم، يتصل إلى باب عظيم الارتفاع ينحسر الطرف دونه سمواً قد حفَّته أعمدة كالجذوع طولاً وكالأطواد ضخامة. وبجانبي هذا الدهليز أعمدة قامت عليها شوارع مستديرة، فيها حوانيت العطارين وغيرهم، وعليها شوارع مستطيلة فيها الحجر والبيوت. وفي وسط الدهليز حوض[50] بأنبوب صفر[51] يزعج الماء بقوة فيرتفع إلى الهواء أزيد من القامة، وحوله أنابيب صغار ترمي الماء علواً فيخرج عنها كقضبان اللجين وكأنها أغصان تلك الدوحة المائية، ومنظرها أبدع من أن يوصف.

وعن يمين الخارج من باب جيرون في جدار البلاط الذي أمامه شبه غرفة، لها هيئة طاق كبيرة، مستديرة فيها طيقان من صفر وقد فتحت أبواباً صغاراً على عدد ساعات النهار، ودبرت تدبيراً هندسياً، فعند انقضاء ساعة من النهار تسقط صنجتان من صفر من فمي بازيين من صفر قائمين على طاستين من صفر، مثقوبتين، فتبصر البازيين يمدان أعناقهما بالبندقتين[52] إلى الطاستين ويقذفانهما بسرعة وتدبير عجيب تتخيله الأذهان سحراً، فعند وقوعهما يسمع لهما دوي، فيعودان من الأثقاب إلى داخل الجدار إلى الغرفة، وينغلق الباب للحين بلوح صفر، فلا يزال كذلك

---

[50] هذه المسماة بالنوفرة، وإليها تنسب منطقة النوفرة.

[51] الصفر: النحاس. والصورة جميلة لبحرة عليها النوافير والماء يندفع منها عبر أنابيب من نحاس.

[52] كانت في الأصل »بالصيحتين« المحرفة عن »الصنجتين«، فصححناها من رحلة ابن جبير، وفيما نقل هنا عن ابن جبير اختصار وتلخيص في مواضع كثيرة.

حتى تنقضي الساعات فتنغلق الأبواب كلها ثم تعود إلى حالاتها الأولى.

ولها بالليل تدبير آخر، وذلك أن في القوس المنعطف على الطيقان المذكورة اثنتي عشرة دائرة من النحاس مخرمة، في كل دائرة زجاجة، وخلف الزجاجة مصباح يدور به الماء على ترتيب مقدار الساعة، فإذا انقضت عمَّ الزجاجة ضوء المصباح وأفاض على الدائرة شعاعاً، فلاحت دائرة محمرة، ثم ينتقل إلى الأخرى حتى تنقضي ساعات الليل، وقد وكل بها من يدبر شأنها فيعيد فتح الأبواب، ويسرح الصنج إلى موضعها، وهي التي تسمى الميقاتية«[53].

انتهى كلام ابن جبير والله أعلم.

ومن محاسن الشام قلعتها وحسن بنائها واتساعها، فإنها قدر مدينة. وبها ضريح السيد الجليل أبي الدرداء رضي الله عنه. وبها جامع وخطبة كالمدينة، فإنها بفرد خطبة لا غير، وخارج المدينة الخطب الكثيرة، يعسر الآن علينا تعدادها. وبها حمام وطاحون وبعض حوانيت لبيع البضائع. وبها دار الضرب التي تضرب فيها النقود, وبها الدور والحواصل، وبها الطارمة التي ليس على وجه الأرض أحسن منها، كأنها أفرغت بقالب من شمع ينظر الرائي أعلاها فيحسن نظره وإن طال مرآه.

وهي تسامتُ رؤوس الجبال. يقال إن تمرلنك لما أن حاصرها وعجز عنها، أمر أن ينقب تحتها وتقطع الأشجار، وتعلق بها، حتى إذا انتهى تعليقها أطلق النار فيما تحتها من الأخشاب، وظن أنها تفسخ بذلك وتسقط شذر مذر، فيبلغ مراده من أخذ القلعة. فلما عمَّت النار فيما تحتها بركت بصوت أزعج الوجود كما يبرك الأسد، فمن ثم سمّوها بالأسد البارك، وهي الآن على الثلثين من علوها.

وبالقلعة آبار ومجار للماء، ومصارف بحيث إذا وقع الحصار، وقطع عنهم الماء تقوم الآبار مقامه.

وبها يمر نهر بانياس، وينقسم فيها قسمين، يستمر أحدهما على حاله طاهراً للمنافع والاستعمال، والآخر تنسحب عليه الأوساخ والقاذورات وهو المسمى بقليط، يمر تحت الأرض بنحو من قامتين لتشعب الماء الطاهر فوقه يميناً وشمالاً، حتى في بعض الأراضي يبلغ سبعة مجار

[53] في رحلة ابن جبير »وهي التي يسميها الناس المنجانة«.

من الماء العذب ليس لأحدهما اختلاط بالآخر.

ومصارفهم تسقط على نهر قليط، ويمر في المدينة إلى أن يخرج من الباب الصغير، ويتصل بمحلة المزاز فيضمحل فيما يليها من الأراضي التي تزرع الكرسنة والفصة والبيقية والقنب وما أشبه ذلك. وغالب ما يسقى به القنب، وهو أبيض أملس كالرماح في الطول، مجوف لا عقد به، يصب الماء من رأس الواحدة، فيجري من آخرها وقشره يعمل منه الخيوط والحبال، وتورى بالقنب النار، وهو يقوم مقام الشعشاع والطرفاء، لكنه ألطف منهما وأسرع وقيداً. كما أن الشيح أحسن من الحلفاء بعرفه الذكي أخضر وناشفاً. ويقال إن القنب هذا يعمل من ورقه الحشيش إذا أضيف إليه الورق البري. وقد ذكرنا ذلك مفصلاً في كتابنا (راحة الأرواح، في الحشيش والراح) فليراجع.

ومن محاسن الشام تحت قلعتها، فإنها منهل للغريب ومرتع للقريب، وهي ساحة سماوية كبركة الرطلي[54] في الوسع لاجتماع البرية، تحفها الدور، وتعلوها القصور، ويلحقها كل ما يرومه الإنسان وتشتهيه الشفة واللسان، لا يحتاج فيها سكانها لحاجة من المدينة ولا لجيرانها. فيها دار البطيخ الذي يباع فيه جميع فواكه البلد. وبه العين المشهورة بالمجمع على برودة مائها وعذوبته وخفته. وبتحت القلعة سوق للقماش المذروع، وسوق قماش للمخيط. أحدهما للرجال والآخر للنساء. وبها سوق للفرا والعبي وغير ذلك. وبها سوق السقطيين وسوق النحاس، وبها سوق السكاكينيين، وبها سوق القربيين[55] وبه للآرميين[56]، وبها سوق قماش الخيل والبغال والبهائم والأغنام، وبها سوق القشاشين، وبها سوق المدهون والخضريين، وبها سوق المحايريين[57] والنجارين والخراطين، وبها سوق النقليين[58]، وبها دار الخضر، وبها سوق المناخليين والزجّاجيين.

وأما ساحة تحت القلعة فإنك لا تستطيع أن ترى أرضها لكثرة ما به من المتعيشين والوظائفية، ويتخلل بينهم أرباب الحلق والفالاتية[59] والمضحكون وأصحاب الملاعيب،

---

[54] بركة الرطلي: حي من أحياء القاهرة.

[55] القربيين: صانعو القرب.

[56] كذا الأصل.

[57] المحايريين: صانعو المحارة، وهي الهوادج تحمل على الجمال كالمحارتين.

[58] النقليين: بائعو النقل أي بذر البطيخ والفستق واللوز المحمص.

[59] الفالاتية: من الفأل أي المنجمين وقارئي الفأل.

والحكوية[60]، والمسامرون (و) كل ما يتلذذ به السمع، ويسر العين، وتشتهيه النفس صباحاً ومساءً على هذا لا يفترون، لكن المساء أكثر اجتماعاً، ويستمرون إلى طلوع الثلثين، وهو عبارة عن ثلاثة طبول متفرقة بأعلى القلعة، يضربون الثلث الأول كل واحد منهم ضربة، والثلث الثاني من الليل يضرب كل واحد ضربتين، والثلث الآخر من الليل يطلع المؤذن على منارة العروس بالجامع الأموي، ويعلق لهم قنديل الإشارة فيضرب كل واحد منهم ثلاث ضربات، ويسوق الثلثين من التسبيح والأذان الأول إلى السلام.. ينتهي الضرب.

وبها خطبتان: الأولى بآخرها بالمدرسة المؤيدية، والثانية بصدرها في جامع يلبغا، وهو من أحسن الجوامع ترتيباً ومتنزّهاً، بصحنه بركة ماء مربعة، داخلها فصقية[61] مستديرة بها نوفرة، يصعد عنها الماء قامة ومن فوقها مكعب عليه عريشة عنب ملوّن، يصل الماء إلى قطوفها الدانية. وبجانبيها حوضان فيهما من أنواع الفواكه وأجناس الرياحين، وله شبابيك تطل على جهاته الثلاث، الأولى على تحت القلعة من جهة الشرق، والجهة الثانية تطل على بين النهرين وهي الغربية، والجهة القبلية تنظر إلى نهر بردى وما هناك من الأشجار والأزهار، وهناك شجرة حور يحتاط بها أربعة رجال فلا ينظر الواحد لمن يقابله لعظم ساقها. وللجامع ثلاثة أبواب: الأول الشرقي وهو في صدر تحت القلعة ويسمى باب الحلق، والثاني شماليه يخرج إلى الميضا[62] ويسمى باب الفرج، والثالث غربيه ينحدر منه في درج إلى أول الوادي ويسمى باب المنزه.

ومن محاسن الشام (بين النهرين)، وهو مبتدأ الوادي، يشتمل على فرجة سماوية بها دور وقصور وسويقة بها حانوت طباخ، وصاجاتي، وقطفاني، وفقاعي[63]، وحواضري، وفاكهاني، وشوا، وقلاَّجبن[64]، وسكرداني، ونقلي، وقاعة لبن، وعدة للجلبية، وحمام يشرح صدور البريد[65]، وقنطرة يتوصل منها إلى جزيرة لطيفة من رأسها ينقسم نهر بردى فيصير نهرين، والمقسوم منه نهر الصالح المعتقد الشيخ أرسلان أعاد الله علينا من بركاته وعلى المسلمين طول

---

[60] الحكوية: الحكواتية، القصاصون.

[61] فصقية: فسقية = بحرة، وهي كلمة من أصل لاتيني بسيكوس التي منها الكلمة الأنغلوفرنسية بسين.

[62] الميضا: مكان الوضوء.

[63] فقاعي: بائع البيرة.

[64] قلاجبن: بائع الجبن المقلي.

[65] كذا.

الزمان، وبها مقصفان[66] للبطالين فيما بين المقسمين وقبالهما زاوية للشاب التائب، يقام بها السبت والثلاثاء من الأوقات بالوعاظ والدواخل ما يصير الحاضر غائباً، ويتوصل إلى زقاق الفرايين المشتمل على قاعات وأطباق وغرف وكم رواق، الجميع يطل على بين النهرين، ولكل مكان من ذلك ناعورة يستلذ صاحبها بأنسها، وتجلب له الماء إذا سمع حسها. ومن أحسن ما قاله الشيخ أبو الفضل ابن القدوة أحمد ابن العارف محمد وفاء:

نواعير نعت لي رشاً[67] للقلب راعي
فهام القلب مني على حس النواعي

ومن محاسن الشيخ زين الدين عمر بن الوردي قوله فيها:

ناعورة مذعورة ولهانة لي حائرة
الماء فوق كتفها وهي عليه دائرة

ابن نباته:

وناعورة قالت وقد ضاع قلبها
وأضلعها كادت تعد من السقم
أدور على قلبي لأني فقدته
وأما دموعي فهي تجري على جسمي

ومن بديع مجير الدين[68] محمد بن تميم:

ناعورة قالت لنا بأنينها
قولاً ولن تدري الجواب ولا تعي

---

[66] المقصف: المتنزه الظليل على شاطئ نهر.

[67] رشا: غزال.

[68] كان في الأصل هنا »محيي الدين« وفي صفحة 69 »محب الدين« وفي صفحة 72 »مجير الدين« وفي صفحة 84 »فخر الدين« والصواب ما اعتمدناه.

كم فيّ من عجب يُرى مع أنني

أبداً أسير ولا أفارق مضجعي

لا رأس في جسدي وقلبي ظاهر

للناظرين واعيني في أضلعي

ومن أغراضه قوله:

وناعورة شبهتها إذ رأيتها

وما زال فكري بالغرائب يسمح

بطائرة مخضرة كل ريشة

لها تحتها عين من الدمع تسفح

ومن بدائع ابن خطيب الأندلس:

وناعورة تحسب من صوتها

متيماً يشكو إلى زائر

كأنما كيزانها عصبة

رُمُوا بصرف الزمن القاهر

قد مُنِعوا أن يلتقوا فاغتدى

أولهم يبكي على الآخر

ومن تحرير القيراطي قوله:

وناعورة قد ضاعفت بنواحها

نواحي وأجرت مقلتاي دموعها

وقد ضعفت مما تئن وقد غدت
من السقم والشكوى تعد ضلوعها

التقي ابن حجة قوله فيها:

وناعورة قد سلسلت دور أنسنا
وأهدت لنا روحاتها نفحة الصور
إذا ما سقت دوراً تحرِّك عودَها
لنا وتغني في البسيط على الدَّور

شيخه علا الدين بن القضامي:

وذات شجو أسالت مدامعاً لم تصنها
تبكي بفرط دموع ويضحك الروض منها

ابن نباتة رحمه الله تعالى:

وناعورة قسَّمت حسنها
على واصف وعلى سامع
وقد ضاع نشر الربا فاغتدت
تدور وتبكي على الضائع

ومن محاسن شعره قوله فيها:

أعجب لها ناعورة قلبها
للماء منشى العيش والعشب
تعبانة الجسم ولكنها

كما ترى طيبة القلب

الأمير مجير الدين بن تميم رحمه الله:

أبدت لنا بالعذر ناعورة
أدمعها في غاية السكب

تقول لما ضاع قلبي وقد
ضعفت بالنوح وبالندب

صيَّرت جسمي كله أعيناً
تدور في الماء على قلبي

ومن تضامين ابن تميم قوله:

وناعورة شبهتها حين ألبست
من الشمس ثوباً فوق أثوابها الخضر

كطاوس بستان تدور وتنجلي
وتنفض عن أرياشها بلل القطر

ومن لطائفه قوله فيها:

وناعورة مذ ضاع منها قلبها
دارت عليه بأنَّة وبكاء

وتعللت بلقائه فلأجل ذا
جعلت تدير عيونها في الماء

ومن محاسن الشام شرفاها[69] وما حويا من المناظر والقصور، وما فيهما من الولدان والحور. وتقرب إلى الله تعالى أهلها ببناء المدارس، رغبة في جوار المجرّد الفقير البائس، ورتبوا له من الخبز واللحم والطعام، والزيت والحلو والصابون والمصروف في كل شهر على الدوام، فجلس الطالب في شباكها ينظر إلى الماء والخضرة والوجه الحسن، فكيف لا ينبعث إلى طلب العلم، ويتحرك من فهمه ما سكن.

ويقال أن بمدرسة الكجحانية قبة بها طاقات بعدد أيام السنة، والشمس دائرة على تلك الطيقان ولا تدخل إليها، وهذا من حسن الهندسة.

وأما جامع تنكز فإنه في الشرف الأدنى، وهو من الغايات هندسة وبناء، فيه عشرون شباكاً على خط الاستواء يشرف على الأنهار، ومرجة الميدان وما حوى. وبوسط صحنه يمر نهر بانياس، يتوضأ منه الناس، وبه ناعورتان يملآن ويفرغان إلى حوضين بهما سائر الأشجار، وجميع الرياحين والأزهار. وبينهما بركة مربعة بها كأس في غاية التدوير، يجري الماء إليها من النواعير. فهو متنزه يقصد، وللمصلي معبد. وفي كل شرف منهما عدة من المدارس والمساجد، ولكل واحد ما يكفيه من الأوقاف استولت عليها أيدي المتشبهين بالفقهاء، فأظهروا فيها أنواع المفاسد، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وكل شرف يطل على »الشقرا« و»الميدان«، و»القصر الأبلق« و»المرجة« ذات العيون والغدران، وما أحسن قول الشيخ (شمس) الدين محمد النواجي الشافعي في وصف الشرف الأعلى:

ألا إن وادي الشام أصبح آية

محاسنه ما بين أهل النهى تتلى

وإن شرفت بالنيل مصر فلم يزل

دمشق لها بالغوطة الشرف الأعلى

ونقلت من خط العلاء علي بن المشرف المارديني في غلام اسمه علي في الشرف الأعلى:

جنى عليٌّ ولكن وجهه حسن

---

[69] شرفاها: الشرف الأعلى والشرف الأدنى حيان مشهوران فيها.

وفعله المرتضى يحلو به الشغف

بدر من الشرف الأعلى له نسب

وهل لغير علي ينسب الشرف

الأمير مجير الدين محمد بن تميم يصف الميدان:

عجباً لميداني دمشق وقد غدا

كلٌ له شرف إليه يئول

والنهر بينهما لغير جناية

سيف على طول المدى مسلول

وقال ابن الشهيد في »الشقراء« و»الميدان«:

لم تحكِ جلقَ في المحاسن بلدة

قول صحيح ما به بهتان

ولئن غدوتَ منافساً في غيرها

هابيننا »الشقراء« و»الميدان«[70]

ومن تحرير القيراطي قوله في وصف الشقراء:

سر بي إلى الشقراء من جلّق

واثن إلى الخضراء منك العنانْ

فيها جنان لو رأى حسنها

أبو نواس للها عن (جنان[71])

---

[70] الشقراء والميدان حيان في دمشق.

[71] جنان: اسم لجارية ومغنية عباسية.

وأنزل بواديها الذي تربه

مسك وحصبا النهر منه جمان

ومن محاسن الشام مرجتها. قرأت كتاب وقف تربة السلطان الملك الظاهر »برقوق« سقى الله عهده الكائنة بالصحرا خارج »باب النصر« من »القاهرة« المحروسة، وهو متصل الثبوت إلى آخر وقت تسجيلي على بعض القضاة الشافعية، من جملته طاحون الشقراء بمرجة »دمشق« المحروسة ظاهر قصر الملك الظاهر أبي الفتوحات »بيبرس« سقى الله عهده بالقرب من »زاوية الأعجام«، ويليها قصبة سوق. عدة حوانيتها أحد وعشرون حانوتاً، وعلوها الطباق المطلة على المرجة المذكورة، وبآخرها المسجد المطل على نهر بردى.

قلت وأدركت الطاحون غير دائرة، ولقد هدمها وكيل المقام الشريف »برهان الدين النابلسي« المعروف بابن ثابت في أوائل دولة السلطان الملك الأشرف »قايتباي« خلد الله تعالى ملكه. فعلى هذا كانت المرجة عامرة آهلة، وهي من المحاسن التي لا تدرك، وبعضهم يشبهها بصدر الباز[72]، كأنه شبهها به لأن الوادي ينضم من رأسها ويعلوه جبلان، وشبه هذين الشرفين بالأجنحة.

ونقلت من خط التقي ابن حجة قوله فيها:

ذكرت أحبتي بالمرج يوماً

فقوّت أدمعي نيران وهجي

وصرت أكابد الأحزان وحدي

وكل الناس في هرج ومرج

ومن بديع القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر قوله فيها:

ومرجةٌ في واد يروقك روضها

ولا سيما إن جاد غيث مبكر

---

[72] لا يزال منتهى »المرجة« في جهة الغرب يدعى إلى اليوم »صدر الباز«.

بها فاض نهرٌ من لجين كأنه
صفائح أضحت بالنجوم تسمَّر
تلاحظها عين تفيض بأدمع
يرقرقها منه هنالك محجر
وكم غازلته للغزالة مقلة
تسارق أوراق الغصون فتنظر
إذا فاخرته الريح ولّت عليلة
بأذيال كثبان الربا تتعثر
به الفضل يبدو والربيع وكم غدا
به الروض يحيى وهو لا شك جعفر[73]

ومن محاسن الشام محلتا »الخلخال« و»المنيبع«، فمحلة »الخلخال« بها سويقة وحوانيت وفرن وحمام، وهي مسكن الأتراك، وكذلك المنيبع، والشرفان، وبه يدق طبلخاناتهم، وبها زاويتا الأدهمية والحضود[74]، وهي تُحَفٌ بالناس والأعيان.

ومن أحسن قول الشيخ جمال الدين محمد بن نباته في وصف الخلخال:
يا حبذا يومي بوادي جلق
ونزهتي مع الغزال الحالي
من أول الجبهة قبلته
مرتشفاً لآخر الخلخال

و»المنيبع« محلة وسويقة وحمام وأفران، وبها مدرسة »الخاتونية«، وهي من أعاجيب

---

[73] فيه تورية بآل برمك.
[74] كذا في الأصل.

الدهر، يمر بصحنها نهر »بانياس«، ونهر »القنوات« على بابها، ولها شبابيك تطل على المرجة، وبها ألواح الرخام لم يسمح الزمان بنظيرها، وعدة (من) خلاوي الطلبة، وبجوارها دار الأمير الأصيل »ابن منجك« رحمه الله تعالى، وبها سكن القاضي بهاء الدين بن حجي الشافعي رحمه الله تعالى. وهذه المحلة من محاسن دمشق وشرفها.

نقلت من خط الشيخ شمس الدين محمد النواجي في وصف المنيبع:

يا سادة اهدوا محاسن جلّق
لطرفي ففاضت بالبكا عبراتُ

منيبع جفني فوق ربوة جبهتي
يزيد ودمعي بعدكم قنوات[75]

ومن محاسن الشام المتنزه المسمى بالجبهة، وهي أرض مربعة قدر فدانين، عليها سقائف تظلها من غير طين بين شجر الصفصاف والجوز والحور، وكل مفرش حصير تحيط به جداول الماء من أربع جهاته مع البرك والبحرات بالنوافر، وهي على جنب نهر »بردى«، وبه النواعير وبها حوانيت للشرايحية، والجزارين، والطباخين، والحواضرية، والأقسماوية، والنكاهين.. وغير ذلك. وبها مسجد ومدرستان، ومربط الدواب، ومقاصفية واقفون في خدمة الناس، وعندهم اللحف والأنطاع والعبي لمن يبات.

وفيها يقول التقي ابن حجة الحموي (دو بيت):

لما ملأ »الجبهة« بالأنوار
لمناه على ذلك خوف العار

قال انصرفوا سئمت من بلدتكم
و»الجبهة« من منازل الأقمار

وفيها يقول علي بن سعيد صاحب »المرقص والمطرب« وقد رآها عند شمس الأصيل قبيل

---

[75] فيه تورية بمحلة »المنيبع« ومتنزهي »الربوة« و»الجبهة« ونهري »يزيد« و»القنوات«.

الغروب:

إن للجبهة في قلبي هوى
لم يكن عندي للوجه الجميل

يرقص الماء بها من طرب
ويميل الغصن في الظل الظليل

وتود الشمس لو باتت بها
فلذا تصفرّ في وقت الأصيل

ويعلوها نهرا »القنوات« و»بانياس« المنحدر الماء إليها منه، ومن فوق النهر حمام النزه، وإلى جانبه مقصف بحوانيت فيها البضائع، ويمر بوسطه نهر القنوات، ويتوصل منه إلى زاوية الحريري المشهورة، وليس أبدع من منظرها، وينحدر منها الماء إلى المتنزه المسمى »قطْية« وهي مقصف على نهر بردى، وعليه النواعير متشعبة، أراضيه بجداول الماء والبرك والبحرات، وبه قصبة ذات حوانيت يعلوها أربعة أطباق ومربط للدواب، وعند المقاصفي العبي[76] واللحف والأنطاع[77]، حتى الأطباق والملاعق لمن يأكل، وهذا مما لا يوجد في بلد من البلاد.

أنشدني قاضي القضاة عز الدين أحمد الكتاني الحنبلي فيها:

أيا حسن سلسال على نهر قطية
إذا ما جرى فيها نخوض ونلعب

تهدده أغصانها برؤوسها
فينظر من طرف خفي ويهرب

وقال ابن عماد الأندلسي وأبدع:

نهر يهيم بحسنه من لم يهم

---

[76] جمع عباءة.

[77] الأنطاع: جمع نطع، ويطلق على الجلد أصلاً، ولكن المعنى ها هنا ينطبق على البساط.

ويجيد فيه الشعر من لم يشعر

فكأنه وكأن خضرة شطه

سيف يسل على بساط أخضر

ومن محاسن الشام المتنزه المسمى بالبهنسية، وهو روض يجمع بين الأشجار، والفواكه والأزهار، مع عيون الماء، وتظهر منه إلى »مرجة جسر ابن شواس«، به مقاصفي وبيع وشراء، ويتوصل منه إلى أراضي »حمص« ما بين رياض وغياض، ويعلوها محلة »النيربين«، وهي أعظم المحلات وأخضرها وأنضرها. حسنة الأثمار، كثيرة الأزهار، وبها سويقة وحمام يقال له »حمام الزمرد«، وجامع بخطبة وهي مسكن الرؤساء والأعيان، وبها دار قاضي القضاة نجم الدين يحيى بن جحى، وفيها قتل رحمه الله وتعالى، ومنها تدخل إلى أرض الربوة.

وأعجب من هذا أن السالك إلى الربوة من حين يخرج من باب »جامع يلبغا« يمشي بين أشجار، وأثمار، ومياه، وظل ظليل لا يمكن أن يرى الشمس، إلا أن يقصد رؤيتها.

وفيها يقول بدر الدين ابن لؤلؤ الذهبي يصف النيربين:

رعى الله »وادي النيربين« فإنني

قطعت به يوماً لذيذاً من العمر

درى أنني قد جبته متنزهاً

فمدّ لأقدامي ثياباً من الزهر

وأوحى إلى الأغصان قربي فأرسلت

هدايا مع الرياح طيبة النشر

وأخدمني الماء القراح وحيثما

سنحت رأيت الماء في خدمتي يجري

وأجاد الوداعي بقوله ثم أفاد:

ويوم لنا بالنيربين رقيقةْ

حواشيه خال من رقيب يشينه

وقفنا وسلمنا على الدوح بكرة

فردت علينا بالرؤوس غصونه

سيف الدين أنشد وأبدع:

وصباً صبت من »قاسيون« فسكنتْ

بهبوبها وصبَ الفؤاد البالي

خاضت مياه »النيربين« عشية

وأتتك وهي بليلة الأذيال

ومن محاسن الشام محلة »الربوة«. قال بعض المفسرين: الربوة أحدثها بنو كنعان وابتدأوها، وهي المذكورة في قوله تعالى: »وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين«، يعني مريم وعيسى عليهما السلام، وإنما قيل لها ربوة لأنها مرتفعة مشرفة على غوطتها ومياهها، وكل رابٍ مرتفع على ما حوله يقال له ربوة، ومنه تربية الصبي لترفعه في النفس والجسم، والمعين: الماء الذي يخرج من الأرض.

وقال ابن مطرف في ترتيبه: الربوة فيها ثمان لغات: رُبوة، ورَبوه، ورِبوة، ورُباة، ورَباوة، ورِباوة، ورابية، ورُبي والجمع ربى.

والربوة مغارة لطيفة بسفح الجبل الغربي، وبه صفة محراب يقال إنه مهد عيسى عليه السلام يزار وينذر له، وبها جامع وخطبة ومدارس وعدة مساجد، وبها قاعات وأطباق، وفيها عين ماء يقال لهم »الملثم«،ومرابط للدواب، وبها سويقتان قاطع بينهما نهر »بردى«، وبها صيادو السمك يصطادون، والقلايون على جبل النهر يقلونه، ويذبح فيها كل يوم خمسة عشر رأساً من الغنم خلا ما يجيئها من اللحم من المدينة، وبها عشرة شرايحية ليس لهم شغل غير الطبخ والغرف في الزبادي والصحون، وكل ما تشتهيه الأنفس فيها، وبها فرنان، وثلاثة حوانيت برسم عمل الخبز

الشوري[78]، وأما الفواكه فلا قيمة لها فإني اشتريت الرطل[79] بربع درهم، وكذلك الرطل الدمشقي من المشمش مثله، والتفاح كذلك، وبها حمام ليس على وجه الأرض نظيره لكثرة مائه ونظافته، وله شبابيك تطل على النهر، وهو مبني ما بين الأنهر من فوقه ومن تحته، وبها طارمة المسجد الديلمي الذي جدده نور الدين الشهيد، وله أوقاف على قرّاء ووعاظ وقراءة البخاري وغير ذلك كالمؤذن والفراش والبواب والوقاد.

وفيه يقول تاج الدين الكندي:

إن »نور الدين« لما أن رأى

في البساتين قصور الأغنياء

عمَّر »الربوة« قصراً شاهقاً

نزهة مطلقة للفقراء

وقال الأمير مجير الدين محمد بن تميم وأحسن رحمه الله:

يا حسن طارمة في الجوّ شاهقة

ما أن تملّ بها العينان من نظر

نزِّه لحاظك في طاقاتها لترى

أصناف ما خلق الرحمن للبشر

ترى محاسن واد يحتوي نزها

لذاذة السمع والأبصار والفِكر

وربوة قد سمت حتى تخال لها

سراً تحدّثه للأنجم الزهر

ما بين روض وأنهار مسلسلة

---

[78] كذا

[79] وزن الرطل الدمشقي ثمانمائة درهم.

تجري وتحمل أنواعاً من الثمر

كم بثٌّ فيها وخدني شادن غنج

حلو التثني كغصن البانة النضر

أشكو إليه الذي ألقى ومقلته

تشكو إليّ الذي يلقى من السهر

حتى رأيت نجوم الليل قد غربت

عنا وهبَّت علينا نسمة السحر

قمنا نجرّر أذيال العفاف بها

والله يعلم منها صحة الخبر

لا خير في لذة تمضي ويعقبها

خطيئة تسلك الإنسان في سقر

ومن لطائفه قوله:

موضع القس[80] جنة الخلد أضحت

مهجتي كل ساعة تشتهيها

طوقتني بفضلها فلهذا

كلما زرتها أغرّد فيها

وهذه القاعة التي بناها نور الدين الشهيد هي على شعب جبل، جميعها متختة بألواح من خشب سقفها »نهر يزيد«، وأساسها من تحتها »نهر ثورا«، ومنظرها من الغايات التي لا تدرك، وقبالها في الجبل الغربي ضريح العاشق والمعشوق، وعليهما صومعتان مبيضتان، وبينهما سبعة مقاصف كل مقصف فيه من الثريات والمصابيح والغطاء والوطاء ما لا يحتاط به الوصف، حتى

---

(80) كذا.

أن بعض الناس يطلع إليها ليتنزه فيها يوماً فيقيم بها شهراً، وجبلاها متقابلان متلاقيان عليها، الجبل الغربي بذيله دف الزعفران، والجبل الشرقي رأسه مثل الجنك، ولهذا أطنب الشعراء في وصفها.

وقال الشيخ جمال الدين محمد بن نباتة في وصفها:

بالجنك من مغنى دمشق حمائم
في دف أشجار تشوق بلطفها
فإذا أشار لها الشجيّ بكأسه
غنت عليه بجنكها وبدفِّها

وقال الشيخ صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي:

انهض إلى »الربوة« مستمتعاً
تجد من اللذات ما يكفي
فالطير قد غنى على عوده
في الروض بين الجنك والدف

ومن محاسن الشيخ عمر بن الوردي قوله:

دمشق قل ما شئت في وصفها
واحكِ عن »الربوة« ما تحكي
فالطير قد غنى على عوده
في الروض بين الدف والجنك

ومن لطائفه قوله وقد أغار الصفدي على بيت ابن الوردي:

يا ربوة أطربتني وحسَّنت لي هتكي
إذ لست أبرح فيها ما بين دف وجنك

ونقلت من خط الشيخ شعبان الآثاري[81]:

كم تحت جنك الربوة الفيحاء من دف زهت أشجاره بشنوفها

سقياً لها من ربوة من حل فيـ ـها أطربته بجنكها ودفوفها

ونقلت من خط الشرف القواس قوله:

بربوة الشام ربتْ منيتي وقرَّ قلبي وهي دار القرار

وطيرها المطرب في جنكه غنى على نايٍ وعودٍ وطارْ

ونقلت من خط الشرف القواس قوله:

أودّ بأني لو أرى الجنك ساعة وأنفق فيه كل ما أنا أملك

فليس لنفسي في سوى الجنك مطلب فدعهم يقولوا فيه للصب مهلك

ونقلت أيضاً من خطه:

سر بي إلى الوادي وقف متنزهاً فالجنك غنت فوقه الأطيار

لو لم يكن هو جنة المأوى لنا

---

[81] في الأصل »شيبان الأماري«.

ما كان تجري تحتها الأنهار

ونقلت من تحرير الشيخ برهان الدين القيراطي قوله:

سقى الجنك منهلٌ الرباب فشوقنا

لطيب مغاني أرضه ما له حصر

وحيًّا بقطر الشام أنهارها التي

على شهدها للدمع من مقلتي قطر

وجادت سماء الغيث أرضاً سماؤها

غصون رياض الزهر آفاقها زهر

فكم جاءني منها نسيم ممسك

وعرّفها للقاربين بها العطر

وطلع الشيخ شمس الدين محمد بن الخياط الشهير بضفدع مع ابن خلكان إلى الربوة، فوجدا غلماناً يعومون ويلعبون في نهر »ثورا« الذي تحت التخوت المعروف بالمنيقية، فأنشد ضفدع قوله:

لربوتنا واد حوى كل بهجة

فعيش الورى يحلو لديه ويعذب

ترقٌ لنا الأنهار من تحت جنكه

فلا عجب أنَّا نخوض ونلعب

فأنشد ابن خلكان رحمه الله:

وسرب ظباء في غدير تخالهم

بدوراً بأفق الماء تبدو وتغرب

يقول خليلي والغرام مصاحبي

أما لك عن عهد الصبابة مذهب

وفي دمك المطلول خاضوا كما ترى

فقلت له دعهم يخوضوا ويلعبوا

ومن محاسن الشام »المقسم« الذي تنقسم منه السبعة الأنهار، وأصله من ينابيع »عيون التوت«.

وإليها يشير برهان الدين القيراطي بقوله:

عندي لأرض دمشق فرط صبابة

فسقى حماها الرحبَ صوبُ غيوث

وعيوننا لفراق مشمشها حكى

جريانُ أدمعها »عيونَ التوث«.

ويمر (بردى) على قرية الزبداني كالبحر إلى أن يلتقي على قرية »الفيجة« الفيحاء (بمياه ينبوعها).

وما أحسن قول الشيخ برهان الدين القيراطي في وصف الزبداني:

دمشق وافى بطيب نسيمها المتداني

وصح قول البرايا من عاشر الزبداني

قال ابن الجوزي رحمه الله تعالي في »الملتقط«: إن ماء العيون بارد رطب، وجيده من العيون الشرقية ينفع الكبد الحارة، وضرره إحداث الترهل، ودفع ضرره بالحمام والرياضة، يصلح للأمزجة الحارة.

وقال أبقراط: الماء يحفظ على البدن رطوبته، ويقمع الحرارة، ولا يغذو، ولكن يرقق الغذاء، وينفذ إلى العروق، وهو يضر أصحاب الرطوبات والبلغم، إلا أنه إذا طبخ في إناء جديد كخزف أو قوارير قلت رطوبته ونفخه. وأفضل المياه مياه العيون الحارة الأرض، التي تخرج من الأودية

بشدة على مقابلة الشمال، وتجري على الطين الحر مكشوفة للشمس والرياح، ولا تمر على بطائح، ويكون ماؤه صافياً براقاً، وأجوده أخفه وزناً، وأسرعه قبولاً للسخونة والبرودة، وأعذبه طعماً.

ويقال من ظاهر »باب السلام« إلى ظاهر »باب توما« ثلاثمائة وستون عيناً تجري إلى القبلة. قلت: ورأيت غالبها وارتويت من عذبها.

وتنقسم هذه الأنهار السبعة منها »يزيد« و»ثورا« بذيل الجبل الشرقي، ويشق نهر »بردى« ببطن الوادي ونهر »بانياس« ونهر القنوات« ونهر »القناية« ونهر »الداراني« بذيل الجبل الغربي.

وآخر ما يتصفى من هذه الأنهار، ويفضل منها هو نهر »بردى«، وينزل في »المقسم« على نحو من عشرين درجة كالشادروان، فرؤيته تذهب الهمّ وتزيل الحزن.

وما ألطف قول القاضي صدر الدين ابن الآدمي رحمه الله:

قالوا فؤادَك برِّدْ عن محبتهم

فقلت نار الهوى لا تنطفي أبداً

برّدت قلبي عن الأحباب مذ رحلوا

بما »يزيد« على »ثورا« وما »بردا«

وقال صاحب دواوين الإنشاء العلاء ابن فضل الله:

انزل ببانياس ففي نهرها

سرّ به تجلى عروس السرور

واسمع حديث الماء في جريه

فإنه يشفي عليل الصدور

وجمعها الشيخ شعبان الآثاري في قوله وأجاد:

شوقي »يزيد« وقلب الصب ما »بردا«

و»بان يأسي« من المعشوق حين غدا

ومدمعي »قنوات« والعذول حكى

»ثورا« يلوم الفتى في عشقه حسدا

على مغنية بالجنك جاوبها

شبابة كم بها من عاشق شهدا

فالبدر »جبهتها« والردف »ربوتها«

وخلّها مات من خلخالها كمدا

ومن محاسن الأمير ابن درياس قوله:

والنهر قد عشق الغصون ولم يزل

أبداً يمثل شخصها في قلبه

حتى إذا فطن النسيم فجاءها

من غيرة فأمالها عن قربه

وأتى عليه مهيمناً بعتابه

سراً فجعّد وجهه من عتبه

ومن عقود ابن لؤلؤ الذهبي قوله:

يا حبذا النَّور(82) إلا أشرف النُّور

فما اشتغالك والمنثور(83) منثور

يا حبذا ودروع الماء تنسخها

أنامل الريح لولا أنها زور

---

(82) النَور: الزهر.

(83) المنثور: نوع من الزهر.

وقال ابن قرباص:

وتحدث الماء الزلال مع الحصى

فجرى النسيم عليه يسمع ما جرى

فكأن فوق الماء وشياً ظاهراً

وكأنَّ تحت الماء دراً مضمرا

وقال:

أيا حسنها من رياض غدا

جنوني فنوناً بأفنانها

جثى الماء فيها على رأسه

لتقبيل أقدام أغصانها

وقال القاسم بن علي في خيال الأغصان في الماء:

انظر إلى الغدران كيف ترقرقت

فبدا بها شبح الغصون الميّس

معكوسة الأشكال تحسب أنها

قامت على الأيدي له والأرؤس

وأبدع منه قول المناذري:

وقانا لفحة الرمضاء واد

وقاه مضاعف النبت العميم

نزلنا دوحه فحنا علينا

حنوّ المرضعات على الفطيم

وأرشفنا على ظمأ زلالاً

ألذّ من المدامة للنديم

يصد الشمس أنَّى واجهتنا

فيحجبها ويأذن للنسيم

تروع حصاه حالية العذارى

فتلمس جانب العقد النظيم

وما أحسن قول ابن المشد:

والرّوض بين تكبّر وتواضع

شمخ القضيب به وخرّ الماء

ويعجبني قول ابن النبيه:

تبسم ثغر الزهر عن شنب القطر

ودبَّ عذار الظل في وجنة النهر

فإن رقَّ واعتلَّ النسيم صبابةً

إذا مرَّ في تلك الرياض فعن عذر

توسوست الأغصان عند هبوبه

فما برئت إلاّ على رقية القُمري[84]

يخادعني الورد الجني وإنني

بوجنة من أهواه قد حرت في أمري

---

[84] القمري: طائر مغرد.

ويبسم عن ثغر الأقاح بنفسج
فألثمه شوقاً إلى لَعَسِ الثغر

ومن محاسن ابن تميم قوله:
والنهر مذ علق الغصون محبة
أضحت تطيل صدوده وجفاه
فتراه يجري لاثماً أقدامها
وخريره شكوى الذي يلقاه

ومن لطائفه قوله:
ونهر حالف الأهواء حتى
غدا طوعاً لها في كل أمر
إذا سرقت حلى الأغصان ألقت
إليه بها فيأخذها ويجري

وقال ابن لؤلؤ رحمه الله تعالى:
وحديقة مطلولة باكرتها
والشمس ترشف ريق أزهار الربا
يتكسر الماء الزلال على الحصى
فإذا جرى بين الرياض تشعبا

وقال أيضاً:
والنهر كالمبرد يجلو الصدى
ببرده عن قلب ظمآنه

ومن نكته البديعة قوله:

ونهر يحب الدَّوح أصبح مغرما
يروح ويغدو هائماً بوصالها
إذا بعدت عنه شكا بخريره
جفاها وأمسى قانعاً بخيالها

ومن أغراضه قوله:

ونهر إذا ما الشمس حان غروبها
عليه ولاحت في ملابسها الخضر
رأينا الذي أبقت به من شعاعها
كأنَّا أرقنا فيه كأساً من الخمر

ومن معانيه قوله:

وحديقة ينساب فيها جدول
طرْفي برائق حسنه مدهوش
يبدو خيال غصونها في مائه
فكأنما هو معصم منقوش

ومن ملحه قوله:

يا حبذا النهر الذي أمواهه
تسبي العقول بحسن ما تبديه
هو في الحدائق غير أن عيوننا
إن لاحظته تر الحدائق فيه

وقال محيي الدين بن قرناص:

فديتك أنت روضتنا تجدها
تميل إلى لقائك بالصدور
يعانقك القضيب بها سروراً
ويخفق فرحة قلب الغدير

ومن لطائفه قوله:
لما تبدَّى النهر عند عشية
والروض يخضع للصبا والشمأل
عاينته مثل الحسام، وطلّه
مثل الصدا، والريح مثل الصيقل

وقال أيضاً:
يا حسنه من جدول متدفق
يلهي برونق حسنه من أبصرا
ما زلت أنذره عيوناً حوله
خوفاً عليه أن يصاب فيعثرا
فأبى وزاد تمادياً في جريه
حتى هوى من شاهق فتكسرا

ابن قرناص الحموي:
سرق النسيم حلى الغصون بلطفه
لما أتاها وهي في أطرابها
ورمى بها نحو الغدير فضمَّها

من خوفه في صدره وجرى بها

وقال جالينوس: الماء الذي يجري في الأنهار، وتعلوه الأشجار؛ حار غليظ يعظم الطحال والكبد، ويقمِّح اللون ويفسد المعدة، ويولد الحميات. وكذلك ماء البئر لأنه يتحرك إلى البروز حركة بطيئة ويطول تردده في الأرض العفنة. وجميع الماء العفن كماء الآجام والبطائح رديء، وأردأ منه ماء البئر والقنا، لأنه محتقن لا يخلو من تعفن. وأردأ من الجميع الماء الذي يجري في مسالك من رصاص. وأقوى الماء المعتدل البرودة، فإنه يقوي الشهوة والمعدة، ويحسِّن اللون، ويمنع عفن الدم وصعود البخارات إلى الدماغ، ويحفظ الصحة. ومن اعتاد شرب الماء المبرد في الهواء لم يحتج إلى الثلج، لأن مضرة الثلج تتبين بعد وقت، فإنها تتجمع قليلاً قليلاً، وإذا صار أصحابها إلى سن الكهولة عرفوا شرها. على أن الماء المثلوج يمرئ، وينهض الشهوة، ويقوي المعدة؛ ويصلح الأمزجة الحارة، ويأمن الترهل. إلا أنه يضر الصدر والحنجرة والدماغ والأسنان والعصب. وأصحاب الأحشاء الورمة تدفع مضرته بالرياضة والحميص[85].

ومن محاسن الشام »الحواكير« وهي كالحدائق في سفح »جبل قاسيون«، فإن الفاصل بينه وبين »جبل الربوة« عقبة قرية »دمَّر« التي بحد »قبة سيار« يقال أنَّ سياراً هذا وبشاراً كانا يتعبدان على رأس هذين الجبلين اللذين للربوة، وكأنهما كانا من أصحاب الخطوة، فإذا أراد أحدهما الاجتماع بالآخر يضع قدمه على جانب الجبل والآخر عند صاحبه، فكأنهما يمشيان في الهواء، فبنوا لهما هاتين القبتين على هذين الجبلين.

رجع*، وكان حكماء اليونان ازدرعوا هذه الرياحين والأزهار في سفح »جبل قاسيون« لحكمة، وهو أنه يقيها البرد كونها في داره، وأن النسيم إذا مرّ بها يحمل منها (من طيب الريح) ما استطاع ويسري به إلى من تحتها من أهل المدينة والسكان. ولهذا قال »أبقراط« ينبغي للمعتني بصالح بدنه أن لا يدع حظه من الاستمتاع بروائح الأزهار والرياحين، فإنها تقوي الروح وتنعش الحرارة الغريزية التي بها قوام الحياة، والعليل أحوج إليها من الصحيح، لأنه قد عجز عن الأخذ من المطاعم والمشارب، فهي تنوب عن فعلها في التقوية.

وفي الحديث قال رسول الله (صلعم): »من عرض بريحان فلا يرده، خفيف الحمل طيب

---

(85) كذا.

الروح«، يعني عليه السلام بالريحان كل ذي رائحة ذكية[86] من الأزهار.

وقال ابن سينا: ينبغي (للمرء) أن لا يستعمل من المشمومات إلا ما كان موافقاً لمزاجه وطبعه، فإن كان مزاجه حاراً يستعمل البارد، وإن كان بارداً يستعمل الحار، ويجعلها أصنافاً مختلفة من حار وبارد فيعتدل لكل مزاج.

وينبغي أن لا يتناول المشموم إلا غباً، وعند توقان نفسه إليه فإنه أشهى وألذ موقعاً، وكذلك جميع المحسوسات إذا أحجم نفسه عنها ثم تناولها مشتهياً لها فإنه يجد لذتها على الكمال. ألا ترى العطارين تمل خياشيمهم من الروائح الطيبة وتكل فلا تجد لها رائحة، وكذلك مدمنو الروائح القذرة المنتنة فإن خياشيمهم تألف ذلك النتن حتى لا يكاد أحدهم يتأذى به. وينبغي أن لا يدني شيئاً من المشمومات إلى أنفه فإنه أشهى وأبقى لزهرة الرياحين.

ومن محاسن الشام »الورد«، وهو جنس تحته ستة أنواع بدمشق خلا الأسود، وهو بارد يابس قابض يقوي القلب والأسنان.

جيده »الجوري« يصلح للدماغ الحار والكبد، يسكِّن الصداع ويضرُّ أكله الباه وشرابه يبرد الدماغ؛ دفع مضرته خلطه بالكافور. وإذا ربي بالعسل أو بالسكر جلا ما في المعدة من البلغم؛ وأذهب العفونات. وهذا يكون من الورد النصيبي؛ وماؤه بارد لطيف، والإكثار منه يبيض الشعر.

ونقلت من »الفردوس« للإمام الحافظ أبي شجاع شيرويه بسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله (صلعم): »إن الله عز وجل خلق الورد من بهائه، وجعل له ريح أنبيائه، فمن أراد أن ينظر إلى بهاء الله، ويشم رائحة أنبيائه فلينظر إلى الورد الأحمر ويشمه«.

وكتب الشيخ جمال الدين محمد بن نباتة ورقة: »سطرها المملوك ومنظر الروض قد شاق، ودمع الغيث قد رقا ووجه الأرض قد راق، والغصون المتعطفة قد أرسلت أهواء القلوب بالأوراق، وحمائمها المترنمة قد جذبت القلوب بالأطواق. والورد احمرَّ خده الوسيم، وفكَّت أزراره من أجياد القضب أنامل النسيم، وخرجت أكفُّه من أكمامه تأخذ البيعة على الأزهار بالتقديم.

ومن محاسن الخوارزمي قوله:

---

[86] الأصح زكية.

أما ترى شجرات الورد مظهرة

لنا بدائع قد رِكِّبن في قضب

كأنهن يواقيت أضيف بها

زبرجد وسطها شذر من ذهب

ومن لطائف محمد بن عبد الله بن طاهر قوله فيه:

أما ترى الورد يدعو للورود على

عذراء صافية في لونها صهب

ترى صداهن ياقوت مركبة

على الزمرد في أوساطها ذهب

ومن بديع ابن المعتز بالله قوله فيه:

ووردة في بنان معطار حيّى بها في خفى أسرار

كأنها وجنة الحبيب وقد نقَّطها عاشق بدينار

وأوضحه ابن خطيب داريا بقولة:

انظر إلى الورد ما أحلى شمائله

سبحان خالقه من يابس الحطب

كأنه وجنة المحبوب نقَّطها

كفُّ المحب بدينار من الذهب

صاغه اللغوي الأندلسي في انضمامه بعد الفتح فقال:

ورد تفتح ثم انضم منطقه

كما تجمعت الأفواه للقبل

وما ألطف قول القائل:

أهدى إليّ معذبي ورداً ولم يك وقته

فسألته عنه فقال من الخدود قطفته

قبّلته فكأنني في خده قبلته

أبو الوليد الشاطبي:

فوق خد الورد دمع

من عيون السحب يذرف

برداء الشمس أضحى

بعدما سال يجفف

ومن التشابيه البديعة ما كتب إليّ بعض اللطفاء:

ودونك يا سيدي وردة

يذكرك المسكُ أنفاسها

كعذراء أبصرها مبصر

فغطت بأكمامها رأسها

وأنشدني فيه ذو الوزارتين صاحب الصناعتين أحمد الخلوف:

حكت شجرات الورد في الروض إذ غدا

يقلبها في خدها مبسم القطر

سقاة محل أبرزت في أكفها

كؤوس نضار قد ترصعن بالدر

ومن مقاصد أمير المؤمنين عبد الله بن المعتز بالله قوله:

وترى الغصون تميل في أوراقها

مثل الوصائف في صنوف حرير

والورد في خفر القموع كأنه

حمر الخدود بخضرة التعذير

وأحسن القائل فيه:

الورد أحسن منظراً تتمتع الألحاظ منه

فإذا انقضت أيامه ورد الخدود ينوب عنه

وقال ابن العفيف رحمه الله:

قامت حروب الزهر ما

بين الرياض السندسية

وأتت بأجمعها لتغـ

ـزو روضة الورد الجنية

لكنها انكسرت لأنَّ

الورد شوكته قوية

ونقلت من خط زين الدين عبد الرحمن الخراط في الورد على الماء:

عجبت وقد رأت عيناي ورداً

يسير بجدول عذب الشروع

فلم ير ناظري أبداً خدوداً

جرت من قبلهن مع الدموع

وما ألطف قول برهان الدين القيراطي:
إن للروح في دمشق لمأوى

ذا قرار وذا معين وربوة

وبروضاتها بساتين ورد

لي بأزرارها صبابة عروه[87]

وأبدع الشريف الرضي بقوله:
كم وردة تحكي بسبق الورد

طليعة تسرعت من جند

قد ضمها في الغصن قرص البرد

ضم فم لقبلة من بُعد

دخل مجير الدين ابن تميم إلى حديقة هذه الوردة وجمعها:
سبقت إليك من الحدائق وردة

وأتتك قبل أوانها تطفيلا

طمعت بلثمك إذ رأتك فجمَّعت

فمها إليك كطالب تقبيلا

ونقلت من خط ابن حجة له:
أرى الورد عند الصبح قد مدّ لي فما

يشير إلى التقبيل في ساعة اللمس

---

[87] هو »عروة بن حزام« الذي تضرب الأمثال ببكائه الديار.

وبعد زوال الصبح يبدو كوجنة

وقد أثّرت في وسطها قبلة الشمس

ومن نكته البديعة قوله:

قالوا لزهر الخلاف[88] عَرفٌ[89]

يضوع في ساعة القطاف

فضيع الورد. قلت كلا

الورد أذكى بلا خلاف

وتلطف القائل:

كتب الورد إلينا في قراطيس الخدود

يا بني اللهوِ صِلوني قد دنا وقت ورودي

ونقل النواجي في كتابه »تأهيل الغريب« عن المتوكل أنه كان يقول »أنا ملك السلاطين والورد ملك الرياحين، فكل منا أحق وأولى بصاحبه« حتى حرَّمه على الناس واستبد به وقال: »لا يصلح للعامة«، فكان لا يرى الورد إلا في مجلسه. ولهذا قال علي بن الجهم في رثائه[90]:

وبات اللهو وهو سخين عين

وصار الورد بعدك في انتها[91]

وكان لا يلبس في أيام الورد إلا الثياب الموردة، ويجلس على الفرش والأسانيد الموردة، ويورد جميع الآلات وينشد قول جحظة:

عزيز عليّ بأن يمسَّك ساقط أو أن تراك نواظر البخلاء

---

[88] الخلاف: نوع من الزهر.

[89] العرف: الرائحة.

[90] كانت في الأصل في »انشاه«.

[91] لعله في »انتهاب«

ويقال إن كسرى مرّ بوردة ساقطة على الأرض فقال: »أضاع الله من أضاعك«، ونزل وهو في موكبه ووضعها على رأسه.

قلت: وكل من تعرّض إلى وصف الورد وتشبيهه شغل عن علو رتبته وبديع حسنه، ولو سكتوا عن ذلك كان أليق بهم لأنهم لم يتأدبوا معه مع علمهم بأنه سلطان الرياحين. ومن هذا قول بعضهم:

للورد عندي محلٌّ ورتبة لا تملٌّ

كل الرياحين جند وهو الأمير الأجل

ولعمري إن مثل هذا النظم السافل!!! يمشي على كثير من الناس، وما احمرت وجنات الورد إلا خجلاً من نسبة هذا الشعر إليها بين الندماء والجلاس.

ومن النكت اللطيفة ما يحكى عن الفضل قال: دخلت على الرشيد يوماً وبين يديه طبق ورد عند جاريته ماردة، وكانت لا تحسن الشعر والأدب مع الحسن والجمال، فقال: يا فضل قل في هذا الورد شيئاً، فأنشدته بديهة:

كأنه خد محبوب يقبله

فم الحبيب وقد أبدى به خجلا

فقال الرشيد قم يا فضل، فاخرج عنا فقد هيجتني هذه الماجنة، فقمت وقد أرخيت الستور عليهما.

ونقلت من خط المرحوم مجد الدين عبد الوهاب ابن سحنون خطيب النيربين وطبيب بيمرستان الصالحية، أنشد في ضعف موته سنة أربع وتسعين وستمائة، وقد عاده بعض أصحابه، ومعه وردة بيضاء، فقال:

ووردا أبيضاً قد زاد حسناً

فعند الضد للخجل احمرار

يمثله النديم إذا رآه

مداهنَ فضة فيها نُضار

ونقلت من خط التقي ابن حجة قوله فيه:

كم وردة بيضاء قد حكت لنا مذ أزهرت
طلعة بدر كامل والشمس فيها كوّرت

وقد ولّده من قول السري الرفاء فيه:

بدا أبيض الورد الجنىّ كأنما
تنسمه الناشي بمسك وكافور
كأن اصفراراً منه وسط ابيضاضه
برادة تبر في مداهن بلّور

وقال سعيد بن حميد في الورد الأحمر والأبيض معاً:

يا حسنها من وردة بيضاء جاءت بالعجبْ
كجام بلور به قراضة من الذهب

وقال سعيد بن حميد فيه وما تقدمه ليس لسعيد بل للوأواء الدمشقي:

أتاك الورد محجوباً مصوناً كمعشوق تكففه صدودُ
كأن عيونه لما توافت نجوم في مطالعها سعود
بياض في جوانبه احمرار كما احمرت من الخجل الخدود

ومن لطائف بلدينا ابن المعتز بالله قوله فيهما معاً:

أهدت إليَّ يدٌ نفسي الفداء لها
الورد نوعين مجموعين في طبقِ
كأن أبيضه في وسط أحمره

كواكب أشرقت في حمرة الشفق

الشريف الرضي في وصف الورد الثالث وهو الأسود:

وورد أسود خلناه لما … تضوَّع نشره ملك الزمان

مداهن عنبر غضٍّ وفيها … بقايا من سحيق الزعفران

وقال ابن عين بصل يصف الورد الأصفر:

شجرات ورد أصفر بعثت … في قلب كل متيم طربا

يا من رأى من قبلها شجراً … سُقي اللجين فأنبت الذهبا

ومن محاسن الطغرائي قوله فيه:

ألم تر أن جيش الورد وافى … بخضر من مطارفه وصفر

أتى متلثماً بالشوك أو في … نصال زبرجد وتروس تبر

الرابع قال المطوعي في الورد القحابي الذي باطنه أحمر وظاهره أصفر:

ووردة جمعت لونين رائقة

خدَّي حبيب وخدَّي هائم عشقا

تعانقا فبدا واش فراعهما

فاحمرَّ ذا خجلاً واصفرَّ ذا فرقا

وله:

قحابي الورد في البستان يدعو

تبرجُّها الرجال إلى الرحيق

لها نوعان ظاهرها كتبر

ولكن البواطن كالعقيق

تخال الجلّنار على بهار

وتبريّ الرياض على شقيق

ابن المعتز:

وذي لونين نشر المسك فيه يروق بحمرة فوق اصفرار

كمعشوقين ضمهما عناق على حدثان عهد بالمزار

ومن لطائف أبي بكر الخالدي قوله فيه:

وردة بستان قحابية زينت من الحسن بنوعين

باطنها من قشر ياقوتة وظهرها من ذهب عين

قبلتها حباً لها إذ بها حياني البدر على عين

كأنها خدي على خده يوم اجتمعنا غدوة البين

والخامس الورد الجوري، وفيه قال الشيخ عمر بن الوردي:

قالت إذا كنت ترجو أنسي وتخشى نفوري

صف ورد خدي وإلا أجور، ناديت: جوري

والنوع السادس من الورد هو الأصفر المطبق.

وقرية الزبداني هي قلعة الورد، يستخرجون بها ما ورد القاهرة المحروسة ومكة المشرفة وغيرهما من البلاد. وكذلك فاكهتها هي المنقولة إلى القاهرة المحروسة وغيرها.

وفيه يقول نجم الدين صاحب ديوان الإنشاء بحماة:

وورد أتينا النار تقبض روحه

ونبعثها نحو الحبيب تكرما

فلما رآها احمرَّ واصفر قائلاً

خذي نفسي يا ريح من جانب الحمى

وفيه يقول شهاب الدين بن الشبلي:

يا سيدي والذي خلائقه كالروض أيدي الصبا تدمثها

بعثت ورداً إليك عسى تقبض لي روحه وتبعثها

وقال آخر:

لم أنس قول الورد حين جنيته

والنار لاستقطاره تتسعر

ناشدتكم نفسي خذوه وإنما

لا تعجلن بقبض روحي واصبروا

ومن رقيق شعر بلدينا محمد بن المزين الدمشقي قوله:

شاب ورد الرياض من ورد خديك وانفرك

فله الناس أثبتوا وانتفى الورد للكرك[92]

ومن محاسن الشام الورد النسريني، وهو نوّار أبيض وأصله بري، يمتد ويعرّش كالكرم، وله أغصان برؤوسها الورد، كل غصن فيه مائة وردة وأكثر. فقال ابن البيطار في مفرداته: وبعض الناس يسميه بالورد الصيني، وأكثر ما يوجد بالشام بعد انفراك الورد المتقدم.

وقال ابن سينا: الورد حار يابس في الثانية يقوي القلب إذا أديم اشتمامه، ويحلل الرياح الكائنة

---

[92] الكرك: بلدة في منطقة »شرقي الأردن« الآن، وكان الحكام في القرون الوسطى قد اتخذوها منفى لمن يريدون إبعاده عن الشام أو مصر. وفي تلك المنطقة »الحميمة« التي كانت منفى آل العباس رضي الله عنهم قبل قيام دولتهم.

في الرأس والصدر ويخرجها بالعطاس، وإذا تُدُلِّك به في الحمام مسحوقاً بعد تنشيفه طيّب رائحة البشرة والعرق.

وقال السامري: هو من خصوصيات الشام، وبالديار المصرية نسرين ليس هو هذا، إنما هو ورد سياج بساتين الشام. وهو نوار أبيض شديد العرق، يجمعونه بمصر ويبيعونه، ولا يجمع في الشام ولا يباع لكثرته. وهو يطلع في الغالب من عند الله تعالى بدمشق، وخروجه بالشام مع النسرين.

ونقلت من خط الشيخ شمس الدين الدماميني:

أقول لصاحبي والروض زاهٍ

وقد أبدى الربيع بساط زهر

تعال نباكر الروض المفدَّى

وقم نسعى إلى ورد ونسرى

ومن رقيق شعر ذي الوزارتين:

أبان لك النسرين أو خلت أنه

أكف سقاة حمِّلَت اكؤساً صفرا

مداهن عاج حشوها التبر إذ علت

رؤوس زنوج ألبست حللاً خضرا

ومن محاسن الشام النرجس، وهو جنس تحته أنواع،

الأول اليعفوري، الثاني البري، الثالث المُضْعَف. قال ابن البيطار: في الرابعة، وهو نبات له ورق مجوف وليس عليه ورق، طولها أكثر من شبر، وعليها زهر أبيض مستدير، في وسطه شيء لونه أصفر، ومنه ما لونه أسود، وثمرته سوداء كأنها في غشاء مستطيل، وهو طيب الرائحة، وإذا أكل أصل النرجس مسلوقاً أو شرب هيَّج القيء، فإذا شُمَّ زهره نفع من وجع الرأس ويفتح سدد الدماغ. وشمه ينفع الزكام الباردة، وفيه تحليل قوى الرطوبات، ويخفف ويلطف الجو.

وقال جالينوس: إن النرجس راعي الدماغ، والدماغ راعي القلب.

وقال أبقراط: كل شيء يغذو الجسم والنرجس يغذو العقل.

والنرجس المحدق وهو البري إذا شق بصله وغرس صار مضعفاً. ومن أدمن شم النرجس في الشتاء أمن البرسام في الصيف. وهو معتدل في الحرارة واليبس.

وفي »أسنى المطالب في مناقب علي بن أبي طالب رضي الله عنه« للحافظ شمس الدين أبي عبد الله محمد بن الجزري الشافعي رحمه الله تعالى حديث مسلسل بالقضاة إلى القاضي شريح قال: حدّثنا أقضى قضاة اللامة[93] أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله (صلعم): »شمو النرجس ولو في اليوم مرة، ولو في الجمعة مرة، ولو في الشهر مرة، ولو في السنة مرة، ولو في الدهر مرة، فإن في القلب حبة من الجنون والجذام والبرص لا يقطعها إلا شم النرجس«، ورواه أيضاً صاحب »الفردوس« مسلسلاً بالقضاة إلى أقضى الأمة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه ولفظه »شمو النرجس فإنه ما منكم أحد إلا وله شعبة بين الصدر والفؤاد من الجنون والجذام والبرص لا يقطعها إلا شم النرجس«.

وقال ابن سينا، لأن الخبز غذاء الأبدان، والنرجس غذاء الأرواح.

وكان كسرى يقول: إني لأستحي أن أغازل من أحب بمجلس فيه النرجس. أخذه بعضهم وقال:

غضي لحاظك يا عيون النرجس
فعسى أفوز بنظرة من مؤنسي
فلقد يحير إذا رآك شواخصاً
ترمينه بلواحظ المتفرّس

ومن لطائف أمير المؤمنين ابن المعتز قوله في النرجس:

عيونٌ إذا عاينتها فكأنما
دموع الندا من فوق أجفانها در

---

[93] الأصح الأمة.

محاجرها بيض وأحداقها صفر

وأجسادها خضر وأنفاسها عطر

مجير الدين بن تميم:

ولما أتى النرجس المجتنى بقرب الربيع وإيناسه

نثرنا على رأسه فضة وتبراً فراق لجلاسه

وأصبح يخطر ما بيننا وذاك النثار على رأسه

ومن تشابيه ابن قلاقس قوله:

وشادن أهيف حيًّا بنرجسة

كأنها إذ بدت في غاية العجب

كف من الفضة البيضاء ساعدها

زبرجد حملت كأساً من الذهب

ومن مقاصد ابن وكيع قوله:

ما نظرت عيناي في روضة أحسن من نرجسة غضة

كزعفران وسط كافورة أو ذهب أفرغ في فضه

ومن مقاصد عبد الله بن المعتز قوله:

نرجسة لاحظني طرفها تلوح في بحر دجى مظلم

كأنما صفرته في الدجى صفرة دينار على درهم

ومن أغراضه قوله:

كأنما جفنه بالغنج منفتحا

كأس من التبر في منديل كافور

ومن مداعبات أمين الدين جوبان قوله:

نَفَشَّ غصن البان أذنابه

وماس عند الصبح زهواً وفاح

وقال هل في الروض مثلي وقد

تعزى إلى مثلي قدود الرماح

فحدّق النرجس يزهو به

وقال حقاً قلتَ ذا أو مزاح

بل أنت بالطول تحامقت يا

مقصوف عمرٍ بالدعاوي القباح

فقال غصن البان من تيهه

ما هذه إلا عيون وقاح

ومن مداعبات ابن تميم قوله:

ولما أتى النرجس المجتنى

بشير الربيع بقرب المزار

نثرنا على رأسه فضة

ولم يخل في بعضها من نضار

فأصبح يخطر ما بيننا

وفي رأسه بعض ذاك النثار

ومن تضامينه قوله:

غديرٌ دار نرجسه عليه
ورقَّ نسيمه فصفا وراقا
تراه إذا حللت به لورد
»كأن عليه من حدق نطاقا«

ومن تضمين ابن حجة قوله:
إلى الحمى نسمات الصبح مذ بعثت
ندى به ذيل ثوب الزهر مبلول
قالت نراجسه مذ حدَّقت ورنت
»مهما بعثتم على العينين محمول«

ابن الرومي واستحيا من هجوه للنرجس[94]:
انظر إلى نرجس تبدَّت
صبحاً لعينيك منه طاقه
واكتب أسامي مشبهيه
بالعين في دفتر الحماقة
وأي حسن لطرف شاك
من يرقان يحمل ماقه
كراثة ركبت عليها
صفرة بيض على رقاقه

---

[94] هذه الأبيات ليست لابن الرومي الذي اشتهر بمدح النرجس وذم الورد، بل هي لأبي العلاء السروري، وقد أوردها النواجي في »حلبة الكميت« ص 203.

وفي تصحيفه قول الميكالي:

أهلاً بنرجس روض يزهو بحسن وطيب
يرنو بعيني غزال على قضيب رطيب
وفيه معنى خفي يزينه في القلوب
تصحيفه إن نسقت الـ حروف برء حبيب

وقال أيدمر المحبوي وأبدع:

وكأن نرجسه المضاعف خائض
في الماء لفَّ ثيابه في رأسه

ومن غرائب أبي عبد الله الحداد الأندلسي قوله:

انظر إلى النرجس الوضاح حين بدا
كأنه ناظر عن جفن مبهوت
كأذرع الغيد في خضر البرود حكت
على أناملها أصفى اليواقيت

ومن دقائق ابن وكيع قوله رحمه الله:

اشرب فلست على صحو بمعذور
واطرب على صوت نايات وطنبور
أما ترى النرجس الريَّان يلحظنا
كأن أجفانه أجفان مخمور
كأن أصفره في وسط أبيضه
قراضة أودعت أحشاء بلور

أما تراه ومرُّ الريح يعطفه
كأنه زعفران وسط كافور
إذا بدا في اختلاف من تلونه
أراك كيف امتزاج النار بالنور

ومن تشابيه أمير المؤمنين المأمون قوله:
وياقوتة صفراء في رأس درة
مركبة في قائم من زبرجدِ
كأن جمان الطلّ في جنباتها
بقية دمع فوق خد مورد

ومن جيد السبك قول ظافر الحداد الإسكندري:
كأنما النرجس لما بدا
لناظر في ساحة (المأزمين)
زبرجد قد جعلوا فوقه
أقداح تبر في صواني لجين

وقال أيضاً رحمه الله:
كأنما النرجس الطافي حين بدا
قعاب تبر على جامات بلور
كأن أوراقه والشمس تقصرها

أوراق شمع فمن خام ومقصور[95]

ومن بديع ابن تميم قوله فيه:

شبهت نرجسة أهدى إليّ بها

خِلّي وقد جئت في التشبيه بالعجب

كفاً من الفضة البيضاء ساعدها

زمرّد وسطه كأس من الذهب

ومن محاسنه قوله فيه:

كيف السبيل لأن أقبل خدّ من

أهوى إذا نامت عيون الحرس

وأصابع المنثور تومئ نحونا

حسداً وتغمزها عيون النرجس

ومن لطائفه قوله فيه:

لا تمش في أرض وفيها نرجس

أو أقحوان غِبَّ كل مقام

إن اللواحظ والثغور أجلّها

عن وطئها في الروض بالأقدام

ومن نكته البديعة قوله:

إني لأشهد للحمى بفضيلة

من أجلها قد صرت من عشاقه

---

[95] الخام: قماش أبيض ويكون مقصوراً إذا غسله القصار ودقه.

ما زاره أيام نرجسه فتى
إلا وأجلسه على أحداقه

ومن أغراض الشبلي قوله:

ونرجس قابل في مجلس
ورداً غلا في نعته الناعت
فخدٌ ذا يخجل من لحظ ذا
وطَرْف ذا في خد ذا باهت

ومن تضامين ابن حجة قوله:

حدائق الروضة الغناء نرجسها
عيونه بدموع الطلّ مذ رمقت
هِمنا إلى رشف ثغر الكأس من فرح
»فأمطرت لؤلؤاً من نرجس وسقت«

وألطف ما سمعت قول القائل:

يغض من فرط الحيا طرفه
ما أحسن الغض من النرجس

ومن عقود ابن لؤلؤ قوله:

باكر إلى الروضة تستجلها فثغرها الأشنب بسام
وبلبل الدوح فصيحاً غدا في الأيك والشحرور تمتام
والغصن فيه ألف قد بدا والنهر في أرجائها لام

والنرجس الغض اعتراه الحيا فغضَّ طرفاً فيه أسقام

ويعجبني قول ابن مكانس:

وجدول الماء يجري بين نرجسه لدى البصائر جري الطيف في المقل

ومن المعاني التي افتضَّها ابن قرناص قوله:

من لي بروضة نرجس فاقت على أنواع أزهار الربيع المبهج

كقواعد من فضة قد ذُهِبَّت تعلو على عمد من الفيروزج

وقال علي بن سعيد صاحب »المرقص« في تفضيل الورد عليه:

من فضَّل النرجس وهو الذي يرضى بحكم الورد إذ يرأس

أما ترى الورد غدا قاعداً وقام في خدمته النرجس

ومن محاسن الشام البنفسج، وهو العراقي وقلبجي وأبيض. وهذا النبات له ورق قابل التدوير، له ساق يخرج من أصله عليه زغب أصفر، وعلى طرف ساقه زهر طيب الرائحة جداً، ولونه لون الفيروز، ينبت في المواضع الظليلة الحسنة.

وهو بارد رطب ينفع الدماغ الحار، ويسكن صداعه، وإذا ربى[96] مع السكر ينفع من السعال الكائن من حرارة.

---

[96] ربى: صنع منه المربى.

وقال جالينوس: في السادسة ورق هذا النبات جوهره، جوهر ماء بارد قليلاً ولذلك صار متى صنع ورقه كالضماد إما مفرداً وإما مع دقيق الشعير سكن الأورام الحارة، وقد يوضع على العين إذا كان فيها لهيب، وينفع من التهاب المعدة والأورام الحارة، ونتق المعدة، ويقال إن زهره إذا شرب بالماء نفع من الخناق العارض للصبيان، وهو المسمى »أم الصبيان«، وينوِّم نوماً معتدلاً، ويسكن الصداع العارض من المرة الصفراء والدم. والبنفسج الناشف يسهل المرة الصفراء المحتبسة في المعدة والأمعاء أيضاً. والشربة منه ثلاثة دراهم إلى سبعة داهم مدقوقاً منخولاً مع مثله بالسكر ويشرب بالماء الحار والله أعلم.

ومن لطائف ابن تميم:

عاينت ورد الروض يلطم خده

ويقول وهو على البنفسج محنق

لا تقربوه وإن تضوّع نشره

ما بينكم فهو العدو الأزرق

ومن عقود ابن لؤلؤ الذهبي قوله:

إن البنفسج ترتاح النفوس له

ويعجز الوصف عن تحديد معجبه

أوراقه شعل الكبريت منظرها

وريحه عنبر تحيى النفوس به

والأصل فيه قول عبد الله بن المعتز:

بنفسج جمعت أوراقه فحكت

كحلا تشرَّب دمعاً يوم تشتيت

كأنه فوق قامات يلوح بها

أوائل النار في أطراف كبريت[97]

---

[97] **في هامش الأصل: وقد رأيت في نسخة أخرى:**

ولازوردية تزهو بزرقتها   بين الرياض على حمر اليواقيت

كأنها فوق قامات ضعفن بها   أوائل النار في أطراف كبريت

قال النواجي في كتابه »تأهيل الغريب«: رأيت لبعض صيارفة الأدب على هذا التشبيه نقداً حسناً فإنه قال: »إن كانت النار في أوائل الكبريت قد وافقته في اللون فقد خالفته في الرائحة، وشرط المشبه أن يكون أعلى رتبة في التشبيه، والبنفسج يجلُّ علو قدره عن ذلك، فإنه من أهل الجنة والكبريت من أهل النار.

وقد زاحمه عليه أبو العلاء عطاء بن يعقوب في رسالته فقال: »وحديقة سماوية اللباس، مسكية الأنفاس، كبقايا النقش في بنان الكاعب، أو النقس في أصابع الكاتب، لازوردية فاقت بزرقتها اليواقيت، كأوائل النار في أطراف الكبريت«.

قال وقد قلَّ من وفَّاه حقه من المتأدبين حسناً، وأتى في تشبيهه بما يلائمه صورة ومعنى. قلت:

وياسمين قد بدت أزهاره لمن يصف

كمثل ثوب أخضر عليه قطن قد ندف

شعر:

خليليَّ هبَّا ينقضي عنكما الهوى

وقوما إلى روض وكأس رحيق

فقد لاح زهر الياسمين منوَّراً

كأقراط درٍّ قمِّعت بعقيق

بلدينا العلاء بن أيبك الدمشقي في الياسمين الأصفر قوله:

كأنما الياسمين حين بدا أصفره في جوانب الكثب

عساكر الروم نازلت بلداً وكل صلبانها من الذهب

وقال الزحاري:

ولفَّاء خلناها سماء زبرجد

لها أنجم زهر من الزهر الغض

تناولها الجاني من الأرض قاعداً

ولم أر من يجني السماء من الأرض

ونقلت من خط ابن حجة قوله فيه:

الياسمين يقول مذ ولّى الشتا

ومضى الربيع بأعين ومباسم

دَين المصيف عليّ آن أوانه

وقد استحق اليوم قبض دراهمي

ومن محاسن الشام المنثور، وهو أصفر وأبيض وبنفسجي وأزرق. والأزرق فيه حراقة، وطعمه يشبه طعم الفجل يدشئ[98] ويهضم.

ومن لطائف الأمير مجير الدين محمد بن تميم قوله:

ومذ قلت للمنثور إني مفضل

على حسنك الورد الجليل عن الشبه

تلوَّن من قولي وزاد اصفراره

وفتَّح كفيه ومال إلى وجهي

ومن محاسنه قوله فيه:

أنعم على المنثور منك بزورة فلقد أراه والسقام حليفه

ما اصفرّ إلا حين غبت ولم يزل

يدعو بأن يأتي إليك كفوفه

ومن مقاصده قوله:

---

[98] يدشئ: يجشئ.

من قال إن الورد كالمنثور في عظم المكانة جدَّ فيه[99] تعنيفه

ما احمرَّ وجه الورد إلا إذ غدا المنثور يلطم خدَّه بكفوفه

ومن أغراضه قوله فيه:

يشير بتوبة الندماء جهلاً وللمنثور عندهم نصيب

وكيف وقد عقدنا كل كف بكف منه إنا لا نتوب

ومن محاسنه قوله فيه:

مولاي للمنثور حق وهو أن تلقاه إذ يلقى بكأس رحيقه

أكرمه أو فاعلم بأن كفوفه تدعو على من لم يقم بحقوقه

ونقلت من خط الشيخ بدر الدين الدماميني فيه:

لله منثور بروضك نشره يطوي عبير المسك والكافور

قَطَرَ الندى فيه جواهر نظِّمت يا حبذا المنظوم في المنثور

ونقلت من خط القاضي زين الدين عبد الرحمن بن الخراط فيه:

دع المنثور شمسُ الورد غشَّت نَوره نورا

ألم تره إذا يبدو هباء فيه منثورا

---

[99] فيه: الأصح في.

وقال عرقلة في المنثور الأحمر وأجاد:

انظر إلى المنثور ما بيننا
وقد كساه الطلُّ قمصانا

كأنما صاغته أيدي الحيا
من أحمر الياقوت صلبانا

ومن نكته البديعة قوله فيه:

حاذر أصابع من ظلمت فإنها
تدعو بقلب في الدجى مكسور

فالورد ما ألقاه في حجر القضا
إلا دعاء أصابع المنثور

ومن لطائفه قوله فيه:

مذ لاحظ المنثور طرف النرجس الـ
ـمزوَر قال وقوله لا يدفع

فتِّح عيونك في سواي فإنما
عندي قبالة كل عين إصبع

ومن محاسنه قوله فيه:

لما ادّعى المنثور أن الورد لا
يأتي وأن يصلى بنار سعير

ودّت ثغور الأقحوان لو أنها
كانت تعضُّ أصابع المنثور

ونقلت من خط التقوى ابن حجة قوله فيه رحمه الله:

رأيت مع المنثور بعض وقاحة
ولم أدر ما بين الغدير وبينه
تلوَّن منه ثم مدّ أصابعاً
إلى وجهه عمداً وخضَّر عينه

ومن بدائعه قوله فيه:

صافحَ منثورُ الربا وردة
فلامه القمريُّ في الأيكه
قالت ورود الروض في غيضة
هل جاز في إصبعه شوكه

ويعجبني قول الحاجبي وأبدع:

ولقد نثرت مدامعي ودمي معاً
يوم الوداع وخاطري مكسور
لا تعجبوا لتلونٍ من أدمعي
لابدع أن يتلوَّن المنثور

صاعد اللغوي قوله فيه وأبدع:

قد أقبل المنثور يا سيدي كالدر والياقوت في نظمه
ثناك لا زال كأنفاسه ورأس من عاداك مثل اسمه

ومن محاسن الشام السوسن، وهو أبيض وأصفر وأزرق.

قال العلامة ابن الجوزي في كتابه »لقط المنافع« هو ضرب من الرياحين، وجيده

الأسمانجوني الطري، حار يابس، يليّن قصبة الرئة وينقيها، وينفع الحلق ووجع الطحال، ويصفي الصوت وينفع التهاب المعدة وحرقة البول، وقروح الكلى والمثانة، ويزيد في المني، ويقوي الذكر، وينفع جميع علل السودا والبلغم. والشربة منه ثلاثة دراهم.

وقال ابن سينا: في الرابعة ومن الناس من سماه اسيرس، ومنهم من سماه إيرس[100] أخربا، وأهل رومية يسمونه غلاديون، وهو نبات له ورق شبيه بالخناجر في عرضها محدد الطرف، وله ساق خارج من وسط الورق، وطوله ذراع. غليظ جداً، عليه غلف ذات ثلاث زوايا، وعلى الغلف زهر لونه إلى الفرقين، ولون وسط الزهر أحمر قان، وله ثمر في غلف شبيه في شكله بالقثاء، والثمر مستدير أسود وحريف، وله أصل كثير العقد طويل أحمر. يصلح للخراجات العارضة في الرأس والكسر العارض بقحف الرأس. وإذا تضمَّد به مع الخل أبرأ الأورام البلغمية والأورام الحارة، وقد شرب بالشراب الحلو المعمول بماء البحر للشدخ وعرق النساء، وتقطير البول والإسهال، وإذا شرب بالخل حلَّل ورم الطحال.

ومنه البري وفيه يقول ابن المعتز بالله في الأبيض:

والسوسن الأبيض منثور الحلل
كقطن قد مسه بعض البلل

وقال ابن تميم وأبدع:

وكأن سوسنة بدت في روضها
بيضاء ضاعف نشرها وقع الندا
نوَّارة برد النسيم وهبَّ في
وقت الصباح بثوبها فتجردا

ومن التشبيه المقلوب قوله فيه:

يا أحسن نوفرة بدت في بركة
أبداً يفيض الماء فيها ديدنا

---

[100] يسمى زهر السوسن Iris بالإفرنسية والإنكليزية.

ما إن بدت إلا وظَلّتُ مفكراً

في نوفر وراح ينبت سوسنا

ومن محاسن القاضي الفاضل قوله فيه:

وأبيض السوسن في رياضه يسبي قلوب الزهر بالتجرد

يظل مسروراً به كأنه أقداح بلور على زبرجد

وقال ابن تميم فيه وكأنه تلميح إلى معنى ابن المعتز:

يا حسنها من روضة أزهارها أبدت لعيني لؤلؤاً وزبرجدا

والسوسن المبيَضُّ في أرجائها كالقطن بلله الندى فتبلّدا

وقال ابن المطرزي في السوسن الأصفر:

يا رب سوسنة قبلتها كلفاً

وما لها غير نشر المسك في السوق

مصفرة الوسط مبيَّضٌ جوانبها

كأنها عاشق في حجر معشوق

وقال ابن المعتز في السوسن المشرب بالحمرة:

سقياً لأرض إذا ما نبهت بنهى

على الهدوّ بها قرع النواقيس

كأن سوسنها في كل شارفة

على الميادين أذناب الطواويس

وقال ابن حجة فيه مضمناً:

بدا سوسن الروض المدبج أزرقا

وأصفر يعلو طوله فوق مبيض

كأن الربا أرخت ذيول غلائل

مصبَّغة والبعض أقصر من بعض

ومن محاسن الشام الزنبق، وهو من خصوصياتها، وهو قضبان خضر دون الذراعين، عليها ورق عرض ورق الطرخون وأطول منه، وفي رأسه زهر أبيض شبيه قُبُل تفتحه بالمكاحل، فإذا انفتح تلفيه مسدساً وبوسطه شيء كالإبر في رفعها وأطول منها، وعلى رءوسها نقط صفر تصبغ كالزعفران، عطر الرائحة شديد العرف وله دهن حار.

شعر:

قد نشر الزنبق أعلامه   وقال كل الزهر في خدمتي

لو لم أكن في الزهر سلطانها   ما رفعت من دونها رايتي

فقهقه الورد به هازئاً   وقال ما تحرز من سطوتي

وقال للأزهار ماذا الذي   يقول ذا الأشيب في حضرتي

فانفتح الزنبق من قوله   وقال للأزهار يا عصبتي

يكون هذا الجيش بي محدقاً   ويضحك الورد على شيبتي

معين الدين عصرون قال فيه:

وزهراء هيفاء القوام رشيقة   منعَّمة شقت عليها الغلائل

كأن أعاليها قناديل فضة   وقد أوقدت منهن تلك الفتائل

المنقول من خط ابن حجة الحموي قوله فيه رحمه الله:

أصابع المنثور لما مدها   لقرص خد الورد من بعد القُبَل

هزّ له الزنبق رمحاً عاليا   فالراية البيضا عليه لم تزل

ومن محاسن الشام البهار. قال ابن البيطار وهو الأقحوان الأصفر عند بعض الناس في الثالثة، وهو نبات له ساق رخصة وورق شبيه بورق الرازبانج، وزهره أكبر من زهر البابونج

أصفر اللون أسود الوسط، شبيه بالعيون، ولهذا يسميه بعض المغاربة بعين البقرة، وينبت في الدمن وله حدة وحراقة وتحليل، ويشفي من الأورام الصلبة إذا خلط بشمع مذاب ودهن.

وقال التميمي في كتابه »المرشد« ومنه نوع صغير الشكل جداً يسمى في الشام »عين الحجل«، إذا جمع نوّاره وجفف وسحق وجعل في بعض أكحال العين جلا ظلمة البصر العارضة له، وجلا البياض الكائن من الماء المنصب إليها المفسد لحسن البصر وأحدّ نورها.

وفيه يقول ابن إسرافيل:

حكاني بهار الروض حين ألفته
وكل معشوق للمشوق يصاحب
فقلت له ما بال لونك أصفر
فقال لأني حين أعكس راهب

ويضارعه الأقاح:

ولو كنتَ حيث الروض قد مدَّه الثرى
بسلطان أمواه الجداول معلماً
ومن فوقه زهر الأقاح منوِّرا
رأيت السما كالأرض والأرض كالسما

ومن الأقحوان:

وقد لاح زهر الأقحوان كأنه
يميس به خصر أرقُّ من العضب
رؤوس مسامير من التبر رَصَّعت
دوائرها الصواغ باللؤلؤ الرطب

ظافر الحداد قوله فيه:

والأقحوانة تحكي ثغر غانية

تبسمت فيه من عُجب ومن عَجَب

في القد والبرد والريق الشهي وطيـ

ـب الريح واللون والتغنيج والشنب

كشمسة من لجين في زبرجدة

قد أشرقت تحت مسمار من الذهب

ومن مرقص ابن حمديس الصقلي قوله فيه:

من قبل أن ترشف شمسُ الضحى

ريقَ الغوادي من ثغور الأقاح

باكر إلى اللذات واركب لها

سوابقَ اللهو ذوات المراح

ومن لطائف الخالدي قوله فيه:

يا رب ربع مقفر موحش

خال نزلناه قبيل العشي

كأنما نُورُ الأقاحي به

ثغر فم عضَّ على مشمش

ومن محاسن ابن عباد الإسكندري:

والأقحوانة تجلو وهي ضاحكة

عن واضح غير ذي ظلم ولا شنب

كأنها شمسة من فضة حرست

خوف الوقوع بمسمار من الذهب

ومن محاسن الشام الأذريون، هو صنف من الأقحوان ومنه ما نوّاره أصفر ومنه ما نواره أحمر، فالأصفر ذهبي وفي وسطه رأس صغير أسود.

وقال الغافقي هو نبات يدور مع الشمس، وينضم نواره بالليل. وزعم قوم أن المرأة الحامل إذا أمسكته بيديها مطبقة إحداهما على الأخرى نال الجنين ضرر عظيم شديد، وإن أدامت إمساكه واشتمامه أسقطت.

وقال صاحب »الفلاحة« إن دخانه يهرب منه الفأر والوزغ، وهو نبات حار رديء الكيفية، إذا شرب من مائه أربعة دراهم قيّأ بقوة، وإن جعل زهره في موضع هرب منه الذباب، وإن دق وضمِّد به أسفل الظهر أنعظ إنعاظاً موسطاً.

وقال هرمس: الأذريون حار في الثالثة يابس فيها، ويقال: المرأة العاقر إذا احتملته حبلت.

وما أبلغ قول ابن المعتز فيه:

وأذريون شبهه والشمس فيه كاليه

مداهن من ذهب فيها بقايا غاليه

وما أحسن قول الصنوبري فيه:

كأن أذريونها من فوق تلك القصب

خيام مسك فوقها سرادق من ذهب

وقال ابن حجة فيه:

كأن أذريونها ونوره قد أبهجا

وميض برق لامع في جنح ليل قد دجا

وقال ابن تميم:

وكأن أذريونها في روضة
سرج تضيء على صفا أنهارها

والسرج تخفيها الشموس وهذه
سرج تزيد الشمس في أنوارها

ويلحق به البابونج. قال ابن الجوزي في »لقط المنافع«: أفضله ما كان أصفر طرياً طيب الرائحة، وهو حار يابس، يحلل الأخلاط الرديئة ويقوي الأعصاب، وينفع الصداع والوسواس واليرقان. وإذا جلست المرأة في مائه المطبوخ أدرَّ الطمث وأخرج الأجنة، ويدر البول، ويفتت الحصى الذي في الكلى والشربة منه ثمانية دراهم.

وكذلك زهر الكركيش قال الشاعر:

انظر إلى الكركيش وهو محدق
كالتبر محتاط عليه يدار

فكأنه فم شادن متبسم
من فوق رأس لسانه دينار

ومن محاسن الشام الآس. قال أبو حنيفة: خواصه عظيمه، وخضرته دائمة، وله زهرة بيضاء طيبة الرائحة، وثمرته سوداء، ومنها ما هو أبيض كاللؤلؤ بين ورق كالزبرجد يباع مجموعاً بالرطل وبأغصانه من غير ميزان، ويحلو إذا أينع وعصارة ثمره رطبة تفعل فعل الثمرة، وهي جيدة للمعدة مدرة للبول موافقة إذا خلطت بشراب لمن عضته الرتيلاء[101] وللسع العقرب. وطبخ الثمر يصبغ الشعر.

وقال (ديسقوروس): الآس إذا دق ورقه وسحق وصب عليه ماء وخلط به شيء يسير من دهن ورد وتضمد به وافق القروح الرطبة والمواضع التي يسيل إليها الفضول، والإسهال المزمن،

[101] الرتيلاء: عنكبوت سامة.

والنملة والجمرة والأورام الحارة العارضة للانثيين والثدي، والبواسير، وإذا دق يابساً وذُرَّ على الداحس نفع منه، وقد يجعل في الآباط وهو بارد يابس.

وقال جالينوس: في السابعة هذا النبات من قوى متضادة، والأكثر فيها الجوهر الأرضي، وفيه مع هذا شيء حار لطيف، فهو لهذا يجفف تجفيفاً قوياً، وورقه وقضبانه وثمرته وعصارته ليس بينها في القبض كثير خلاف، لكنه يولد السهر، ورفع مضرته بالبنفسج الطري، ويصلح الأمزجة الباردة والله أعلم.

وما أحسن قول ابن طباطبا فيه:

الآس فرد بديع في محاسنه   ما مثله في معانيه بموجود

يبدو بأغصانه خضراء تلبسه   كألسن الطير تشوى بالسفافيد

وأنشدني فيه شيخنا المرحوم العلامة برهان الدين الباعوني الشافعي:

وروضة بانها يهتز من طرب

شبيه مرتشف من خمرة الكاس

يثني النسيم على الآس النضير بها

فهو العليل الذي يثنى على الآسي

وقال بعض المفسرين في قوله تعالى: »روح وريحان« إنه الآس، وهو باليونانية المرسين.

عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: أهبط آدم من الجنة بثلاثة أشياء: الآسة وهي سيدة الرياحين الجَنيَّة.

وتلطف سليمان بن محمد الطرابلسي بقوله:

أحبب بقضبان آس   في سائر الدهر توجد[102]

كأنها حين تبدو   سلاسل من زبرجد

---

[102] في النسخة المصرية »في سائر الزهر«.

وقال ابن حجة: تتبعت ما قيل في وصف الآس فلم أقف على ما أرضاني إلا قول القائل رحمه الله وأجاد:

خليليَّ ما للآس يعبق نشره
إذا شَمَّ أنفاس الرياح الهوا
حكى لونه أصداغ ريم معذر
وصورته الآذان قبل النوا

وقال:

وعوارض الآس أبدت في موشحها
نظماً بأغصانه للنبت خرجات
وقد حلا لي بأوراق ملوَّزة
وللملوز في الدنيا حلاوات

ونقل الحافظ أبو القاسم خلف بن عبد الملك بسنده عن الحسن رضي الله عنه قال: حيَّاني رسول الله (صلعم) بكلتا يديه بورد، فلما أدنيته من أنفي قال (صلعم): »إنه سيد رياحين الجنة بعد الآس«.

ويلحق به الريحان، وهو جنس تحته أنواع ترنجي، وحمامي، وطترى، وطراطر، وحمام. ونقل الشيخ جمال الدين محمد بن نباته في كتابه »سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون« عند ذكر كسرى أنو شروان أنه كان جالساً، وإذا بحيَّة قد دنت من عش حمامة في بعض شرف الإيوان لتأكل فراخها، فرمى الحية بسهم قتلها وقال: »هكذا نفعل بعدوّ من استجار بنا«، فلما كان بعد أيام جاءت الحمامة بحب في منقارها، فألقته إليه، فأخذه وقال: »ازرعوه« فنبت ريحاناً لم يكن رآه ولا عرفه. فقال: »نعم ما كافأتنا الحمامة. نسأل الله تعالى الذي ألهمها أن يلهمنا الإحسان إلى رعيته والشكر على نعمته«.

قال ابن وكيع في الريحان الترنجي:

لم أدر من قبل ريحان مررت به

أن الزمرد أغصان وأوراق

من طيبه سرق الأترج نكهته

يا قوم حتى من الأشجار سراق

ومن محاسن أبي القاسم بن العطار في الحمامي قوله:

أما ترى الريحان أهدى لنا حماحماً منه فأحيانا

نحسبه في طلِّه والندى زمرداً يحمل مرجانا

وأنشدني ذو الوزارتين الشهابي أحمد بن الخلوف في الريحان الطراطري:

وريحان نضيرٍ غضَّ جفناً

وأسبل فوق قامات ذوائب

حكت قضب الزمرد في إخضرار

وآثار الخضاب بكف كاعب

ومن غزل السري الرفا قوله في الريحان الحمام:

قضيب من الريحان شاكل لونه

إذا ما بدا للعين لون الزبرجد

تشبهته لما بدا متجعداً

عذاراً تبدى في سوالف أغيد

ومن مطرب أبي القاسم ابن العطار قوله:

أعددت محتفلاً ليوم فراغي

روضاً غدا إنسان عين الباغي

روض يروض هموم قلبي حسنه

فيه لكأس اللهو أي مساغ

وإذا انثنت قضبان ريحان به

جاءت بمثل سلاسل الأصداغ

وقال ابن عبد ربه:

وريحان يميس على غصون

يطيب بشمه شرب الكؤوس

كسودان لبسن ثياب خز

وقد شطحوا بها شيب الرؤوس

ونقلت فيه من خط ابن حجة قوله:

يقول ريحان روضي للنسيم وقد

تعطر الكون منه حين وافاني

سرقت نشري وهاديت الأنام به

وليس تحمل مني عود ريحان

وريحان هذا الذي استعمله ابن حجة أخذه ابن المعمار وهو:

لما تبدَّى عذار الحب قلت له

رفقاً ومهلاً عليه أيها الجاني

لا تخش شيئاً فما في الخد محتمل

بأن يحط عليه عرق ريحان

ويضارعه النمام. قال ابن الجوزي أنه حار يابس قوي التحليل لما في الدماغ من الفضول

البلغمية والصداع البارد.

ونقلت من خط البدر البشتكي قوله فيه:

إني أرى البستان فيه ثلاثة
عندي بها حسناته آثام
العين صافية به ونسيمه
واش وزهر رياضه نمام

ومن لطائف الصفي الحلي قوله فيه:

ومجلس راق من واش يكدره
ومن رقيب له باللوم إيلام
ما فيه ساع سوى الساقي وليس به
بين الندامى سوى الريحان نمام

ويعجبني قول ابن تميم:

ولم أنس إذ زار الحبيب بروضة
وقد غفلت عنا وشاة ولُوَّام
أقول وطرف النرجس الغض شاخص
إلينا وللنمام حولي إلمام
أيا رب حتى في الحدائق أعين
علينا وحتى في الرياحين نمام

ومن محاسن الشام شقائق النعمان. قال صاحب المفردات: في الثانية وهو صنفان: بري وبستاني. ومن البستاني ما زهره أحمر، ومنه ما زهره إلى البياض، وله ورق شبيه بورق الكزبرة

إلا أنه أدق تشريفاً، وساقه أخضر رقيق، وورقه منبسط على الأرض، وأغصانه شبيهة بشظايا القصب رقاق على أطرافها الزهر مثل زهر الخشخاش، وفي وسط الزهر رؤوس لونها أسود وكحلي إلى السواد، وأصله في عظم زيتونة أو أعظم. وأما البري منه فإنه أعظم من البستاني، وأعرض ورقاً وأصلب، ورؤوسه أطول وله زهر أحمر قانٍ، وفيه ما بعضه أحمر وبعضه أصفر، وله أصول دقاق كثيرة وهو أشد حرافة من غيره.

ومن الناس من لم يفرق بين شقائق النعمان البري وبين النبات الذي يقال له »أرغاموني«، وزهر الصنف من الخشخاش الذي يقال له رواس. وهو رمان السعال لتشابه لون زهرتهما في الحمرة. وهذا غلط، فإن زهر الأرغاموني وزهر الصنف من الخشخاش المسمى بالرواس أقل أصباغاً في الحمرة من شقائق النعمان. غير أن ظهورها في الزهر كظهور الشقيق. وقوى الشقيق حارة جاذبة فتاحة، وكذلك الشقيق إذا مضغ اجتذب البلغم، وعصارته تجلو الآثار الحادثة في العين عن القرحة، والاكتحال بها يسوِّد الحدقة ويمنع الماء النازل، ويحدر الطمث إذا احتملت به المرأة ويدر اللبن. وإذا خلط زهره مع قشور الجوز الرطب صبغ الشعر وقلع القوباء والله أعلم.

وفيه يقول الشريف الرضي:

جام تكوَّن من عقيق أحمر
ملئت دوائره بمسك أذفر
خطّ الربيع قوامه فأقامه
بين الرياض على قضيب أخضر

بلدينا العلاء بن أيبك الدمشقي قوله فيه:

وشقيقة حمراء ذات توقد
مطوية في اليوم تنشر في غد
فكأن حمرتها وحسن سوادها
خد الحبيب زها بخال أسود

وأنشدني فيه ذو الوزارتين صاحب الصناعتين الشهاب الخلوف:

خلت الشقيق وقد يرى في زرعه
شفقاً تقطع في سماء زمرد
وكأن أسوده إذا لاحظته
آثار كحل في لواحظ أرمد

ونقلت من خطه وأنشدنيه:
ما للشقائق إذ أبدى الربا زهراً
يفترُّ عن مبسم كالدر منتضد
اسودّ باطنها من نوره حسداً
حتى الشقائق لا تخلو من الحسد

وأنشدني ونقلت من خطه:
وروضة أنُف أبدى الغمام بها
شقائقاً شكلها يبدي لمن رمقا
غيرى بكت وأبانت شعرها وذوت
فضل النقاب وأدمت خدها حنقا

ونقلت من كتاب »خمائل العطار« للدنيسري أحمد العطار قوله:
كفى الروض حسناً أن بين زهوره
شقيقة نعمان تلوح وتبتدي
كجام عقيق وسطه قرص عنبر
وخدٌ به خال ومقلة أرمد

ونقلت من خط ابن حجة قوله:

سألت الشقيق الغض عن نقطة بدت

على خده والروض منها تعطرا

فقال سواد المسك هام بوجنتي

وقد أكثر التقبيل فيها فأثرا

وقال أيضاً التقوى ابن حجة:

انهض إلى جنة روض زاهر

لا يعتريك في مقالي شك

وانظر إلى كأس شقيق ملئت

رحيق طل والختام مسك

ونقلت من خط القاضي بدر الدين الدماميني المالكي الإسكندري:

سوادك يا زهر الشقائق قد زها

بحمرة أوراق يروق سناؤها

يحاكي قلوباً بالصدود تسوَّدت

وجرَّحها لحظ فسالت دماؤها

ومن بديع اكتفائه قوله:

شقائق النعمان ألهو بها

إن غاب من أهوى وعز اللقا

والخد في القرب نعيمي وإن

خاب فإني أكتفي بالشقائق

ومن غزل ابن منقذ قوله:

ألا عجب صاغ الربيع من الزهر

مداهن تبر لم يصغن من التبر

شقائق في أغصان تبر كأنها

خدود بدت فيها عوارض من شعر

ومن غزل ابن وكيع:

شقيقة جاءتك من روضة

يقصِّر عنها كلٌّ مشموم

سوادها في صبغ محمّرها

كشامة في خد ملطوم

وقال بعضهم:

وبين الرياض الجون زهر شقائق

مطاردها حمر أسافلها سحم

كما طرحت في الفحم نار ضعيفة

فمن جانب جمر ومن جانب فحم

أخذه ظافر الحداد الإسكندري:

وللشقائق جمر في جوانبه

بقية الفحم لم يستره باللهب

وما أرشق قول ابن رشيق:

رأيت شقيقة حمراء باد

على أطرافها لطخ السواد

يلوح بها كأحسن ما تراه

على شفة الصبي من المداد

وقال آخر:
شامتك السوداء يا قاتلي

في خدم الأحمر تحكي الشقيق

شقت قليبي مع سويدائه

فصار قلبي في هواها شقيق

وقال الميكالي وأبدع:
تصوغ لنا كف الربيع حدائقاً

كعقد عقيق بين سمط لآلي

وفيهن نوّار الشقيق وقد حكى

خدود عذارى نقِّطت بغوالي

ومن محاسن ابن حمديس الصقلي قوله:
ولم تر عيني بينها كشقائق

تبلبلها الأرواح في الورق الخضر

كما مشطت غيد القيان شعورها

وقامت لرقص في غلائلها الحمر

قوله:
وترى شقائقه خلال رياضها

أوفت مطاردها على أزهارها

فكأنها والريح يصقل خدها

والسحب تملأها بماء نضارها

أقداح ياقوت لطاف أترعت

راحاً فبات المسك حشو قرارها

وكأنها وجنات غيد أحدقت

بخدودها حمرا خطوط عذارها

ونقلت من خط الجمالي علي بن الكمالي ظافر الخزرجي من كتابه »التشبيهات«:

انظر إلى حسن شقيق الربا

تنظر إلى ما يحمل الزهرا

من كل حمراء بها نقطة

سوداء طابت بيننا نشرا

كمثل خد فوقه شامة

مسودة قد أنبتت شعرا

أو قطعة المسك إذا ألقيت

في وسط كأس ملئت خمرا

ومن مخترعاته قوله:

ولاح لنا زهر الشقائق تابعاً

كمثل زنوج ضرجتها دماؤها

ومن دقائق ابن وكيع قوله:

قم فاسقني يا رفيقي من السلاف الرحيق

أما ترى الطل يحكي على احمرار الشقيق

لآلئاً ضمنتها مداهن من عقيق

وأحسن منه:

والشمس لا تشرب خمر الندى

في الروض إلا بكؤوس الشقيق

ومن أهاجي جمال الدين الخزرجي قوله:

إني لا بغض في الشقائق منظراً

سمجاً لأن أديمه لون الدم

فكأنما هي جرح طعنة أسمر

قد شُدَّ أوسطها بقطعة مرهم

وقال أبو النصر سالم بن سعاد الحمصي في الشقيق والنرجس:

وروض أريض من شقيق ونرجس

لنَوريهما من تحت قضب الزبرجد

خدود عقيق تحت خيلان عنبر

وأجفان درٍ تحت أحداق عسجد

ومن بليغ الأرجاني قوله:

لما تباشر أصباحاً شقائقها

بانت وكانت قمصها حمرا

ردت على رأسها الأذيال من طرب

لجعلهن على من بلغ الخبرا

وقال الصنوبري في الورد والشقيق:

قد أحدق الورد بالشقيق فاشرب عقيقاً على عقيق

كأنه حوله وجوه مستشرفات على حريق

وقال أبو نصر في الشقيق والسوسن:

وروضة زهرها عند الصباح غدا

يدعو الندامى إلى شرب بتغليس

شقائق مثل أعراف الديوك بها

وسوسن مثل أعراف الطواويس

وقال القاضي عياض رحمه الله تعالى:

انظر إلى الزرع وجمَّاته

تحكي وقد هبت عليها الرياح

كتيبة خضراء مهزومة

شقائق النعمان فيها جراح

ومن محاسنه قوله فيه:

شقيقة شق على الورد ما

قد كسيت من خالص الصبغ

كأنها لما بدت وجنة

قد بان فيها طرف الصدغ

ومن محاسن الشام النيلوفر. وهو أصفر وأزرق وبنفسجي وأحمر. قال ابن الأثير في عجائبه يسمى »حب العروس«. وهو نبات هندي وأكثر ما ينبت بنفسه في مستنقعات الماء وراكدها، ولا

ينبت إلا في الماء العذب الواقف من أرض طيبة، ومن شأنه أنه يحوّل وجهه إلى الشمس إذا طلعت، ويزيد انفتاحه بزيادة علو الشمس، فإذا أخذت الشمس في الهبوط أخذ في الانضمام حتى يكمل انضمامه عند غيبوبة الشمس ويغطس في الماء. ويقال إن طائراً لطيفاً يدخل في الزهر، وينضم عليه، ويغيب في الماء ليله، فإذا أصبح طلع وتفتح فيخرج الطير.

وهو بارد رطب مسكن للصداع الحار، ويكسر شهوة الجماع، وينفع من الاحتلام إذا شرب منه درهم بشراب الخشخاش، ويجمد المني. قال ابن البيطار: في الرابعة هو نبات له ورق شبيه بورق القلقاس إلا أنها أرق، واسمه فارسي معناه النيل، له أجنحة تنبت في المياه الراكدة والآجام، وورقه من أصل واحد. وقال ابن الجوزي: شبه البنفسج في قوته ومنفعته، إلا أنه أبرد وأرطب يذهب وجع الأسنان إذا استعمل مضغة، وينقي السواد والبلغم، وأنفعه الأصفر، وهو من خواص الشام.

وفيه يقول المطوعي وأبدع:

وبركة حفت بنيلوفر
قد جمعت من كل لون عجيب

كأن نيلوفرها عاشق
نهاره يرقب وجه الحبيب

حتى إذا الليل دنا وقته
وانصرف المحبوب خوف الرقيب

أطبق جفنيه عسى في الكرى
ينظر من فارقه عن قريب

وقال فيه:

خناجر من حناجر ترعت
وهي على الماء من دم حمر

ومن لطائف الباخرزي قوله فيه:

اشرب على بركة نيلوفر

مخضرة الأوراق حمراء

كأنما أزهارها أخرجت

ألسنة النار من الماء

ومن تشابيه ابن حمديس الصقلي قوله:

ونيلوفر أوراقه مستديرة

تفتح فيما بينهن له زهر

كما اعترضت خضر الفراش وبينها

عوامل أرماح أسنتها حمر

ومن مقاصده قوله فيه:

لا تغفلن عن الصبوح وقم بنا

ننعم بطيب لذاذة للأنفس

في بركة تبدي لنا نيلوفرا

خضلاً تضاحكه عيون النرجس

كأسنة من فضة قد خضَّبت

بدم ولفَّت في عصائب سندس

ومن محاسن ابن سحنون خطيب النيربين قوله:

يا حسنه نيلوفراً في مائه

طافٍ وفي أحشاه نار تسعر

يحكي أنامل غادة مضمومة

جمعت وزيَّنها خضاب أخضر

ومن غراميات عبد الجليل بن دهبول قوله:

وبركة تزهز بنيلوفر نسيمه أشبه ريح الحبيب

حتى إذا الليل دنا وقته ومالت الشمس لحين المغيب

أطبق جفنيه على إلفه وغاص في الماء حذار الرقيب

ومن تشابيه ابن تميم قوله:

ونيلوفر كالزهر شكلاً ومنظراً

محاسنه فيها اللواحظ ترتع

وكلٌ نجومٌ لكن الفرق أنها

تغيب صباحاً وهي في الصبح تطلع

وقال فيه:

وناظر نحو عين الشمس يرقبها

حتى إذا غربت أغضى بتنكيس

كأنه ودروع الماء تشمله

تحت الشعاع أكاليل الطواويس

ومن بدائعه قوله[103]:

نيلوفر النيل قد أبدى تلونه

---

[103] وفي نسخة: ونقلت من خط التقوي بن حجة وأجاد ثم أفاد بقوله.

واحمرَّ وازرقَّ من شاميِّنا وشكا

قلنا له ذاك لون واحد وبه

يسمو وأنت بليد وهو فيه ذكا

وقال فيه:

ونيلوفر حاكى النجوم جهالة

ولم يدر أن الزُّهر[104] يعنو لها الزَّهر

فلما بدا في الليل نكَّس رأسه

حياً[105] واختفى في الماء حتى بدا الفجر

ومن بدائعه قوله:

ونيلوفر يحكي النجوم وماؤه

يحاكي سماء لا يغايرها وصفا

يغيب كما غابت ويبدو كما بدت

ويشبهها شكلاً ويفضلها عرفا

ومن مقاصده قوله فيه:

يا حسن نوفرة[106] صفراء حين بدت

أبدت محاسنها عن منظر عجب

كأنها حية في الماء سابحة

يبدو على رأسها تاج من الذهب

---

[104] الزُهر: النجوم.

[105] حياءً.

[106] قال الزبيدي في التاج إن العوام يسمون النيلوفر »نوفر« كجوهر.

أحمد بن الخلوف رحمه الله تعالى:

ونيلوفر شبهته في غديره

بقايا سلاف في كؤوس زجاج

تمثل أذناب الطواويس إذ غدا

يموّه بالياقوت صفحة عاج

بلدينا العلاء بن أيبك الدمشقي قوله:

يا حسنه في بركة قد أصبحت

محشوّة مسكاً يشاب[107] بندّه[108]

وكأنه إذ غاب عند مسائه

في الماء واحتجبت نضارة قده

صبٌّ تهدده الحبيب بهجره

ظلماً فغرَّق نفسه من وجده

وقال الأمير مجير الدين محمد بن تميم فيه:

لما حكى زهر الكواكب نوفر

وأقام وهو على المطال حريص

خاف الحريق وقد رمته بشهبها

فلذاك أمسى في المياه يغوص

وقال فيه:

---

(107) يشاب: يخلط.

(108) بنده: بعطره.

نيلوفر (غض) تلبس ماءه يوماً وتاه على النجوم بذوبه

لحظته أعينها فنكّس رأسه خجلاً وغاص من الحيا في ثوبه

ومن محاسن الشام البان. قال ابن البيطار: شجره يسمو ويطول في استواء، وخشبه خوّار خفيف، وقضبانه سمجة خضر، وهدبه ينبت في القصب، وهو طويل أخضر شديد الخضرة، وثمرته تشبه قرون اللوبيا إلا أن خضرتها شديدة، وفيها حب فإذا انتهى انفتق وانتثر حبه، وهو أبيض أغبر نحو الفستق، ومنه يستخرج دهن، ويقال لثمره السوع[109] وهو مربع ويكثر على الجدب، وإذا أرادوا طبخه رضّ على الصلاية وغربل حتى ينعزل قشره ثم يطحن ويعتصر، وهو كثير الدهن، ودهنه ينفع من الكلف والنمش ومن الجرب والحكة والعلة التي يتقشر معها الجلد، ويلطف صلابة الكبد والطحال، وماؤه يستخرج في شهر كانون الثاني، يشد القلب، وخشبه يعمل منه الخلالات، وهو عطر الرائحة.

الشاب الظريف محمد بن العفيف التلمساني رحمه الله:

تبسم زهر البان عن طيب نشره

وأقبل في حسن يجل عن الوصف

هلموا إليه بين قصف ولذة

فإن غصون البان تصلح للقصف

ومن لطائف ابن قرناص قوله:

مذ أقبل الصيف وولى الشتا أذهب عني البرد والقرَّا

أما ترى البان على غصنه قد قلب الفرو إلى برا

ومن أغراض ابن تميم قوله:

يا هاجراً روضاً لأجل البان إذ ولّى به والورد فيه مصان

---

[109] في مفردات ابن البيطار «الشوع» وفي كتب اللغة «السياع» كسحاب.

أرأيت روضاً شب فيه ورده ينسى إذا ماشاخ فيه البان

ومن محاسن الشام »قف وانظر«. قال ابن البيطار: هذا من خواص »دمشق«، وما والاها من أرض الشام، ويعرف بالآس البري. وهو نبات له ورق شبيه بورق الآس البستاني، إلا أنه أعرض منه، وفي طرفه حد شبيه بطرف سنان الرمح، وله ثمرة مستديرة في وسط الورقة بعرق أخضر يشبه الشريط، وإذا أنضجت كان لونها أحمر كالمرجان، وفي جوفه حب صلب وله قضبان شبيهة بقضبان النبات الذي يقال له لوقس كثيرة مخرجها من أصل واحد، طولها نحو من ذراع بواحد مملوءة ورقاً (وأصله شبيه بأصل النبات الذي يقال له اعرسطس إذا ذيق كان[110]) عفصاً مائلاً إلى المرارة، وورق هذا النبات وثمره إذا شربا بالشراب أدرا البول، وفتتا الحصاة، وأدرا الطمث، وقد يبرئ اليرقان وتقطير (البول) والصداع، وينبت في مواضع خشنة وأجراف قائمة.

وأما تمر الحنا فإنه يطلع خارج البلد في الغور، وفي الأرض الحارة من قرى الشام، ويعمل منه دهن. وفيه يقول السراج الوراق:

ودوحة تامر لما تبدت كأذناب الثعالب في المثال

عليه دق كافور سحيق تضمخ بالمسوك وبالغوالي

ومن تشابيه تاج الدين الكندي فيه:

ودوح رياض كلما استقطر الندى أعار بسيط الأرض ثوب ظلال

ترى تمر الحناء فيه كأنه أكف عذارى في شباك لآلى

وأنشدني فيه الشيخ علاء الدين علي البلاطنسي الشافعي:

سابق إلى رشف الطلا بحديقة

---

[110] هذه الزيادة من مفردات ابن البيطار في مادة (آس بري).

فيها خدود قد زهت وثغور

قد خلت فيها تمر حناء غدا

شبه الكفوف إلى المدام يشير

ومن محاسن الشام الحيلاني وهو شجر يشبه الصفصاف غير أنه في أوائل الربيع تصبغ جميع أغصانه بالأحمر كقضبان المرجان وله رؤية بديعة.

وفيه يقول الشيخ صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي:

لنا حيلانة قد حالفتنا

تسر بها الخواطر والعيون

فقلت لصاحبي لما تبدت

متى نبتت من الشفق الغصون

ويلحق به شجر الزنزلخت وله زهر طيب الرائحة يخرج في أيام الورد. وفيه يقول مؤلفه البدري:

وزنزلخت أبيض مع أحمر في غصن

كالدر والياقوت أو ثياب خام يمني

وكذلك شجر السرو، فإن رؤيته حسنة، وأكثر ما يوجد بدمشق.

وفيه يقول أحمد بن وضاح:

أيا سرو لا يجتزْ منابتك الحيا

ولا بُزَّ عن أغصانك الورق النضر

وقد كسيت أعطافك الملد مثلما

تُلَفُّ على الخطي راياته الخضر

وأنشدني ذو الوزارتين أحمد الخلوف التونسي المالكي:

وسروة شق النسيم رداءها
فأبدت فصوص التبر في الحلل الخضر

كزنجية ماست بغنج وشمرت
عن الساق ذيلاً واكتست حلة الشعر

إذا سقيت كأس الهنا قضب سوقها
أمالت رؤوساً لا تمل من السكر

ونقلت من خطه وأنشدنيه:

وسرو كزنج شمروا الذيل إذ غدوا
يهزهم خفق الربابة للطرب

إذا مشطت أيدي النسيم فروعها
ترى حللاً خضراً تزرَّر بالذهب

وفيه من رسالة القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر قوله: »والأغصان قد اخضر نبت عارضها، ودنانير الأزهار ودراهمها تهيأت لتسليم قابضها، والحور قد حاور السهى بالتباشير، والسرو قد كشفت عن سوقها وقالت لها الغدران بهديرها أنه صرح ممرد من قوارير«.

وأنشدني شيخنا العلامة بقية السلف إبراهيم الملاح:

ولما رأيت السرو في الروض مائساً
وأيدي الهوا فيه تزيد وتنقص

حسبت رفاعياً أتى قاعة الهنا
واسبل فيها شعره وهو يرقص

قلت: وجميع هذه المحاسن بالحواكير، غير أن الماء لا يصل إليها إلا بجهد كبير، لعلوها عن

»نهر يزيد«، فاصطنعوا لها الدولاب ودورانه بكل بهيم شديد، وفيه يقول ابن لؤلؤ الذهبي:

حاكورة دولابها إلى الغصون قد شكا

من حين ضاع زهرها دار عليه وبكى

ودار في دولابه الصلاح الصفدي حيث قال:

أبدى لنا الدولاب قولاً معجبا

لما رآنا قادمين إليه

إني من العجب العجيب كما ترى

قلبي معي وأنا أدور عليه

والأصل فيه قول ابن تميم فيه:

تأمل إلى الدولاب والنهر إذ جرى

ودمعهما بين الرياض غزير

وضاع النسيم الرطب والروض منهما

فأصبح ذا يجري وذاك يدور

ومن معاني ابن دمرداش قوله فيه:

ولرب دولاب سقى دوح الحمى

فأعادها سكرى على الإطلاق

وجدت كوجدي بالهوى فخمارها

مثلي وحقك من عيون الساقي

ومنه قول الشهاب الخفاجي:

حالة الدولاب دلّت أنه في فرط حزن
كان يسقى ويغنى صار يسقي ويغني

ونقلت من خط أحمد بن صالح قوله:

دولابنا صبٌ طليق دمعه
مأسور حب قلبه وضلوعه
يبكي على فقد الأحبة ناثراً
من بعدهم جهد المقلّ دموعه

ومن لطائف ابن تميم قوله:

ودولاب روض كان من قبل أغصنا
تميس. فلما فرقتها يد الدهر
تذكر عهداً بالرياض فكله
عيون على أيام عهد الصبا تجري

ومن معاني الأسعدي قوله:

شاهدت دولاباً له أدمع
تكفلت للروض بالري
فأعجب له من فلك دائر
ما فيه برج غير مائي

ومن محاسن الشام أرض »المزّة واللوان«. فإن حكماء اليونان لما رأوا الجانب الشمالي يصلح لزراعة الأزهار، ورأوا طيبة أرض الجانب القبلي اختاروها لغرس الأشجار.

فمنه المشمش، وهو أحدٌ وعشرون صنفاً بدمشق: حموي، سندياني، أويسي، عربيلي، خراساني، كافوري، بعلبكي، لقّيس، لوزي، دغمشي، وزيري، كلابي، سلطاني، حازمي، أيدمري، سنيني، بردي، ملوح، فراط النجاتي، جلاجل القلوع.

قال جالينوس في السابعة وهي ثمرة باردة أحسن من الخوخ، وأجود منه لكونه لا يفسد كما يفسد الخوخ في المعدة ولا يحمض. وإذا أكل المشمش بعد الطعام فسد وطفا في رأس المعدة، وإن كان فيها فضل رديء استحال إلى طبيعة ذلك الفضل، فلا يؤكل إلا قبل الطعام ويشرب فوقه السكنجبين.

وقال ديسقوريدوس: في الأولى له طعم أحسن من طعم الخوخ، وأجود للمعدة، ويسهل الصفراء، ويولد خلطاً عظيماً غليظاً.

وقال الرازي في »الحاوي«: أتأني رجل أبخر، فحدست أن المشمش يذهب بخره، فأطعمته من رطبه، فذهب البخر. ثم كان يستعمل نقيعه دائماً، فلا أحسب أنه يوجد شيء اشد للتبريد منه. وقال أيضاً في كتابه »دفع المضار« أنه يبرد المعدة جداً، ويورث الجشأ الحامض، ويقمع الصفراء والدم، ولا سيما إن كانت معه أدنى مرارة، وينبغي أن يجتنبه من تكثر به الرياح، ومن يسرع إليه الجشأ الحامض، وإذا أخذ عليه الشراب الصرف والجوارشن الكموني والكندري نفعه. فأما أصحاب المعدة الحارة والجشأ الدخاني والعطش الدائم فكثيراً ما ينتفعون به، ولا سيما في يوم بعد يوم ويوم يمسهم فيه حر وعطش، ولا ينبغي أن يشرب عليه ماء الثلج. ويؤخذ لمن يكثر من أكله الأهليلج ثم بزر الرازيانج والسكر ليؤمن بذلك من المائية التي تتولد عنه في الدم، فإنها تتعفن على الأيام وتهيج الحميات إن لم تتدارك بما قلناه، إلا أن يكثر من التعب حتى يجري منه العرق الكثير وتصيبه هيضة قوية أو يُدمن شراباً قوياً يغزر عليه بوله وعرقه. وأقل ضرراً من جميع أصناف المشمش الحموي لرقة حاشيته، وحسن طعمه وحلاوته وعطر رائحة نواره.

وفيه يقول جحظة:

ومشمش زهره كالزهر مشرقة

بحسن ما فيه من نَور ومن نُور

كأن محمره في وسط أبيضه

حكى عقيقاً على جامات بلور

وقال ابن سينا المشمش له نور أبيض مسدس مخضب بالحمرة عطر الرائحة، ثم يعقد مع إخراج الورق كاللوز الأخضر بقلب أبيض ويخشب ويطبخ منه الطعام المعروف بالمشمشية، ثم يصفر ويأخذ في الإنضاج حتى ينتهي فينشف ويحمل منه إلى البلاد.

وفيه يقول محمد بن عطية بن حنان الكاتب القيرواني:

ومشمش ما بدا يوماً لذي بصر
إلا وأصبح بين العجب والعجب
كأن مخبرة وصفا ومنظره
شهد تكنَّفه قشر من الذهب

ومن تشابيه ابن وكيع قوله:

بدا مشمش الأشجار فيها كأنه
يلوح على تلك الغصون الموائل
قباب بمحمر الذبائح ضرجت
وقد زينت من عسجد بجلاجل

ونقلت من خط الشرف القواس الدمشقي:

خلت في الروض مشمشاً جاء في الحمل بالعجبْ
كسماً من زبرجد بنجوم من الذهب

ومن محاسن بلدينا العلائي بن أيبك:

ومشمش جاءني من أعجب العجب
اشهى إليّ من اللذات والطرب

كأنه في هبوب الريح تنشره

بنائق خرطت من خالص الذهب

ومن تشابيه الصلاح الصفدي قوله:

بدا مشمش الأشجار يذكي شهابه

على حسن أغصان من الدوح مُيد

حكى وحكت أشجاره في اخضرارها

جلاجل تبر في قباب زبرجد

ومن لطائف ابن تميم قوله وقد أهداه لبعض أصحابه:

أمولاي عز الدين يا من جميله

إلى قاصديه ما عليه عيار

جسرت وقد أهديت نحوك مشمشاً

وذلك شيء ما عليه غبار

وما كان هذا لونه غير أنه

علاه لخوف الردّ منك صفار

ومن محاسن الشام القراصيا: وهي سبعة أصناف: رشيدية، بعلبكية، إفرنجية رومية، طعامية، بزرة، وفيجية – نسبة لقرية عين الفيجة، وهي تحمل منها إلى السلطان بالديار المصرية، وأحسنها البلدية المنسوبة لواد مكرم، وهو بين الربوة إلى تحت صحن المزة.

قال ضياء الدين بن البيطار: القراصيا أنواع، فمنها الحلو والمر والعفص والحامض. فالحلو منه حار رطب في الدرجة الثانية ينحدر عن المعدة سريعاً، ويثير التخم، ويرخي المعدة، ويستحيل مع كل طبع، وإذا أكل أسهل البطن وليَّن الطبيعة، ولا سيما إذا ابتلع بنواه، وهو مع ذلك يزيد في الإنعاظ.

وقال إسحاق بن عمران: خلط القراصيا غليظ مزلق فاسد الغذاء يولد السوداء، وحامضه الذي لم يطب قاطع للعطش عاقل للبطن.

وقال ديسقوريدوس: في الأندلس حبُّ الملوك وفي بلاد الروم الكراز. وهي شجرة معروفة أغصانها سبطة مشوبة بحمرة، ولها ورق أطول من ورق المشمش، ولها ثمرة شبيهة بحبة العنب في التدوير، تتدلى في شيء شبه الخيوط الخضر اثنان اثنان في الغالب وأزيد من ذلك، ولونها أحمر، ومنها ما يكون أسود وأشقر، وفيها ما هو منصبغ ببعض حمرة.

وهو في الأولى، وإن استعمل رطباً ليَّن البطن، وإن استعمل يابساً أمسك البطن، وصمغه – إذا خلط بشراب ممزوج بماء – يبرئ السعال ويحسن اللون، ويحد البصر، وينهض الشهوة، وينفع من به حصاة.

وقال جالينوس: في السابعة وفيه قبض، ولكن ليس هو سواء والحامض أكثر قبضاً، وينفع المعدة البلغمية المملوءة فضولاً لأن الحامض يجفف أكثر من تجفيف العفص والحلو. وصبغ هذه الشجرة فيه من القوة العامة الموجودة في جميع الأدوية اللزجة التي لا تلذع معها، فهي كذلك نافعة من الخشونة الكائنة في قصبة الرئة، وإذا شربت بشراب نفعت صاحب الحصاة لأن فيها قوة لطيفة.

وطعام القراصية نافع ولذيذ ومسهل والله أعلم.

وفيه يقول مؤلفه رحمه الله:

كأنما القراصيا لما بدت للنظر
حبة مرجان ترى في رأس خيط أخضر

وله أيضاً:

تحكي القراصيا وقد لاحت بعرق نضر
كنجمة في شفق بدت بذيل أخضر

وله أيضاً:

إن القراصية التي		زهت بلون مورد
كعقيقة حمرا بدت		بعلاقة تحكي الزبرجد

ومن محاسن الشام الكمثرى. وهو باليونانية الإنجاص وهو أصناف: عثماني، عيلاني، خلاني، سمرقندي، صيني، ملكي، صقلاني، مغاربي، يبرودي، رحبي، درسي، قناديلي، خنافسي، معنق، دهمروري، عريب، بعلبكي، ماوردي، عقرباني، شتوي، صيفي، سكري، قهلي.

قال ابن سينا: وفي بلادنا نوع من الكمثرى يقال له شاه أمرود كبير الحجم شديد الاستدارة رقيق القشرة، حسن اللون وكأنه ماء سكر، منعقد جامد، يميل إلى الصفرة، يتكسر للجمود لا لغلظ الجوهر، طيب الرائحة جداً، إذا سقط عن شجره اضمحل، وهذا مما لا مضرة فيه ولا يحمل من بلده وهو معتدل رطب.

وقال جالينوس: ورق الكمثرى وأطرافها قابضة، فأما ثمرتها ففيها مع قبضها حلاوة ومائية. وأجزاء هذه الثمرة ليست متساوية المزاج، وإن منها ما هو أرضي ومنها ما هو مائي. وإن شئت قلت من وجه آخر بعضها بارد وبعضها معتدل المزاج. من أجل ذلك متى أكل الكمثرى قوّى المعدة وسكّن العطش، ومتى وضع كالضماد جفف وجلا جلاء يسيراً، وبهذا السبب أعلم أني قد أدملت به جراحات عندما كنت لا أقدر على دواء آخر.

والكمثرى البري أكثر قبضاً وتجفيفاً من سائر الكمثرى، فهو لذلك يدمل ما هو من الجراحات ويمنع المواد من التحلب.

وقال »ديسقوريدوس«: في الأولى الكمثرى وهي أصناف كثيرة وكلها قابض، ولذلك يستعمل في الضمادات المانعة من مصير المواد إلى الأعضاء. وإذا أخذ أو شرب طبيخه بعد أن يجفف عقل البطن، وإذا أكل الكمثرى والمعدة خالية أضر بآكله. وورقه أيضاً قابض، ورماد خشبه قوي المنفعة للذين يعرض لهم خنق من أكل الفطر، وهو ما يظهر بأرض الشام على ضرب الكمأة. وقد قال قوم أنه إذا طبخ الكمثرى البري مع الفطر يمرض آكله.

واعترض إسحق بن عمران على قوله في أن الكمثرى إذا أكلت على الريق تضر بآكلها، ولم يخبر بالسبب في ذلك، ولا أي الكمثرى يفعل ذلك. فأقول أنه ذمَّ الكمثرى على الريق إذا أخذ على سبيل اللذة والغذاء لا على سبيل الحاجة والدواء، وخاصة إذا كان عفصاً أو قابضاً، وإن كان

العفص أخص بذلك لأن من خاصيته أن الإكثار منه يولد النفخ، فإذا أخذ على خلاء المعدة تمكن من جرمها وقام فعله فيها ولم يؤمن على صاحبه مع الإدمان عليه أن يورثه قولنجاً يعسر انحلاله. فأما على سبيل الحاجة للدواء، فإن استعماله على الريق لا محالة أفضل، لأن استعماله بعد الطعام مطلق وزائد في ضعف المعدة، لأنه بإفراط قبضه يجمع أعلى المعدة وتقهر القوة الممسكة التي في أسفلها. وأما العفص من الكمثرى فهو أقل غذاء، وأقطعها للإسهال والقيء المراري، وأشدها مئونة للمعدة والأمعاء، لأنه لإفراط خشونته وغلظ جسمه، وبعد انقياده مضر بعصب المعدة جداً. ولذلك وجب أن يتلطف له بما يرخي جسمه ويزيل غلظه ويلين خشونته مثل سلقه في الماء أو تعليقه على بخار الماء حتى ينضج أو يلبس عجيناً ويشوى ويربى بسكر الطبرزد أو عسل على حسب مزاج المستعمل له.

وقال البصري: الكمثرى الحلو بارد في الأولى، يابس في الثانية، والصيني منه بارد في الدرجة الثانية رطب في الدرجة الأولى، وفيه عطرية وقبض وتقوية القلب والتفاح خير منه.

وقال اسحق بن عمران: الحامض منه دابغ للمعدة مدر للبول مشهٍ للأكل.

وقال بقراط: ما كان من الكمثرى صلباً فهو يبرد، ويجفف ويعقل البطن، وما كان ليناً نضيجاً حلواً فهو يسخن ويرطب ويطلق البطن.

قلت وخالف البصري في قوله: »والكمثرى ألذّ من التفاح وما يتولد منه في البدن أحمد مما يتولد من التفاح وهو أسرح انهضاماً«.

وقال الرازي في »الحاوي«: الخالصُ من الحلاوة من الكمثرى لا يبرد، وأكله يعقل البطن إلا أن يؤكل بعد الطعام فيسرع بإحدار الثقل ثم تكون عاقبته عقل البطن. والصيني أقل ماء وأقوى فعلاً وأشدها عقلاً وأكثرها في تسكين العطش.

وقال في كتابه المسمى بدفع مضار الأغذية: الكمثرى كثير النفخ بطيء الانهضام. وينبغي أن يحذره من يعتريه القولنج، ولا يشرب عليه ماء بارداً ولا يأكل بعده طعاماً غليظاً، وإذا أكل منه فليكن على جوع صادق، وليطل النوم بعده ويشرب عقيبه شراباً عقيقاً صرفاً أو يأخذ عليه زنجبيلاً مربى، ثم يجعل أدامه في ذلك اليوم مرقة اسفيدباجة أو مرق مطجنة، ويدع لحمها ولا يتعرض للمشوي، وإن أكل مع السمين المهري بالطبخ لم يضره ذلك، والكمثرى مقو للمعدة ضار

للمبرودين، ومن يعتريه القولنج وشره أفجُّه وأقله حلاوة. ونوار الكمثرى أبيض مستدير مشرق، أكبر من نوار الخوخ وأعظم رائحة. والله أعلم.

وفيه يقول عبد الله بن برغش:

وكمثرى تراه حين يبدو
على الأغصان مخضر الثياب
كثدي خريدة أبدته تيها
له طعم ألذ من الشراب

وما أرشق قول ابن رشيق فيه:

نظرت إلى البستان أحسن منظر
وقد حجب الأغصان شمس المشارق
به زوج رمان يلوح كأنه
قناديل تبر محكمات العلايق

ومن تشابيه صرَّدرّ قوله فيه:

حيِّ بكمثراية لونها
لون محب زائد الصفره
تشبه نهد البكر إن أقعدت
وهي لها إن قلبت سره

ومن محاسن الشام التفاح. وهو بدمشق أصناف كثيرة فلنذكر بعضها: سكري، مسكي، فتحي، صيني، شتوي، بلدي، صيفي، قاسمي، فاطمي، قحابي، فضي، حديثي، جناني، حرستاني، لبناني، حلواني. دهشاوي، اخلاطي، بريري، نبطي، ماوردي، بطيخي، مجهول.

قال البصري: نواره أشبه شيء بأزرار الورد عند ظهوره ثم يفتح مع إخراج ورقه برائحة طيبة الشذا.

وفيه يقول ابن عمار:

وزهر تفاح أضحى الغصن منتظماً
كأنه لؤلؤ يبدو وياقوت
وللرياض على أرجائها أرجٌ
كأنَّ فيه زكي المسك مفتوت

قالت الحكماء: جسم التفاح صديق الجسم، وريحه صديق الروح.

وقال جالينوس: في السابعة ومنه ما هو حلو، ومنه ما فيه عفوصة، ومنه ما فيه قبض، ومنه حامض، ومنه ما بين الحموضة والحلاوة مسيخ الطعم، وما كان منه على هذه الأوصاف فالأغلب عليه طبيعة الماء يكون مزاجه أبرد وأرطب معاً، وأما الذي فيه عفوصة فالأغلب عليه المزاج الأرضي البارد، وأما القابض منه ففيه هذا الجوهر المائي البارد، كما أن في الحلو منه جوهراً مائياً معتدل المزاج. وكذلك يمكنك أن تستعمل منه ما هو أشد قبضاً وأكثر حموضة في إدمال الجراحات وفي موضع ما يتحلب في ابتداء حدوث الأورام الحارة إلى موضع الورم، وفي تقوية فم المعدة عند استرخائها، ويستعمل منه ما هو مسيخ الطعم ولا طعم له – كالماء – في مداواة الأورام التي هي في ابتدائها أو التي في تزايدها وفي جميع التفاح رطوبة كثيرة باردة، ومما يدلك على ذلك أنه ليس منه ولا واحد تبقى عصارته، بل جميعه إذا عصر فسد عصيره خلا السفرجل فإن عصارته تبقى. واليونانيون يدخلونه في عداد التفاح المسمى نيطروما فإن هذين النوعين لشدة قبضهما ليس فيهما من الرطوبة إلا اليسير، وأما تلك الأنواع من التفاح فكلها إن طبخت عصارتها مع العسل صار منها ربٌّ[111] يبقى، وإن تركت وحدها لم يبق.

وقال الرازي: التفاح مقوٍّ لفم المعدة، موافق للمحرورين إلا أنه بطيء الهضم، وينفخ، ولا سيما الحامض، وكذلك ينبغي أن لا يشرب عليه من يجد منه ثقلاً في معدته ماء بارداً ولا يأكل عليه طعاماً حامضاً، بل يشرب عليه الشراب ويأكل كل أمراق المطجنات.

وقال الحكماء إن من خاصيته توليد النسيان ويكسل. وإذا أخذ اليسير منه نفع من الوسواس السوداوي. وأكل التفاح يحدث الخلط في البراز وشمه يقوي الدماغ والنفس. والله أعلم بالصواب.

---

[111] ربٌّ: ربى، معقود.

وفيه يقول الزين الخراط في جارية أهدى إليها تفاحة:

وعذراء أهديتُ تفاحة إليها فقالت تفكه بشاني

حديثي تفاحةُ سكريّ كفتحي وتفاح خدي جناني

وأحسن منه قول صلاح الدين بن شاكر الكتبي:

وغادة تيَّمنى حبها تقول صف خدّي بالأحمر

فقلت فضي غدا مخضبا قالت حديثي قلت ذا سكري

ومن قول جلال الدين ابن خطيب داريا:

قالت العذراء لما شاءت المنع بمنحى

هاك تفاح حديثي حلو لا تطمع بفتحي

ومن محاسن صاعد اللغوي قوله:

تفاحة أذكرني نصفها خد حبيبي يوم عانقته

ونصفه الآخر شبهته بلون وجهي حين فارقته

ومن نفثات ابن حبيب قوله:

وتفاحة فيها احمرار وخضرة

مضمخة بالطيب من كل جانب

تكامل فيها الحسن حتى كأنها

تورد خد فوق خضرة شارب

ومن مقاصد ابن نباتة قوله:

كرات عقيق في غصون زبرجد

بكف نسيم الريح منها صوالج

نقلبها طوراً وطوراً نشمها

فهن خدود بيننا ونوافج

وما أرشق قول ابن رشيق القيرواني

تفاحة شامية من كف ظبي أكحل

ما خلقت مذخلقت تلك لغير القبل

كأنما حمرتها حمرة خد خجل

ومن لطائفه قوله:

وتفاحة من كف ظبي أخذتها

جناها من الغصن الذي شبه قده

لها لمس ردفيه وطيب نسيمه

وطعم لما فيه[112] وحمرة خده

ومن لطائف بشار بن برد:

وتفاحة من خالص التبر نصفها

ومن جلنار نصفها وشقائق

كأن الهوى قد ردّ بعد تفرق

لها خد معشوق إلى خد عاشق

ومن أغراض الصاحب بن عباد قوله:

ولما بدا التفاح أحمر مشرقا

دعوت بكأس وهي ملأى من الشفق

---

[112] ريق فمه.

وقلت لساقيها أدرها فإنها

خدود عذارى قد جمعن على طبق

ونقلت من خط جمال الدين ابي حسن علي الخزرجي قوله:
تفاحة محمرة قد بدت

يميلها الريح على غصن

كأنها خدان قد جمعا

يلوح فيها طابع الحسن

ومن محاسن الشام الدراقن، وهو أصناف بدمشق، ويسمى في القاهرة الخوخ، ولم يكن بها سوى الزهري والمشعر فنذكر من أصنافه ما يحضرنا الآن بدمشق: خواجكي، رصاصي، حمصي، نيرباني، لوزي، لزيق، لقيس، كلابي، صالحي، ختمي، مظفري، مسافري، صوري، زهري، لحم الجمل، مجهول.

قال أبو حنيفة: شجره سريع الأخذ في الأرض، قصير المدة، أنهى مكثه عشر سنين، ويضحمل ثمره، وتنشف شجره، وله نوّار أحمر ينور من أصله إلى آخر فرعه، زهي المنظر.

وفي زهره يقول محيي الدين بن قرناص الحموي:
مررت بأشجار الدراقن سحرة

وقد رنحت أعطافه نسمة الفجر

فشبهته لما رأيت احمراره

عيون مخامير أفاقوا من السكر

قال جالينوس: في السابعة وفي نفس شجرة الخوخ المسمى بالدراقن بدمشق وقضبانها وورقها مرارة ولذلك متى سحق وضمد به السرة قتل الديدان التي بالجوف. وهو مع هذا يحلل، وأما ثمرتها فمزاجها رطب يبرد.

وقال في كتاب أغذيته: إن الرطوبة المستكنة في هذه الثمرة وجرمها نفسه سريعا الفساد رديئان في جميع الخصال؛ ولذلك لا ينبغي أن يؤكل الخوخ بعد الطعام كما جرت عادة بعض الناس، لأنه ذا طفا في المعدة فسد.

وقال ابن ماسويه: يولد بلغماً غليظاً سريع الفساد والعفونة في المعدة.

وقال الرازي في »الحاوي«: الخوخ يشهي الطعام جيد للمعدة الحارة والعطش واللهب منها ويزيد في الباه ويطفي الحرارة.

وقال ابن سينا يشبه أن يكون في زيادته في الباه للأبدان الحارة اليابسة.

وقال ابن الجوزي في »لقط المنافع«: الخوخ بارد رطب نضيجه ينفع المعدة ويشهي الطعام، غير أنه رديء الخلط سريع السلوك في فساد المعدة، يصلح للشباب في البلاد الجنوبية ويؤكل بعده الزنجبيل المربى.

وقال الرازي في »دفع مضار الأغذية«: الخوخ ينفع المحموم وقت صعود الحمى الحادة، إذا كانت غباً خالصة، ويولد في الدم مائية يكمل استحالتها إلى الم بعفن ويهيج الحميات بعد شهر أو شهرين كما فعل المشمش، إلا أن الحميات المتولدة من الخوخ أقوى نافضاً وأطول مدة والله سبحانه وتعالى أعلم.

وفي الخوخ الزهري يقول القيراطي:

حللنا ببستان به الدوح واقف

وجدول صافي الماء من تحته يجري

كأن النجوم الزهر زهري خوخه

ولم أر مثلي شبَّه الزُّهر بالزَّهر

ومن محاسن العلائي الوداعي:

وخوخة قد حكت لونين خلتهما

خدَّي محب ومحبوب قد التصقا

تعانقا فبدا واش فراعهما

فاحمر ذا خجلاً واصفر ذا فرقا

ومن لطائف النصر الحمامي قوله:

وخوخة يحكي لنا نصفها

وجنة معشوق رآها الكئيب

ونصفه الآخر شبَّهته

بلون صبٍّ غاب عنه الحبيب

ومن محاسن الشام الإجاص ويسميه أهلها بالخوخ وهو أصناف: صيفي، زجاجي، قبرصي، أسود، عين البقر، خوخ الدب، خوخ الطعام، أغبر، شقير، حايكي، برقوق، مجهول، بزرة، وله نوار أبيض صغير دون نوار الكمثرى.

قال ابن ماسويه: الإجاص يغذي غذاء يسيراً، ويرطب المعدة بلزوجة ويبردها ويلين الطبيعة ويسهل المرة الصفراء، ويسكن العطش. وهو صنفان: أبيض وأسود، فالأسود هو الإجاص على الحقيقة، والأبيض هو المعروف بالشاهلوج، وهو بطيء الانهضام وليس بمسهل كغيره، وكلاهما بالشام.

وقال ابن زهر: الإجاص رديء للمعدة ملين للبطن وأحسنه ما كان بدمشق، فإنه إذا خف كان جيداً للمعدة ممسكاً للبطن ويختار منه ما كان لحمياً رقيق البشرة، والكبير الرخو القليل القبوضة وأرداه الصغير الصلب الشديد العفوصة الأبيض، وغالب عليه الزرقة المعروف عند أهل مصر بشقير.

والبرقوق نوع منه صغير لكنه إذا نضج حلا.

وقال ابن الجوزي: الإجاص بارد رطب المختار منه الأسود الحلو الكبير، يلين الطبيعة لكن خليطه غليظ بطيء الانهضام، يطلق الصفراء والحامض أشد إطلاقاً، وينفع الصداع والشقيقة وينقص اليرقان وينفع الشباب في الصيف بالبلاد الحارة. دفع مضرته معجون الورد أو العسل. والله أعلم.

وفيه يقول مصنفه البدري:

يا حسن آجاص أتى يحكي لعين البصر

أُكَراً بدت من فضة قد ضمخت بعنبر

وقال ابن المعتز فيه:

لقد شاقني الآجاص لما رأيته

يميل مع الأغصان مع كل مائل

تطلعن من بين الغصون كأنها

فقاح زنوج تحت خضر الغلائل

وكل هذه الأصناف والألوان بالمزة وأرض اللوان. وبها الدور الوسيعة الفناء، المليحة الأساس والبناء. وفيها أعيان الناس، وهي الجامعة بين حسن الأنواع والأجناس. مع الهواء الصحيح، والاعتدال بالترجيح. وبها سويقتان، فيهما سائر ما يشتهى من الألوان. ومصلى بخطبة وخطبة بجامع جديد. وفيها ضريح الولي المعتقد الشيخ سعيد أعاد الله علينا من بركاته، وأمدنا بصالح دعواته.

ويتوصل منها إلى قرية »كفر سوسة« وبها معصرة زيت وأشجار زيتون من زمن عيسى عليه السلام، مع الفواكه الكبيرة بطريق الانضمام.

قال ابن البيطار: الزيتون في السادسة وورق هذه الشجرة وعيدانها الطرية فيهما من البرودة بمقدار ما فيهما من القبض. وأما ثمرتها فما كان منها مدركاً نضيجاً فهو حار حرارة معتدلة، وما كان منها غير نضيج فهو أشد قبضاً وبرداً.

وقال إسحق بن عمران: الزيتون الأخضر دابغ للمعدة مقو للشهوة بطيء الانهضام رديء الغذاء. وإذا رمي في الخل كان أسرع انهضاماً وأكثر عقلاً للبطن. وإذا عمل بالملح اكتسب منه حرارة وكان ألطف من المنقَّع في الماء. والزيتون إذا تمضمض به شدّ اللثة والأسنان المتحركة. أما الزيتون الأسود النضيج فإنه سريع الفساد رديء للمعدة غير موافق للعين، وإذا تضمد به منع القروح الخبيثة من أن تسعى في البدن، والأسود ينقلب إلى المرة الصفراء، وهو أسرع انهضاماً

من الأخضر وورقه قابض إذا دُقَّ وسحق وتُضمِّد به نفع من النار الفارسية، ومنع الحمرة أن تسعى في البدن، ومنع النملة والقروح الخبيثة وينفع الداحس والله أعلم.

وفيه يقول محمد بن دانيال:

كأنما الزيتون حول النهر
بين رياض زخرفت بالزهر
عقد زمرد هوى من نحر
أو خرز خرطن من بازهر

ومنها أرض المزاز، والشويكة، وهي من محاسن الشام، وإليها ينسب الرمان الشويكي.

والرمان أصناف: شويكي، بردي، ماوردي، مليسي، كوفي، برجنيقي، سحاقي، شويخي، مصري، سلطاني، محجر، مطوق، تدمري، لقيط، حصوي، طقاطقي، قطي، مشبه، حامض للطعام، لفان، رأس البغل، مجهول.

قال ابو حنيفة الدينوري: شجر الرمان معروف، وله نوَّار أحمر كالأزرار، ثم يكبر ويفتح كقوالب السكر مشرقة الرؤوس، بعضها ما هو مثمن والبعض مسدس، وداخل هذا القمع نوار أصفر يعلوها ورق أحمر أرق بشرةً من الحرير. وعند السامرة وعباد النار وغيرهم يسمّى بالمليح المهجور لكون الناس لم يعتنوا بزهره، ولا يحتفلون به كغيره.

وفيه يقول الأمير أبو فراس:

وجلّنار مشرق على أعالي شجره
كأن في رؤوسه أحمره وأصفره
قراضة من ذهب في خرق معصفره

وقال ابن وكيع:

وجلنار بهي ضرامه يتوقد

بدا لنا في غصون خضر من الري ميَّد

يحكي فصوص عقيق في قبة من زبرجد

أخذه الصفدي:

وجلنار تبدى في غصنه يتوقد

كأنجم من عقيق سماؤها زبرجد

ومن محاسن ابن دمرداش قوله:

لما بدا الجلنار في القضب

والطلُّ يبدو عليه كالحبب

كأنما أكؤس العقيق به

قد ملئت من برادة الذهب

قال ابن البيطار: الرمان في الثامنة وكله قابض إلا اليسير، لأن الرمان منه حامض، ومنه حلو ومنه قابض، فيجب ضرورة أن تكون منفعة كل نوع بحسب الطعم الغالب عليه. وحب الرمان أشد قبضاً من عصارته وأشد تجفيفاً، وقشره أكثر في الأمرين جميعاً، وحينئذ الرمان الذي تساقط عن الشجر إذا عقد كان أجود.

وقال ابن زهر: الرمان في الأولى جيد الكيموس جيد للمعدة، قليل الغذاء، والحلو منه أطيب طعماً من غيره، غير أنه يولِّد حرارة ليست بكثيرة في المعدة ونفخاً، ولذلك لا ينفع المحمومين، والحامض أنفع للمعدة الملتهبة، وهو أكثر إدراراً للبول من غيره.

وقال ابن الجوزي الحلو حار رطب، وقيل بارد معتدل جيده الكبار، منفعته يلين الصدر والحلق، ويصلح للسعال والباه، ويوافق المعدة ويحدث نفخاً. دفع مضرته بالرمان الحامض يتولد منه غذاء صالح يصلح للأمزاج المعتدلة وللكهول في الخريف.

والرمان الحامض بارد يابس لطيف قابض. جيده الكثير الماء، ينفع للكبد ويقمع الصفراء،

ويمنع سيلان الفضول إلى الحشا، خصوصاً شرابه. ويدر البول أكثر من الحلو، لكنه يضر الصدر والصوت والمعدة، ودفع مضرته بالحلواء العسلية، يصلح للأمزاج الملتهبة وللشباب في الصيف، ومن أكل ثلاثة أقماع من الرمان بشحمه فإنه دباغ للمعدة وفيه فائدتان: الأولى أنك إذا أردت معرفة الرمانة هل حبها فرد أم أزواج تنظر إلى تشريح قمعها، إن كان فرداً فهي بالفرد وإن كان الزوج فهي بالزوج. الثانية أنك تطعم إنساناً يبغض إنساناً مائتي حبة وأربعاً وثمانين حبة رمان حلو وتطعم المبغوض في ذلك الوقت بعينه مائتين وعشرين حبة فإنهما يتحابان إلى الممات. نقلته ممن جربه فصحَّ والله أعلم.

ومن لطائف جمال الدين الشواء قوله:

من رام للرمان وصفاً يقُلْ   مثل الذي قد قلت إعلانا

حِقٌّ نضارٍ لم يزل مودعا   فيه يواقيتا ومرجانا

وما أبدع كلام أمير المؤمنين المأمون فيه:

رمانة ما زلت مستخرجاً   في الجام من حقتها جوهرا

فالجام أرض وبناني حيا   يمطر ياقوتاً بها أحمرا

ومن تشابيه أبي الحسن الجوهري فيه:

وحبات رمان لطاف كأنها   شوارد ياقوت لطفن عن الثقب

أشبهها في لونها وصفائها   بقطرات دمع وردت من دم القلب

ومن محاسن كشاجم قوله:

ومحمرَّة من بنات الغصون   ويمنعها ثقلها أن تميدا

منكسة التاج في رأسها   تفوق الخدود وتحكي النهودا

تغض فتفترّ من مَبْسم كأن به من عقيق عقودا

ومن محاسن ابن الرومي قوله:

ولما فضضت الختم عنهن لاح لي فصوص عقيق في بيوت من التبر

فدُرٌّ ولكن ليس يدنيه غائص وماء ولكن في مخازن من جمر

ومن معاني ابن حمديس قوله:

قد لاح رماننا بروضته بين صحيح وبين مفتوت

من كل مصفرَّة مزعفرة تفوق في الحسن كل منعوت

كأنها حقة فإن فتحت فصرّة من فصوص ياقوت

ومن عقود ابن لؤلؤ الذهبي قوله:

ورمان رقيق القشر يحكي نهود الغيد في أثواب لاد

إذا قشرته طلعت لدينا فصوص من عقيق أو نجاد

ومن مخترعات علي بن سعيد الخيري الأنصاري في رمان معشوقه:

وساكنة في ظلال الغصو ن بخدر تروقك أفنانه

تضاحك أترابها عندما غدا الجوّ تدمع أجفانه

كما فتح الليث فاه وقد تضرج بالدم أسنانه

ومن محاسن الشام قرية »داريّا« وهي قبلي »الشويكة«، وبها السيدان الجليلان »أبو سليمان الداراني« و»أبو مسلم الخولاني« أعاد الله تعالى علينا من بركاتهما المتواترة وأفاض علينا من بحار علومهما الزاخرة.

وإليها يتشوق خطيب محاسنها الشيخ جلال الدين أبو المعالي محمد بن أحمد سليمان المعروف بابن خطيب داريّا من القاهرة المحروسة بقوله:

سقى الله من شرقيّ جامع جلّق
منازل لا يهوى سواها غريبها

منازل لولا الساكنون بها لما
تذكرتها ولو فاح طيبها

وما قلَّ منها إذ رضيت ببعدها
نصيبي ولكن قلَّ مني نصيبها

وما لي إلى الأوطان شوق وإنما
هوى كل نفس أين حلَّ حبيبها

وإليها ينسب البطيخ الداراني.

قال »الرازي«: البطيخ الهندي وهو الأخضر، يقوي الترطيب مستعد لأن يصير بلغماً حلواً، ولذلك صار نافعاً لأصحاب حميَّات الغب والمحرقة.

وقال »ديسقوريدوس«: الخلط المتولد من البطيخ خلط رديء، وكثيراً ما تعرض منه الهيضة ويعين على القيء، وقشر البطيخ إذا استعمل عوضاً عن الأشنان كفا الزهومة وذهب برائحة الزفر، وإذا جفف قشره وألقي في القدر مع اللحم الغليظ أسرع نضجه وهراه.

وقال »ابن الجوزي«: البطيخ الهندي بارد رطب، جيده المائي الحلو، ينفع الأمراض الحارة ويسكن العطش، ويسيء الهضم، دفع مضرته بالسكر، يصلح للأمزاج الحارة الصفراوية والشباب في الصيف، وإذا أخذ من مائه في سكر أوسكنجبين أدرّ البول وغسل المثانة والكلى، وكان أكثر في التبريد وينفع أصحاب اليرقان الحادث عن حرارة الكبد إذا شرب مع الطباشير والسكر، وهو مصحح للأخلاط، يضر المشايخ والكبد والطحال إذا كانت وارمة والإكثار منه يولد الهيضة وسوء الهضم، وينبغي أن يتوقاه أصحاب المزاج البارد فإن تناولوه أتبعوه بالعسل. والله سبحانه وتعالى أعلم.

وفيه يقول تاج الدين الكندي وأجاد:

انظر إلى البطيخ في تشقيقه
يحكي لدى التشبيه كل أنيق

صفائح بلور بدت في زمرد
مركبة فيها فصوص عقيق

ومن ألغاز الصلاح الصفدي قوله:

ما رباعيّ حروف
وهي خمس في البناء

كله نبت ولكن
نصفه طائر ماء

ومن لطائف بلدينا الوأواء الدمشقي قوله:

وذات ريق إن ترشفته
وجدته أحلى من المنِّ

إذا بدت في كفِّ جلابها
رأيتها في غاية الحسن

كسلة خضراء مختومة
على الفصوص الحمر في القطن

وقال صاحب »مطالع البدور« البطيخ يغسل الطعام غسلاً، ويذهب بالأذى أصلاً. وكانت ملوك الفرس تأمر برفع الحلوى أيام الرطب وبرفع الأشنان أيام البطيخ.

والبطيخ الأخضر بدمشق اصناف: وهو داراني، ومرجي نسبة إلى المرج، ودومي نسبة لقرية دوما، وحبشي، وقبلي، وعواميدي وهو المسمى بالنموس.

ومن محاسن الشام قرية »يلدا«، وهي من القبلة إلى شرقي قرية »عربيل«، وما بينهما من القرى الجميع برسم زراعة كروم العنب وعرائشه.

وقال صاحب »معاياة العقل في معاناة النقل«: التعريش الرفعة لقول تعالى »وهو الذي أنشأ جنات معروشات«. والعرش أرفع من السماء.

والعنب صنوف بدمشق فمنها: البلدي، ناصري، عاصمي، زيني، بيتموني، قناديلي،

إفرنجي، مكاحلي، بيض الحمام، حلواني، بوارشي، جبلي، قصيف، أبزاز الكلبة، قشلميش، كوتاني، عبيدي، شحماني، جوزاني، دراقني، مخ العصفور، عرايشي، رومي، شبيهي، نيطاني، عصيري، رناطي، ورق الطير، سماقي، حرصي، مجزع، شعراوي، دربلي، قاري، علوي، عينوني، مورق، مشعر، مسمط، مرصص، محضر، مقوس، حمادي، تفاحي، رهباني، زردي، مبرد، مخصل، مغاربي، شحمة القرط.

وقال »ديسقوريدوس«: الكرم في الخامسة وهو الذي يعتصر منه الشراب، وورقه وخيوطه إذا سحقا وتضمِّد بهما سكَّنا الصداع. والورق إذا كان بارداً قابضاً فإنه إذا تضمِّد به وحده أو مع سويق الشعير سكَّن الورم الحار العارض للمعدة والالتهاب العارض لها. وعصارة الورق تنفع الذين بهم قرحة الأمعاء والذين يتقيأون الدم، والذين يشكون معدهم والحوامل من النساء. وخيوط الكرم إذا انتقعت بالماء وشربت فعلت ذلك. ودمعة الكرم وهي شبيهة بالصمغ تجمد على القضبان، إذا شربت مع الشراب أخرجت الحصى، وإذا تلطِّخ بها أبرأت القوابي والجرب المتقرح والذي ليس بمتقرح. وينبغي إذا احتيج إلى التلطيخ بها أن يتقدم بغسل العضو بالنطرون، وإذا تمسح بها مع الزيت دائماً حلقت الشعر، وخاصة الدمعة المجموعة من قضبان الكرم الطرية، وإذا أحرقت ورشحت منها الدمعة كما يرشح العرق، وهي التي إذا لطخت على الثآليل المسماة مرميقيا[113] ذهبت بها. ورماد قضبان الكرم ورماد شجير العنب إذا تضمِّد به مع الخل أبرأ المقعدة التي قد قلع منها البواسير، وأبرأ من التواء العصب، وقد ينفع من نهشة الأفعى، وإذا تضمِّد به مع دهن ورد وسذاب وخل خمر نفع من الورم الحار العارض في الطحال.

وقال ابن الجوزي في لفظة »العنب«: حار رطب والأبيض أحمد من الأسود، والإكثار منه يصدع الرأس، ومنفعته يسهل البطن ويسمن، وهو قريب من التين في فضله على سائر الفواكه. مضرته يعطش ويرخي المثانة. دفع مضرته بالرمان الحامض، يتولد منه دم جيد يصلح للمشايخ والأمزاج الباردة في الخريف، وفي البلاد الشمالية، والحصرم ينفع المحرورين ويطبخ منه طعام لذيذ.

وفي اللغة قال الحصرم ثمر الكرم قبل الحلاوة والميم فيه زائدة مأخوذ من الحصر، وهو العجز عن النطق، أو من الحصر الذي هو احتباس الباطن، وبه سمي الرجل البخيل لمنعه ما في

---

[113] كذا في الأصل. وفي مفردات ابن البيطار »مرمعا«

يده وتشديده. والحصير الملك سمي بذلك لامتناعه عن الأعين أو عن الضيم.

قال الشاعر:

وقماقم غلب الرقاب كأنهم
جند لدى باب الحصير قيام

وسميت جهنم »للكافرين حصيرا« لمنعها من فيها أو لتمنعها هي في نفسها. قال تعالى: »وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا«.

فالحصرم طبعه البرد واليَبَس، ولذلك قبض الأجسام، ومنع المسام من إخراج ما فيها من الفضل. كلام »معاياة العقل«.

وفيه يقول الطغرائي وأبدع:

ترى الثريا من عناقيدها تلوح في أخضر كالغيهب
كم درة فيها وكم لؤلؤة[114] صحيحة التدوير لم تثقب

واستعار هذه الثريا لعرشة ابن تميم فقال:

نفى عني الهجيرَ ظلال كرم
وأمتعني ونزه ناظريا
ولاحت عرشة فرأيت منها
سماء كل أنجمها ثريا

ومن لطائف الصاحب ابن عباد:

وحبة من عنب قطفتها
تحسدها العقود في الترائب
كأنها من بعد تمييزي لها

---

[114] في ديوان الطغرائي »كم سبج فيه وكم جزعة«.

لؤلؤة مثقوبة من جانب

ومن تشابيه ابن المعتز قوله:

وحبة من عنب من جنةٍ متخذه

كأنها لؤلؤة في وسطها زمرذه

ومن محاسنه قوله في العنب الأبيض:

شربت حميا الكرم تحت ظلاله

على حسن محبوب الشمائل أغيد

كأن عناقيد الكروم وظلها

كواكب در في سماء زبرجد

ومن أغراضه قوله في العنب الأسود:

حتى إذا حرمرى جاء مرحلة[115]

بفاتر من هجير الجو مستعر

طلّت عناقيدها يخرجن من ورق

كما اختفى الزنج في خضر من الأزر

وقال ابن الصائغ في العنب العاصمي:

وعاصمي قد غدا طعمه

اروى من الماء لدى الحائم

أورث خلي أكله هيضة

فأعجب له من مسهل عاصمي

---

(115) **كذا.**

وقال ابن الرومي في العنب الرازقي:

كأن الرازقي وقد تناهي وباهت بالعناقيد الكروم

قوارير بماء الورد ملأى تشف ولؤلؤ فيها يعوم

وتحسبه من الشهد المصفى إذا اختلفت عليك به الطعوم

فكل مجمَّع منه ثريا وكل مفرَّق منه نجوم

وقال محمد بن عبد الله المحسن الكفرطابي في الأسود:

جاءنا منك تحفة نحن منها أبداً في تضاعف السراء

عنب أسود كأن عليه حللاً من حنادس الظلماء

خلته في خلال أوراقه الخضـ ـر ولون اسوداده للصفاء

كقموع على أنامل خَودٍ لُحْنَ من كُمِّ غادة خضراء

ونقلت من خط التقوى ابن حجة ملغزاً في الكرمة:

عناقيد على قضب تدلت

حكى منظومها عقد اللالئ

إذا عصرت ترى في الكأس منها

دواء قد تركب من دوالي

البرهان البهنسي قوله:

أخبروني عن فاضل بأصول

وفروع يسمو على كل فاضل

أسبغ الله ظله فهو ظلٌ

سابغ وافر مديد وكامل

وأبو محجن يقول ادفنوني

تحته إن أتاني الموتَ عاجل

كم إلينا قد مد كفاً نديا

صيَّر العيش أخضراً في المنازل

نقطة الطلِّ فوقه أوضحته

عند توقيعها به وهو عاطل

ما تبدى لنا بعين ولكن

حرّفته وصحفته الأفاضل

فرأينا للترك فيه اسم عين

بفتور الأجفان جاء يغازل

إن تُذكِّره حرف الكل يبدي

كرماً والندى من الكفِّ هاطل

أو تؤنثه يقبل الهاء في الحا

ل ومن بعد ذا يُرى هو حامل

ويقلُّ شطره لمن عاب منه

لك همٌّ بالعكس عندي حاصل

فيه حلو وفيه مرٌّ ويبدو

عند تحريف عكسه المتماثل

وبلا أول يرى فعل أمر

واقلب الفعل منه فالأمر حاصل

هو خُشُبٌ مسنَّدات ولكن

حال يجلى يبدو رقيق الغلائل

ومن الغمر جسمه الغضّ يدمى

وتراه من بعد ذا وهو ذابل

وإذا ما فرَّطت فيه تراه

لم يحل عنك وهي نعم الخصائل

ذو بياض وحمرة وكذا لي

فرحاً من راحٍ سَرَتْ في المفاصل

فتراه يوماً عقود عقيق

نظِمتْ سلكها بغير أنامل

وتراه يبدو عقود جمان

ما لها غيرُ ثغرِ حِبِّي مماثل

وتراه طوراً سلافة راح

ولدِّر الحباب فيها حواصل

وعلى عوده يغني علينا

أعجمي به تهيج البلابل

لك منه فواكهٌ وشراب

كلُ عصرٍ إليك تلقاه واصل

وحلاواته بها كل قلب

كسروه والقلب للكسر حامل

وصلُهُ في مصر قليل ولكن

هو بالشام لا يزال مواصل

وتراه بذات عِرْقٍ مقيما

في نعيم وظله غير زائل

وإذا قلت في المخيم بالغو

ر رأيناك فيه أصدق قائل

ولقد جاءنا بعتب لطيف

عند تصحيفه لمن هو هازل

كيف لا والكتاب عن حبتيه

قد أتى مخبراً بتلك الفضائل

فتفكه من حَبِّه في قطوف

دانياتٍ لكل آت وراحل

وأقِم تحت ظله فهو لغزٌ

ظلّه ظاهر على كل قائل

ثم دُمْ في الألغاز بالحل والعقد

غنياً إذا أتى اللغز سائل

وزبيبه حار، والحامض منه بارد. قال أبو حنيفة الدينوري الزبيب جفيف العنب خاصة، ثم قيل لِما جفف من سائر الثمر قد زُبِّبَ إلا التمر فإنه يقال تمر الرطب ولا يقال زبب، والزبيب هو العنجر.

وقال جالينوس: تنطج[116] وتحلل تحليلاً معتدلاً وهو في السادسة. وعجم[117] الزبيب يجفف

---

[116] ربما كانت تنضج.

[117] العجم: النوى.

في الدرجة الثانية ويبرد في الدرجة الأولى، وجوهره جوهرغليظ أرضي كما قد تعلم ذلك من طعمه إذ كان يوجد عياناً، وهو يسكن ما يكون في فم المعدة من التلذيع العسير.

وأفضل أنواع الزبيب أكثره لحماً، وأرقه قشراً، وبعض الناس يميل إلى الزبيب الكبار الحلو، فيخرج عنه عجمه قبل أن يأكله، والفاعل لذلك محسن في فعله، والكشمش هو الزبيب الصغير الذي لا عجم له، وهو أجود.

وقال صاحب »لقط المنافع«: الزبيب صديق المعدة والكبد، ينفع الكلى والمثانة ووجع الأمعاء، ويحد الذهن، وينفع من قد اجتمعت في بدنه أخلاط بلغمية فاسدة، إلا أن مضرته إحراق الدم، ودفعها بالخيار الأخضر، ينفع الأمزاج الباردة والقابض منه قليل اللحم، يقوي المعدة، ومن أراد حبسه أكل الزبيب القابض بعجمه.

وبإسناد إلى النبي (صلعم) قال: »نعم الطعام الزبيب، يطيب النكهة ويذهب البلغم«. وقال أمير المؤمنين المنصور: »كلوا الزبيب واطرحوا عجمه، فإن في عجمه داء وفي شحمه دواء. هكذا حدثني أبي عن أبيه عن جده عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه أمره بذلك. فتنبه والله أعلم.

ويعمل من ماء العنب الدبس والمَلْبَن. قال الرازي في »دفع مضار الأغذية« الملبن غليظ مولد للسدد والقولنج، بطيء الحركة والنزول رديء في أكثر أحواله، واجتنابه أصلح، اللهم إلا أن يكون الإنسان جائعاً. وإصلاحه بالفانيذ، ويسرع نزوله. وينبغي أن يحذره من به غلظ في كبده وطحاله ويعتريه الحصا في كلاه، وليس بضار للصدر والرئة.

قلت وبين هذه الكروم المذكورة قطع أراض جميعها أصول »لوز« ليس لها نظير في أيام تنويرها، وهي من محاسن الشام.

قال ابن زهر: اللوز له نوار أبيض وأحمر يقال إن الأحمر ثمرته مرة. وفيه يقول الأمير مجير الدين محمد بن تميم:

خرجنا للتنزه في بقاع
يعود الطرف عنها وهو راض

ولاح الزهر من بُعدٍ فخلنا

ضباباً قد تقطع في أراض

ومن محاسنه قوله:

يا حسنها دوحة باللوز حالية
يبدو لعينيك منها منظر عجب
كأنها قبة بيضاء قائمة
على عمود ولكن ما لها طنب

ومن لطائفه قوله:

بروحي من أبصرته متنزهاً
بروض نضير وشّعته الغمائم
وقد نثرت من فوقه الدَوْحُ زهرها
كما نثرت فوق العروس الدراهم

ومن مقاصده قوله:

روض تحلّى بالنبات فما له ولحسنه إلاّ السماء نظير
والزَهرُ مثل الزَّهرِ تحسب أنها فيه إذا هبَّ النسيم تنير

ومن بدائعه قوله في الزهر على النهر:

ولما نثرنا الزهر في النهر وانبرت
تجعده أيدي الصَّبا والجنائب
حسبنا سماء قد تجعد غيمها
ولاحت خلال الغيم زُهرُ الكواكب

وقال:

أبدت غصون اللوز من زهرها

ما كان في الأكمام مستورا

ظللت يومي كله مفكراً

في عنبر أعشب كافورا

ومن مخترعاته:

يا حسن منعطف الحديقة إذ بدت

تجلو لزائرها سنى نوارها

وكأنما حسد النسيم رياضها

فأذاع ما كتمته من أسرارها

ومن أغراضه البديعة قوله:

لما أتينا اللوز لم يبعث لنا

نشراً وطال مخافةً أن يجتنى

فشكوته للريح فاستلبته من

أعلى الغصون وفرقته بيننا

ومن مجونه قوله:

فديتك زهر اللوز جاء مبشراً

بفضلٍ على شرب المدام معين

فقم نجتلي بنت الكروم ونجتني

كواكب زهر من سماء غصون

وقال ابن فضل الله فيه مع ورقه:

ويا رب زهر أبيض بين أخضر

تتيه على كل الرياض رياضه

كأثقاب نقش أخضر فوق معصم

صقيل تجلى بينهن بياضه

ومن النكت البديعة قول ابن نباتة:

أهلا بسائرة الصبا من نحوكم

وبما عهدنا من تعاهد طولها

أملت على الزهر المقطب ذكركم

حتى تبسم ضاحكاً من قولها

ونقلت من خط الزيني ابن الخراط قوله:

وروض به ثغر الأزاهر باسم

وطرف الحيا من ضحك نواره باكي

فلا تحسبوا برق الغمامة باسماً

هو المبسم الحالي ولكنه الحاكي

ومن لطائفه قوله:

مررت على دوح ينوح حمامه

ودولابه يبكي على شاطئ النهر

فقلت على ما أنت باك ودائر

فقال على ما ضاع من نشر الزهر

ومن ملحه قوله:

وروضة قال لنا نهرها معاتباً إذ رقّ للشارب

أكون في خدمتكم جارياً ويضحك الزهر على شارب

وأنشدني شيخ الأدب العلائي المليك:

باكر إلى الزهر الرياض واسقني

كأس الطّلا والراحُ روح الأنفسِ

أو ما ترى نصب الربيع خيامه

في الروض فوق مطارف من سندس

وأنشدني أيضاً:

بادر إلى الزهر في عرس الرياض ضحى

فالوُرقُ[118] غنت على العيدان في الورق

والريح شبَّب والأغصان راقصة

والزهر تنثر أوراقاً من الورق

ويعجبني في الزهر على النهر:

لم لا أهيم إلى الرياض وطيبها

وأظل منها تحت ظل صافي

---

[118] الورق: اليمام.

والزهر يلحظني بثغر باسم
والماء يلقاني بقلب صافي

ومن تحرير القيراطي قوله:

سقياً لأقطار الشآم فكم من أنجم في روضها نجمت
وإذا السماء بأرضها نزلت طلعت زهور نجومها وسمت

وقال محيي الدين بن قرناص:

قد أتينا الرياض لما تجلت وتحلت من الندى بجمان
ورأينا خواتم الزهر لما سقطت من أنامل الأغصان

وقال أيضاً:

مال القضيب بروضة من سكره
لما سقاه عقاره آذار
حتى إذا سرق النسيم دراهماً
من كمه صاحت به الأطيار

وقال أيضاً:

هلم يا صاح إلى روضة قد نمَّقت أزهارها السحب
الزهر فيها شيِّق مغرم وجدول الماء بها صبٌّ

وقال بدر الدين بن لؤلؤ الذهبي:

هلم يا صاح إلى روضة يجلو بها العاني صدا همه
نسيمها يعثر في ذيله وزهرها يضحك في كمه

ومنه قول أحمد بن أبي صالح فيه:

بادر إليها يا نديمي روضة قد وشَّحتها أنمل الغمام

غنَّت على العود مطوقاتها فزهرها يرقص بالأكمام

وما أبدع قول يحيى بن هذيل:

نام طفل الزهر في حجر النعاما لاهتزاز الظلِّ في زهر الخزامى

وسقى الوسمي أغصان النقا فهوت تلثم أفواه الندامى

وقال ابن قرناص:

لقد عقد الربيع نطاق زهر يضم لغصنه خصراً نحيلا

ودبَّ مع العشي عذار طلٍ على نهر حكى خداً اسيلا

وقال ابن مليك الحموي:

كأن زهر الربى والطلٌّ بلله

ثغر بدا باسماً يفتر عن شنب

أولا فكأس لجين ملؤه ذهب

مكللٌ من عقود الدر بالحبب

وقال المعوج الشامي في أزراره قبل تفتيحه:

حقاقٌ من النوار مزرورة العرى

على قطع الياقوت واللؤلؤ الغض

فتحن على الأغصان أجفان فضة

وبالآس كانت مطبقات على الغمض

وقال الشيخ إدريس وقد طلع بإخوانه إلى الزهر:

وإخوان صدق قد أناخوا بروضة

وليس لهم إلا النبات فراش

فخلتهم والنَّوْرُ يسقط فوقهم

مصابيح تسري نحوهن فراش

وقال العلائي بن أسد في غلام يتفرج في النزهة:

سلطان حسن أفتديه بناظري وأعيذه من نزعة الشيطان

يوماً بزهر اللوز لما زارني قضَّيت ذاك اليوم بالسلطاني

وقال عفيف الدين بن محبوب المغربي في غلام بات تحت شجرة:

وليلة بات بدري (تحت) نجمها

من العشاء نديماً لي إلى السحر

يحبو بورد ووِرد طول ليلته

من خدِّه ولماه العاطر الخضر

حتى إذا أسكرتني خمر ريقته

غنى فأغنى عن المزمار والوتر

ما العيش إلا ارتشاف الراح من شنب

يغني عن الراح من سلسال ذي أثر

فأنشأت بنجوم الليل ترجمنا

سماؤها غيرة منها على القمر

فظلت من وجه من أهوى ودارتها

وثغره والذي يهوى من الزهر

ما بين بدرين مكتومٍ ومشتهر

وبين دُرَّين منظومٍ ومنتثر

ومن المعاني البديعة قول السلامي:

نسبُ الرياض إلى الغمام شريفُ

ومحلها عند النسيم لطيف

والأرض طرس والرياض سطوره

والزهر شكل بينها وحروف

وكأنما الدولاب ضلَّ طريقه

فتراه ليس يزول وهو يطوف

وقال ابن لؤلؤ الذهبي في مشيب الزهر:

ما نظرت مقلتي عجيباً كاللوز لما بدا نواره

اشتعل الراس منه شيباً واخضرّ من بعد ذا عذاره

وقال الشاب الظريف محمد بن العفيف:

لئن شاب زهر اللوز طفلاً وقلتم

بأن مشيب الطفل ليس يجوز

فلا تعجبوا أن شاب في غير وقته

فكم نفخت يوما عليه عجوز

واللوز بدمشق اصناف: منه الجبلي، قسطاسي، عربيلي، عقابي، بندقي، شحمي.

قال مسيح (بن الحكم): إذا أكل اللوز العاقد بقشره الأخضر الطري دبغ اللثة والفم، وسكن ما فيهما من الحرارة بالبرودة والعفاصة والحموضة التي في قشره الخارج قبل أن يصلب ويشتد. وإذا أكل اللوز القلب الأخضر من غير قشر وهو طري أصلح المعدة وجلا الأعضاء الباطنة ونقاها وأعان على قذف الرطوبات.

وقال جالينوس: في السادسة والمر في الدرجة الثالثة. فالحلو قوته قوة ملطِّفة يفتح السدد الحادثة في الكبد عن الأخلاط الغليظة، ويجلو النمش، ويعين على نفث الدم والأخلاط الغليظة اللزجة في الصدر والرئة، ويشفي الأوجاع الحادثة في الأضلاع وفي الطحال وفي الكليتين والقولنج، ويؤخذ من اصل شجرة اللوز فيطبخ ويوضع من خارج على الكلف فيدهنه.

وقال ابن الجوزي: اللوز الحلو حار رطب يسمن ويقوي البصر ويفتح السدد خصوصاً المر، وإذا أكل بالعسل أو السكر أسرح الانحدار، وخلطه لطيف، وينفع أصحاب السعال، وسويقه ثقيل. واللوز المرّ حار يابس يزيل الكلف والآثار والنمش.

وفي اللوز الأخضر يقول ظافر الحداد:

جاء بلوز أخضر أصغره ملء اليد

كأنما زبيره نبت عذار الأمرد

جواهر لكنما ال أصداف من زبرجد

وقال القاضي السعيد هبة الله بن سنا الملك في اللوز الذي بقلبين:

ومهدٍ إلينا لوزة قد تضمنت

لناظرها قلبين فيها تلاصقا

كأنهما حِبَّان فازا بخلوة

على غفلة من حاسد فتعانقا

ونقلت من خط الرضى المرتضى محب الدين الزرعي قوله:

قم زوّج الصهباء يا ابن السما ولو لحاك العاذل الفاسد

أما ترى الورد أتى شاهداً	واللوز في أغصانه عاقد

ونقلت من خط ابن حبيب الحلبي قوله وهو المقدم:
تزويج بنت الكرم بابن المزن قد

نظمت قلائده فقم يا راقد

فالطير يخطب والزهور شهوده

واللوز ما بين الكمائم عاقد

ومن محاسن الشام »مرج الشيخ رسلان« أعاد الله علينا وعلى المسلمين من بركاته، وأجرى علينا من صالح كراماته. وفيه أقول:
يا من غدا قليبه قاسياً	قم لوليٍّ صادق البرهان

وقف بذل وانكسار وقل	بمدمع يا سيدي رسلان

وهو يشتمل على أنهار وأشجار ونواعير لها مع النسيم رشاش، وغالب تلك الأراضي تزرع الخشخاش.

وفيه يقول الموصلي:
وزهر خشخاش بدا أحمرا	كأنه في رونق وابتهاج

أقداح بلور وقد أترعت	من خمرة لم تختلط بالمزاج

ومن تشابيه ابن دمرداش قوله:
ولما بدا الخشخاش في الروض مزهرا

وقد نظرت شزراً إليه الحدائق

حكى قلعةً أبراجها مستديرة

مشرفة دارت عليها الصناحق

وقال منشئه البدري:

خشخاشنا الناشف في قشر له لما حضر
حكى دبابيساً أتت حملاً بأيدٍ للتتر

والخشخاش بارد يابس أبيض أصلح من أسوده، يجلب النوم ويمنع النزلة، وينفع السعال الحار، والنوازل إلى الصدر ومن نفث الدم ورطوبات المعدة خلطه غليظ وأنفع ما أكل بالسكر أو العسل، والأسود رديء مخدر يورث السبات إلا أنَّ أجود الأسود المصري، وهو ينقي الصدر، والله سبحانه وتعالى أعلم.

ومن محاسن الشام »الوادي التحتاني«، وهو شرقي »مرج الشيخ«، وهو يشتمل على غياض ورياض، فالرياض هي رياض السفرجل، وفيه يقول القيراطي:

فؤادي إلى بانات جلق مائل ودمعي على أنهارها يتحدر
فوافى إلى زهر السفرجل شيّقاً إذا ما بدا مثل الدراهم ينثر
غياض يفيض الماء في عرصاتها فتزهو جمالاً عند ذاك وتزهر
ترى بردى فيها يجول كأنه وحصباؤه سيف صقيل مجوهر

ومن رقيق شعر يحيى الخباز قوله:

زهر السفرجل بالجميل رأيته
قد فاق زهر اللوز في الأوصاف
هذاك ينثر للنديم دراهماً
ونثار ذا بخفايف الإنصاف

وهنا نكته لطيفة، وهو أن الشيخ جمال الدين محمد ابن نباته قدم إلى دمشق في أيام السفرجل فأضافه الشيخ جمال الدين يوسف بن غانم في (الوادي التحتاني) لأجل رؤية زهر السفرجل، فصادف نهار حرٍ وقيظ شديد فأنشد الشيخ جمال الدين محمد بن نباتة المصري:

قد أشبه الحمَّام منزلُ لهونا | فالماء يسخن والأزاهر تحلق
فلذاك جسمي منشد ومصحِّف | عرقٌ على عرقٍ ومثلي يعرق

فأجابه الشيخ جمال الدين يوسف بن غانم يقول:

ما أشبه الحمَّامَ منزلُ لهونا | إلا لمعنى راق فيه المنطق
فالدوح مثل قبابه والزهر كالـ | ـجامات فيه وماؤه يتدفق

ومن الفوائد أن أزهار الفواكه لم يؤكل منها سوى زهر السفرجل لحلاوته وعطريته. وهو أصناف بدمشق: برزي، قصبي، سالمي، صيني، رقي، عباسي، تفاحي، أبو فروة، مجهول.

قال ابن الجوزي: السفرجل بارد يابس، ويقال رطب جيده البالغ الكبار، يسر النفس، ويدبغ المعدة، ويقبض ويقوي ويمنع سيلان الفضول إلى الأحشاء، ويدر البول، غير أنه يحرك القولنج إن أكل قبل الطعام، وإن أكل بعده ليَّنَ، ودفع مضرته بالرطب المعسل. والسفرجل المشوي أخف وأنفع وطريقته أن يقور ويخرج حبه ويجعل فيه العسل ويطين خرمه ويودع الرماد. يتولد عنه خلط بارد وتوافقه الأمزاج الصفراوية. وأما السفرجل فأشد تقوية للمعدة وأقل حبساً للطبيعة، وكثرة أكله تولد وجع العصب، وحبه ينفع من خشونة الحلق ويلين قصبة الرئة ولعابه يرطب يبسها.

وبالإسناد عن طلحة بن عبيد الله قال: أتيت النبي (صلعم) وهو في جماعة من أصحابه وبيده سفرجلة يقبلها أو قال يقبلها[119] فلما جلست إليه وجاء بها نحوي قال: »دونكها أبا محمد فإنه يشد القلب ويطيب النفس، ويذهب بطخاء الصدر«.

وقال أبو عبيد الطخاء أي سحاب وظلمة.

وفي حديث آخر أنه قال عليه الصلاة والسلام: »إذا وجد أحدكم طخاءً على قلبه فليأكل السفرجل«.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله (صلعم): »كلوا السفرجل على الريق«.

---

[119] لعله »يقلبها«.

وفيه يقول ابن تميم وأحسن:

حاز السفرجل أوصاف الورى فغدا
على الفواكه بالتفضيل مشكوراً
كالراح طعماً وشم المسك رائحة
والتبر لوناً وشكل البدر تدويرا

ومن أوصاف الطغرائي قوله فيه:

وسفرجل عني المصيف بحفظه
فكساه قبل البرد خزاً أصفرا
يحكي نهود الغانيات وتحتها
سرر لهن حشين مسكاً أذفرا

ومن تشابيه الصنوبري قوله:

لك في السفرجل منظر تحظى به
وتفوز منه بشمِّه ومذاقه
يحكي لنا الذهب المصفى لونه
وتزيد بهجته على إشراقه
والشكل من أعلاه يحكي سفله
ثدي الكعاب إلى مدار نطاقه
والشكل من سفلاه يحكي سرة
من شادن يزهو على عشاقه

وقال بعضهم:

حكى سفرجل دوح حوى جميع المعاني

كأنه حين يبدو على ذرى الأغصان

رؤوس أطفال روم لطخن بالزعفران

وأما الغياض فهي غياض الحور، وهو في علو السواري، خالص الاعتدال، ورقه بوجهين أخضر وأبيض، له مع النسيم حفيف لطيف، بساق أبيض صقيل، ترتاح الأنفس إليه.

وفيه يقول شهاب الدين المنصوري:

كأن الغصون المائلات عرائس

تثنَّين عجباً في ملابس أطلس

كأن قدود الحور حُورٌ وقد غدت

تشمِّر عن ساق لدى الحوض أملس

وبه »غيضة السلطان« وحورها لا يستطيع الإنسان أن يدخل فيما بينه، لانضمامه، ولئلا يضل عن الطريق، كأنه سكب بقوالب من الشمع.

وبهذا الوادي متنزه يقال له »ست الشام«، وهو مرجة خضراء ما بين هذه الغياض، وبها عين تجري بماء بارد عذب.

ابن حجة:

تقول »ست الشام« لما غازلت بعينيها فأنعشت حياتي

وأنشقت بمرجها وأبرزت نثراً حلا لأنه نباتي

خذني بغير ضرة فإنني بديعة في الحسن والصفات

واستجلني عروسة يتيمة شامية وعش بلا حماة

ومن محاسن الشام.. وأوله منتهى »الوادي التحتاني« وآخره »البحرة«، يقال أنه يشتمل

على ثلاثمائة وستين قرية تزرع الغلة والحبوبات، وفي الغالب الشعير.

وفيه يقول ابن ظافر الحداد:

كأن سنابل حب الحصيد وقد شارفت حين إبَّانها

كنابيس مظفورة ربعت وأرخيَ فاضل خيطانها

ومن محاسن السلامي قوله:

يا حبذا سنبلة تبدو لعين المبصر

كأنها سلسلة مظفورة من عنبر

و»البحرة«[120] إليها ينصبّ ما يفضل من مياه أنهار دمشق، ومنها صيدها من السماء والماء من الطيور والأسماك صيفاً وشتاءً.

ومن محاسن الشام »ضمير« وهي من القرى القديمة اتخذها اليونان. وإليها ينسب البطيخ الضميري الأصفر، ومن أصنافه: السمرقندي، والسلطاني، والشمام.

والبطيخ مشتق من التبطخ واسترخاء الجلد ولين الجسم تحت يد الغامز. ويقال فيه طبيخ وهي لغة فصيحة لأنه من الطبخ، وهو النضج الذي لا يتهيأ له التماسك وقد يكون لإفراط الرطوبة المفسدة لجوهر الجسم، قاله صاحب »معاياة العقل في معاناة النقل«.

وقال جالينوس: البطيخ الأصفر في الثانية النضيج، وجوهره جوهر لطيف، وغير النضيج جوهره جوهر غليظ، وفيهما جميعاً قوة تقطع وتجلو ويدرَّان البول، ويصفيان ظاهر البدن، وخاصة إن عمد الإنسان إلى بزرها فجففه ودقه ونخله واستعمله في الحمام ومعك به بدنه.

وقال »ديسقوريدوس«: قشره إذا وضع على العين سكَّن ورمها، وإن وضع على نوافيخ الصبيان نفعهم من الورم العارض في أدمغتهم. وبزر البطيخ أجلى من لحمه حتى أنه ينفع الكلى التي يتولد فيها الحصى، والخلط المتولد من البطيخ خلط رديء.

---

[120] وهي بحرة العتيبة، أو الهيجانة.

وقال ابن الجوزي: في لفظة »رطب« يفتت الحصى، وهل هو حار أم بارد فيه قولان، جيده السمرقندي، منفعته يجلو البشرة، ويقطع الكلف والبهق الرفيق عن الجلد. وبزره أقوى جلاء من جلده. مضرته يرخي الجسد ويولِّد الريح، رفعها بالسكنجبين الصرف. يصلح للأمزاج المعتدلة والكهول في الخريف. وأضر ما أكل على الجوع لا سيما إذا نام الإنسان عقبه على الجنب الأيمن، والمشي بعده صالح، وإذا أكثر منه ولَّد هيضة لأنه سريع الفساد في المعدة، سريع الاستحالة إلى ما يصادفها.

وقال أرسطو: إذا فسد في المعدة البطيخ كان شبيه السم فليتقاياه، وبزره الشربة منه ثلاثة دراهم، فإنه يزيد في الباه.

وبالإسناد عن أمية بن زيد العبسي أن النبي (صلعم) كان يحب من الفواكه العنب والبطيخ.

(فائدة) عن أبي مسهر قال: كان أبي إذا بعثني أشتري البطيخ، قال يا بني أعدد الخطوط التي فيها فإن تك فرداً فخليق بها أن تكون حلوة.

وفيه يقول المشد:

يا حسن أصفر بطيخ مذاقته كالشهد ضِيفَ بما وردٍ وكافور

مثل الدنانير في لون وفي زنة وفي خشونة حبات وتدوير

ومن بديع الأبيوردي قوله فيه:

من رأى أشباح تبر ملئت من ريق نحله

فاجتليناها بدوراً وقطعناها أهِلّه

ومن تفنن أبي طالب بن عبد السلام بن أكبر المأموني:

مخططة مثل الأكف كأنها

من الجَزْع كبرى لم تُرَض بنظام

لها حلة من جلنار وسوسن

مغمَّدة بالآس غبَّ غمام

تمازج فيها لون حِبٍ وعاشق

كساه الهوى والبين ثوب سقام

وأبدى لها التحزيز تخضيب كاعب

غلامية ذات اعتدال قوام

رياضية مسكية عسلية

لها لون ديباج وعرف مدام

إذا فصلت للأكل كانت أَهِلّة

وإن لم تفصَّل فهي بدر تمام

والبطيخ المخطط الأصفر وهو المسمى في الشام بالشمام، وفي مصر يسمونه اللفاح، وهو نوع صغير مستدير مخطط بحمرة وصفرة، على شكل الثياب العتابي، وهو في طبعه ومزاجه متوسط بين البطيخين إلا أنه أقل رطوبة من البطيخ الهندي، وأغلظ من البطيخ الخفيقي، ورائحته باردة طيبة مسكنة للحرارة جالبة للنوم، ولأجل ذلك ظنت عامة المصريين أنه نوع من اللفاح الذي هو ثمر اليربوح. والله تعالى أعلم.

وفيه يقول كشاجم:

للأنف والعينين في يربوحه لون المحب وعطرة المعشوق

صفراء طيبِّة النسيم كأنها بلورة محشوة بخلوق[121]

ولأبي طالب فيه:

ومصفرة فيها طرائق خضرة

كما اخضر مجرى السيل من صيِّب المُزن

---

[121] الخلوق: العطر.

كحقة عاج زيّنت بزبرجد

حكت قطع الياقوت في غلف القطن

وقال ابن المعتز في اللفاح:

انظر إلى اللفاح في شكله وحسنه المبدع النقش

مثل عروس خضبت كفها لم تعلق الحناء بالغش

وقال فيه ظافر الحداد:

أهدى إليَّ الظبي لفاحة قد ضمخت بالمسك والعنبر

كأنما اللفاح في كفه سبيكة من ذهب أحمر

ومن محاسن الشام »بَرزَة«، وهي من متنزهات دمشق التي يرحل إليها، وهي شمال ضمير وبها مقام نبي الله إبراهيم الخليل عليه السلام، وقد تقدم سبب تسميتها برزة.

وما أحسن قول الشيخ محمد بن نباتة:

طاب مقام المرء مع شادن برَّزت العيش به برزة

وساعدتني الراح لما انثنى ولان بعد المنع والعزه

فيا لها من ربوة خلفه قد أطلعتني فوقها المزه

وإليها ينسب التين البرزي، والتين أصناف: وهو مزي، برزي، ماسوني، رومي، بعلبكي، كعب الغزال، غريب، طيفور، شتوي، جبلي، حفيراني، ملكي، عسيلي، مكتّب، مجهول، ورق الطير.

قال »ديسقوريدوس«: التين يجلب العرق، ويقطع العطش، ويسكن الحرارة. واليابس منه مغذ مسخن ومعطش ملين للبطن، ليس بموافق لسيلان المواد إلى المعدة والأمعاء، وموافق للحلق وقصبة الرئة والمثانة والكلى، ومن به ربو والذين تغيّرت ألوانهم من أمراض مزمنة والذين يصرعون والمجانين.

وقال »جالينوس«: في الثامنة وأما التين اليابس فقوته حارة في الدرجة الأولى عند انقضائها، وفي الثانية عند مبدأها، وله لطافة وبهاتين الخصلتين صار يفي بإنضاج الأورام الصلبة، ويحللها، وقد ينبغي إذا قصدت في استعمالك إياه أن تخلط معه الحنطة في الإنضاج ودقيق الشعير للتحليل. والتين اللحيم أكثر إنضاجاً والماء الذي يطبخ فيه التين طبخاً كثيراً فإنه يصير شبيهاً بالعسل في قوامه وقوته معاً. والتين الطري قوته ضعيفة بسبب ما يخالطه من الرطوبات، والنوعان جميعاً من اليابس والطري يطلقان البطن. وأما التين البري فقوته حارّة محلِّلة، وكذلك التين البستاني إذا لم ينضج، ومزاج شجرة التين حار كما يدل عليه عصارة ورقة، فإن كل واحد من هذين يسخن إسخاناً شديداً، وكل واحد منهما يلذع ويجلو جلاء قوياً، ويحدث في البدن قروحاً ويفتح أفواه العروق التي في المعدة، ويقلع الثآليل وينثرها نثراً، وهو مع هذا يسهل البطن. وقضيب شجر التين له حراقة ولطافة مزاج بحيث أنك إذا وضعته على اللحم اليابس في القدر يهريه.

وقال صاحب »اللقط«: التين حار رطب منفعته أنه يجلو دمَّل الكلى والمثانة، ويؤمن من السموم، وهو أغذى من جميع الفواكه. ومضرته أن يحدث نفخاً وغلظاً. دفع مضرته بشراب الكسنجبين. واستعماله على الريق منفعته عجيبة في تفتيحه مجاري الغذاء خصوصاً مع الجوز واللوز. والتين اليابس ينفع الصدر ويجلو. وشراب التين يدر البول وينفع السعال المزمن وأوجاع الصدر وأورام القصبة والرئة، ويفتح السدد والكبد والطحال. وورق التين الأسود بماء المطر يسود الشعر.

وبالإسناد إلى النبي (صلعم) أنه أهدي إليه طبق من تين، فأكل منه وقال لأصحابه: كلوا فلو قلت إن فاكهة نزلت من الجنة قلت هذه، لأن فاكهة الجنة بلا عجم فكلوها فإنها تقطع البواسير وتنفع من النقرس.

وما أحسن قول ابن خفاجة:

وسود الوجوه كلون الصدود	تبسَّمن تحت عبوس الغبش
إذا ما تجلّى بياض الضحى	تطلعن في وجهه كالنمش
كأني أقطف منها ضحى	ثُدِيَّ صغارِ بنات الحبش

ومن تشابيه ابن المعتز قوله فيه:

أهلا بتين جاءنا مبتسماً على طبق

يحكي الصباح بعضه وبعضه يحكي الشفق

كسفرة مضمومة قد جمعت بلا حلق

وقال مؤلفه البدري رحمه الله تعالى:

نوافج المسك حكى تيناً تراه في الغلس

أو فم ظبي سال منه الريق لما أن نعس

ومن ألغاز الصلاح الصفدي قوله:

أي شيء طاب أكلا ناعم في الحلق ليِّن

كيف يخفي عنك يوماً وهو في التصحيف بيِّن

ومن محاسن الشام »القابون«، وهي حسنة الماء والهواء، وهما قابونان فوقاني وتحتاني، وبهما أرض »مصطبة السلطان«، وهي مصطبة في قدر فدان، يصعد إليها في نيف وعشرين درجة من جهاتها الأربع، وفيها قصر حسن البناء ينزل به الملوك والسلاطين عند توجههم إلى الأسفار.

وإلى هذا القابون ينسب الخيار.

قال إسحق بن سليمان: الخيار أبرد وأثقل وأغلظ من القثاء، لأنه في آخر الدرجة الثانية، وبرودة القثاء في وسطها، ولذلك صار الخيار أشد تبريداً وتطفئة، ومن قبل ذلك صار فعله في توليد البلغم الغليظ والإضرار بعصب المعدة، ويفججها أكثر من فعل القثاء، لأنه أثقل وأبعد انهضاماً وأكثر إتعاباً للمعدة، فإذا عسر انهضامه وبعد استحالته، تولد عنه الخلط البارد الغليظ، لأن سائر الفواكه إذا عسر انهضامها وبعدت استحالتها تعفنت وولَّدت خلطاً رديئاً مذموماً شبيهاً بكيفية الأدوية المسمومة، وأسبقها إلى ذلك وأخصها به الخيار، لأنه أعسر انهضاماً بالطبع. والمختار منه ما كان جسمه صغيراً وحبه رقيقاً غزيراً متكاتفاً. وأفضل ما يؤكل منه لبه فقط لأنه أسرع انهضاماً وأسهل انحداراً.

وقال الغافقي: يوافق الكبد والمعدة الملتهبتين. ولبه ألطف من لب القثاء\، وإذا أكل اليسير منه طيَّب النَفَس.

وقال أمين الدولة بزر[122] الخيار بارد في الثالثة، نافع من احتراق الصفراء، ومن الورم الحار في الكبد والطحال، ومن أوجاع الرئة الحارة وقروحها.

وقال ابن الجوزي: أبرد مزاجاً من القثاء، وهو رديء للمعدة يهيج القيء، ويحدث وجع الخاصرة، وينبغي لآكله أن يتبعه بالعسل.

وقال الرازي: الخيار المخلل مبرِّد مطف جداً بمقدار حموضته وعتقه، إلا أنه طويل الوقوف في المعدة، وينبغي أن لا يؤكل مع الألوان الغليظة، ويؤكل مع الأسفيذباجات، وإن سقيت امرأة من قشر الخيار اليابس وزن أربعة دراهم نفع من عسر الولادة، والله أعلم.

وما أحسن قول عسى العالية[123] فيه:

خيارة أهديت إلينا ... من كف من يجلب السرورا

كأنها إذ قطعتُ منها ... كافورة ألبست حريرا

القثاء بارد رطب، ينفع الحمَّيات المحرقة، ويسكن الحرارة والصفراء والعطش، ويدر البول، ويحدث وجع الخواصر، رديء الكيموس، يهيج لمن داوم عليه الحمَّيات.

وقال الرازي في كتابه »دفع مضار الأغذية«: القثاء أخف من الخيار، وأسرع نزولاً، وهو أيضاً يبرد ويرطب، وليس يسخن البدن، بل كثيراً ما يبرد أصحاب الأمزجة الحارة، ولا يحتاج المحرورون إلى إصلاحه إلا أن يكثروا منه. وقد يصلح ما تولد منه في البطن من الثقل والنفخ الجوارش الكموني والسفرجلي ونحوهما. والقثاء والخيار والقرع من طعام المحرورين ويضر المبرودين، وينبغي أن لا يكثروا منه ويتلاحقوا ضرره بالشراب القوي.

وفيه يقول ابن المعتز بالله:

انظر إليه أنابيباً منضَّدة ... من الزبرجد خضراً ما لها ورق

---

[122] كذا والأصح بذر.

[123] كذا الأصل.

إذا قلبت اسمه بانت محاسنه   وصار مقلوبه إني بكم أثق

ومن لطائف السلامي قوله:

وقثاءة مثل هلال السماء   ولكنها ألبست سندسا

عراقية لم يذب جسمها   هزالاً ولم تحس فيمن حسا

زبرجدة حسنت منظراً   وكافورة بردت ملمسا

على رأسها زهرة غضة   كنجم الظلام إذا عسعسا

جاء بها مغرس طيب   من الأرض أكرم به مغرسا

لها أخوات لطاف القدود   إذا ما تبرجن خضر الكسا

محجبة عن شموس النهار   بأردية كنسيم المسا

تقوَّس في حين ميلادها   ولم أر ذا صغر قوسا

يطول اللسان بإطرائها   ويصبح من ذمها أخرسا

ومن محاسن ابن خطيب داريا قوله في الفقوس:

شبهت حين بدا الفقوس مبتهجاً   على الرياض وحبٌ فيه ماسور

مخازن من لجين لفَّ ظاهرها   بسندس حشوها حبات كافور

ومن محاسن الشام »بيت لهيا والعنابة«، ومن الناس من يقول »بيت الآلهة«، وهو مكان مبارك يزار، ويقال إن حواء عليها السلام كانت مقيمة بهذا المكان. ونقل بعض المؤرخين قال: كانت حواء عليها السلام في »بيت لهيا« وآدم عليه السلام في »بيت أبيات«، وهابيل في »سطرا«، وقابيل في »قينية«.

فائدة عن عبد الرحمن بن يحيى بن إسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر قال: كان خارج باب الساعات صخرة يوضع عليها القربان فما تُقُبِّل منه، جاءت نار فأحرقته، وما لم يُتقبَّل بقي على حاله، وكان هابيل صاحب غنم، وكان منزله في »سطرا«، وكان قابيل صاحب زرع، وكان منزله في »قينية«، وكان آدم في »بيت أبيات«، وكانت حواء في »بيت لهيا«، فجاء هابيل بكبش سمين من غنمه فجعله على الصخرة فأخذته النار، وجاء قابيل بقمح غلته فوضعته على الصخرة فبقي على حاله، فحسد قابيل وتبعه في هذا الجبل يريد قتله حتى صار من أمره ما صار.

قال بعض المؤرخين: وهذه الصخرة هي الآن في الجامع عند باب جيرون بالقرب من »حاصل الزيت«، وهي صخرة سوداء[124] مقرورة.

وأما »العنابة« فهي محلة الآن تشتمل على دور وقصور، والسبب في تسميتها أن كاهناً في زمن الروم كان يتعبد في صومعة بتلك الأرض، فحصل له علة أشرف منها على الهلاك، فنزل عنده تاجر من تجار الروم، ومن جملة متجره خمسة أحمال عناب، فحلها ونشرها، وكانت دمشق ممحلة من العناب وليس يوجد بها حبة عناب، فصار هذا الكاهن يتناول منه وقد طاب له. فلما أصبح جاء إليه الطبيب فوجده قد نصل من تلك العلة، ووجد الكاهن في نفسه نشاطاً، فقال له ما الذي استعملت البارحة، قال الشيء الفلاني ونسي أن يذكر له العناب، فقال الطبيب ولعلك استعملت عناباً، قال نعم، ومن أخبرك بذلك، قال لعلمي أن علتك هذه لا يبرئها سواه وهو معدوم، واختشيت أن أعلق خاطرك به. فزرع الكاهن الأرض التي حول صومتعه جميعها عناباً وتقرب بها في كل من احتاج منها إلى شيء يأخذه حتى يقال إن في الإسلام وجد من ذلك العناب فرد شجرة[125] وبنى ما حولها فسميت تلك المحلة بها، والله تعالى أعلم.

العناب حار رطب في وسط الدرجة، والحرارة فيه أغلب من الرطوبة، ويولِّد خلطاً محموداً إذا أكل أو شرب ماؤه ويسكِّن حدة الدم، وحراقته وهو نافع من السعال ومن الربو ووجع الكليتين والمثانة ووجع الصدر. والمختار منه ما عظم حبه، وإن أكل قبل الطعام فهو أجود.

وقال الإسرائيلي: رطبه يتولد عنه دم بلغمي وهو أفضل من يابسه، وإذا كان نضيجاً لين الطبيعة، ولا سيما اليابس منه، وإذا كان غضاً عفصاً حبس الطبيعة، وسكن هيجان الدم وحدته،

---

[124] لا تزال هذه الصخرة موجودة في مسجد دمشق على هذه الصفة إلى اليوم، والناس يذكرون أنها صخرة القربان.

[125] تعبير سقيم يعني شجرة واحدة.

وليس بمسكن للدم الغالب عليه الرطوبة.

وقال الشريف: العناب إذا جفف ورقه، وسحق ونثر على الأكلة نفع من ذلك نفعاً لا يبلغه غيره من الدواء، وشرابه بارد رطب يصلح مزاج الدم، ويلطفه من احتراق، وينفع من احتراق الكبد، وخشونة الصدر ووجعه، والسعال اليابس، والحصبة والجدري. وصفته يؤخذ مائة حبة يترك عليها خمسة أرطال ماء يغلي حتى ينضج العناب، ويصفى من الماء ثلاثة أرطال، ويضاف إليه ثلاثة أسنان سكر وبياض بيضتين مضروبة بالماء، ويرفع على النار، ويحرَّك حتى ينحلّ السكر، فإذا صار له قوام حُطَّ.

وفيه ألغز الأمير سيف الدين المشد:

وأحمر اللون قان يعزى إليه الخضاب
ما فيه عين وناب وفيه عين وناب

ومن معاني ديك الجن قوله بقافيتين:

كأنما العناب في دوحه لما تناهى حسنه وابتسم
أقراط ياقوت تبدَّت لنا أو أنمل قد قرطت بالعنم

ابن سهل الإشبيلي قبل إسلامه في العناب الأخضر:

هات اسقني القهوة في سبتنا
فإن يوم السبت يوم السرور
أما ترى العناب في دوحه كأنه رطب قلوب الطيور[126]

ومن محاسن الشام أرض »سطرا ومقرى«، وهما من الأراضي الطيبة الفيحاء. وفيها يقول جلال الدين ابن خطيب داريا:

خليليَّ إن وافيتما الشام بكرة

---

[126] يشير إلى البيت المشهور:

كأن قلوب الطير رطباً ويابساً لدى وكرها العناب والحشف البالي

وعاينتما الشقراء[127] والغوطة الخضرا

قفا واقرءا عني كتاباً كتبته

بدمعي لكم مقرى[128] ولا تنسيا سطرا[129]

وفيهما يقول ابن عنِّين:
ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة

وظلك يا »مقرى« عليَّ ظليل

»دمشق« فلي شوق إليها مبرِّح

وإن لجَّ واش أو ألح عذول

بلاد بها الحصباء درٌّ وتربها

عبير وأنفاس الشمال شمول

تسلسل فيها ماؤها وهو مطلق

وصحَّ نسم الروض وهو عليل

وتلطف شيخ الشيوخ بقوله:
قالوا أما في جلق نزهة تُنسِّيك من أنت به مغرى

يا عاذلي دونك من لحظه سهما ومن عارضه سطرا

وبينهما متنزه يسمى باليلكي، يجتمع فيه الناس أيام زهر السفرجل، ويسيبون الماء تحت أشجاره، ويوقدون في ظلمة الشهر قشور البيض، ويطلقونها في الماء، ويعلقون قشور النارنج موقدة في الأشجار، ويضربون الخيام في بستان الحاجب، ويقطعون فيه أوقاتاً من اللذة والانشراح

---

[127] توريات عن أسماء قرى محيطة بدمشق.
[128] توريات عن أسماء قرى محيطة بدمشق.
[129] توريات عن أسماء قرى محيطة بدمشق.

يعجز الوصف عنها.

وفيها يقول الشيخ علاء الدين بن المشرف المارديني:

انظر إلى يلك زهت أزهاره وزُرْهُ، فالزورة قد تعيَّنت

أشرقت الأرض بنور ربها وأخذت زخرفها وازيَّنت

وأنشدني بدر الدين محمد الأزهري الناسخ المعروف بفليفل فيه:

لله من يلك بديع حسنه قد ضمَّ شملي بالذي أهواه

ما زال يفرش لي بساطاً أخضرا فرعى الإله رياضه وكلاه

وفيه يقول ابن قرناص:

ويلك قد بدت فيه معان تطيب بها الندامى والمدام

يسامرك النسيم إذا تغنت حمائمه ويسقيك الغمام

ومنه قوله فيه:

قد أتينا نبغي زيارة يلك قد حبانا بالجود والإكرام

ناولتنا أيدي الغصون ثمارا أخرجتها لنا من الأكمام

ومن محاسن الشام أراضي المزارع، وهي خضرة مع الفلاة وكثرة المياه. ومن خصوصياتها الهليون.

قال ابن البيطار في مفرداته: الهليون ورقه كورق الشبث، ولا شوك له البتة، وله بزر مدور أخضر ثم يسودُّ، ويحمرُّ، وفي جوفه ثلاث حبات كأنها حب النيل صلبة، منه برّي كثير الشوك، وهو الذي يسمى بعجمية الأندلس أسر عين.

وقال جالينوس: في السادسة وقوته قوة تجلو وليس لها إسخان ولا تبريد ظاهر، ولذلك صار يفتح السدد من الكبد والكليتين.

قال (ديسقوريدس): وإذا سلق سلقة خفيفة وأكل لين البطن وأدرّ البول. وإذا طبخت أصوله وشرب طبيخها نفع من به عسر البول (أو يرقان) ومن به عرق النساء ووجع الأمعاء.

(قال ابن ماسويه): ويزيد في الباه ويفتح السدد التي تعرض في الكبد والكلى، وينفع من به وجع الظهر العارض من الريح والبلغم، وينفع من وجع القولنج.

قال (الرازي): وربما غثى ولا سيما إذا لم يسلق، وليس يحتاج المبردون إلى إصلاحه وأما المحرورون فليأكلوه بعد سلقه وتصفيته بالخل والمري.

وقال ابن الجوزي في »لقط المنافع«: الهليون حار رطب معتدل، يولد المني، ويحرك شهوة الجماع، ويدر البول، وفيه الجلاء، وكذلك يفتح السدود ويؤكل مطبوخاً باللحم ومصلوقاً بالزيت والمري والتوابل، وغذاؤه متوسط.

ونقلت من »عجائب المخلوقات« لابن الأثير قال: الهليون قضبان برية ينبت بنفسه في المواضع الندية التي تجمع فيها مياه الأمطار، وقد نقل إلى البساتين فأفلح. وأجوده الغض البستاني المنعطف، وهو حار رطب يفتح سدد الأحشاء وينفع عرق النساء، مطبوخاً وينفع من القولنج البلغمي والريحي، وينفع من عسر البول، ومن عسر الحبل، وينفع لوجع الظهر، ويزيد في الباه، وبزره جيد لوجع الضرس.

وذكر القزويني قال: حكى لي صديق أربلي قال: بجبال أربل هليون كثير، وكان عامل الناحية يتخذ منه شراباً في كل سنة يبعث به إلى صاحب إربل، فعمله سنة، وبعث به فوقعت الأكراد الحرامية على القفل[130] فنهبوه ورأوا ذلك الشراب في البراني[131]، فحسبوه عسلاً فأمعنوا في أكله فغلب عليهم الإسهال حتى ضعفوا عن الحركة، فمرَّ المسافرون فرفعوا أمرهم لصاحب إربل، فأرسل إليهم فقبضوا عليهم، وأدخلوهم محملين على الدواب، والناس يضحكون منهم ويقولون هؤلاء سكارى الهليون. فتبصر في تأثيره ومنافعه.

وفيه يقول كشاجم:

وباقة هليون أتت وهي غضة

---

[130] القافلة.

[131] الجرار.

فشبهتها تشبيه ذي اللب والفضل

برشق نبال جمِّعت من زبرجد

مشنفة الأعلى مفضضة الأصل

ومن خصوصياتها الطرخون. قال ابن البيطار: في مفرداته هو نبات طويل الورق دقيق الساق، يعلو على وجه الأرض نحواً من شبر إلى ذراع ونصف، وهو من بقول المائدة، ينهض الشهوة، ويطيب النكهة، وإذا شرب الماء عليه طيَّبه.

وقال صاحب »الفلاحة«: الطرخون صنفان بابلي طويل الورق، وورومي مدور الورق، وهو من بقول الصيف، وطعمه حريف لذاع في وسط الدرجة الثانية، بطيء في المعدة عسر الانهضام، يجفف الرطوبات، وينبغي أن لا يكثر منه المبردون، وهو يطفئ حدة الدم ويقطع شهوة الباه، وعسر انهضامه لكثرة دهنيته، فلهذا صار بطيء الغذاء، ويختار منه ما كان طرياً غضاً قريباً من ابتداء النبات، لأن ذلك أقل لدهنيته، ويؤكل معه الكرفس لأنه يمنع ضرره ويجيد انحداره وانهضامه.

وقال التميمي: الطرخون يخدر اللهاة واللسان بما في طبعه من الحرافة الكافورية اللطيفة، وفي طعمه شيء من طعم العاقر قرحا، وقد ينفع مضغه من يكره شرب الأدوية المطبوخة فلا يلبث في معدته ويدخل ماؤه مع ماء الرازيانج الأخضر في الشراب الهندي المسمى شراب الكدر النافع من فساد الهواء المانع لكون الجدري والحصبة، وهو من أنفس أشربة الملوك الهندية وملوك خراسان، وهذا من خاصة ماء الطرخون، ويمنع من حدوث الوباء فافهم ذلك.

وقال ابن الأثير: الطرخون متى جعل في أصوله الملح جوّده وألقحه.

وعاقر قرحا هي أصل الطرخون الجبلي، وهو حار يابس، وفيه قوة مخدرة مجفف الرطوبات إذا مضغ نفع من القلاع، ويطيِّب البوارد إذا ألقي فيها، ويقوي المعدة غير أنه يعطش ويحدث وجع الحلق.

ومن خصوصياتها الكرنب، وليس يوجد بالبلاد المصرية، وهو صنفان النبطي وهو المشهور، وخوزي وهو غليظ الورق جداً شديد الخشونة. والكرنب النبطي الأندلسي وهو شبيه

بالسلق صغير القلوب وأشد رخوصة من القنبيط.

وقال جالينوس: الكرنب في السابعة، وقوته قوة تجفيف إذا أكل وإذا وضع من خارج، ولكنه ليس بظاهرة الحدة والحرافة بل قوته قوة تبلغ به إلى إدمال الجراحات وإشفاء القروح الخبيثة، والأورام التي قد صَلُبت وصارت في حد ما يعسر انحلاله. ويذر الكرنب يقتل (الدود) إذا شرب، وقضبان الكرنب إذا أحرقت يصير منها رماد يجفف تجفيفاً شديداً، حتى أن قوته تكون قوة محرقة، ومن أجل ذلك صاروا يخلطون معه شحماً عتيقاً ويستعملونه في مداواة وجع الجنبين إذا عتق، وفي سائر العلل الشبيهة بهذا النوع من الوجع، لأنه يحلل تحليلاً قوياً.

وقال ديسقوريدوس: في الثانية إن سلق سلقة خفيفة وانحلَّ سهَّل البطن، وإن سلق سلقاً جيداً أو سلق مرتين بماء بعد ماء أمسك البطن، ولقد زرع بمصر فما أكل لمرارته ولا نبت بعد جهد. وإذا أكل الكرنب نفع من ضعف البصر والارتعاش، وإذا أكله المخمور سكن خماره. وعصارة الكرنب إذا خلط بالشراب وشرب نفع من لسعة الأفعى وإذا خلط بدقيق الحلبة والخل، وتضمد به نفع من النقرس ووجع القروح الوسخة العميقة، وإذا احتملته المرأة مع دقيق الشيلم أدرَّ الطمث. وورق الكرنب إذا دق ناعماً وتضمد به وحده أو مع سويق نفع من كل ورم من أورام البدن، ومن الأورام البلغمية ومن الحمرة، ويبرئ الشري والجرب المتقرح. وإذا خلط بالملح قلع النار الفارسية، ويمسك الشعر المتساقط. وإذا أكل الورق نيئاً مع الخل نفع المطحولين، وإذا مضغ ومص ماؤه أصلح الصوت المتقطع، وزهره إذا عمل منه فرزجة واحتملته المرأة بعد الحبل قتل ما في بطنها.

وقال أرجنجانس: الكرنب ينفع السعال القديم والنقرس إذا صُبَّ طبيخه على المفاصل، وإن أطعم الصبيان نشأوا نشوءاً سريعاً، وعصيره إن شرب بالنبيذ أياماً ذهب بوجع الطحال. ورماده يبرئ حرق النار ويبرئ عصيره الحكة والجرب، وإن خلط بالزاج والخل وطلي به على الجرب والبرص نفع، وأكله يجلب النوم ويصفي الصوت وينفع من عضة الكلب.

وقال الرازي: مرق الكرنب ينفع من السعال ومن وجع الظهر العتيق ووجع الركبة.

وقال مسناوس: أكل الكرنب يحسن اللون وإن سلق مرتين، ثم طُيِّب بكمون وزيت وملح وفلفل وغلي عليه نفع أصحاب العقر في الأمعاء. والماء الذي يغسل الكرنب به أو يطبخ فيه ينقي البدن، ويخفف الصداع وينقي العينين اللتين يجد فيهما صاحبهما ظلمة من رطوبة أو بخار غليظ،

وينفع الأحشاء، ولا سيما الطحال الغليظة، والذين غلبت عليهم السوداء إلا أنه ينقي العروق.

وقال ابن ماسويه: الكرنب مولد للمرة السوداء والدم العكر، وإن طبخ باللحم السمين قلَّت غائلته. وفي الكرنب الشامي صنف آخر سمي الموصلي، وله ورق أخضر جعل مثل ورق الكرنب الأندلسي غير أنه منبسط على وجه الأرض، وينبت بمقامات العجوز. وبدمشق كرنب آخر بري ثمره مدور أبيض اللون على هيئة الفلفل الأبيض، وهو ينفع من نهش الأفاعي، وعروقه إذا جففت وسحقت وسقي منها وزن درهمين بشراب ينفع من نهش الأفاعي.

وأما القنبيط الذي يدعى عند المصريين بالكرنب، فهو أغلظ وأقوى وأبطأ في المعدة من الكرنب، وورقه الناشيء حواليه أقل ضرراً، وأصلح من جمارته الصفراء الناشئة في وسطه للمائية الغالبة عليه. واجتنابه كله أحمد لتوليده الدم العكر، والإكثار منه يضعف البصر، وهو مطلق للبطن، كثير البخار يورث أحلاماً رديئة وسدداً مرة سوداء، وأصلح ما يؤكل مطبوخاً باللحم السمين، وبيضه الأصفر الذي يسمى جمارة يهيج القراقر والنفخ، ويزيد في المني.

وقال الطبري: القنبيط بارد يابس غليظ عسر الانهضام، رديء الغذاء، وإذا طبخ بيضه الذي هو ثمره وصُبَّ ماؤه ثم أكل بالخل والزيت والمري زاد في المني.

وقال الرازي: لمائه خاصية في منع السّكر، وخاصية بزر القنبيط إفساد المني إذا احتملته المرأة بعد الطهر من الطمث.

وقال الإسرائيلي: وإذا شربه المخمور حلَّل خماره، وإذا شرب قبل الشراب منع السكر. والله أعلم.

وفيه يقول مؤلفه:

بغضي في قنبيط قد حكى والفكر صارم
لرؤوس من يهود قطعت تحت العمائم

ومن خصوصياتها الباذنجان الأحمر الرفيع، والأبيض القليل البزر الرقيق القشر.

قال ابن البيطار: اسمه فارسي معرب، ويسمى بالعربية الأرنب.

قال الرازي: جيد للمعدة التي تقيء الطعام، ورديء للرأس والعين، يولد ماء أسود يسير المقدار، ويتولد عنه كثير القوابى والبواسير والرمد والأمراض السوداوية، ويفتح سدد الكبد والطحال، وإذا سلق ثم قلي بدهن اللوز ذهب عنه أكثر حدته وحرافته، والمشوي منه أصلح للمعدة التي تقيء الطعام، والمطبوخ بالخل أوفق للمحرورين وأصحاب الأكباد الحارة والأطحلة الغليظة.

وقال ابن ماسويه: والأحمد في اتخاذه أن يقشر ويشق ويحشى ملحاً ويترك وقتاً طويلاً في الماء البارد، ثم يصب ذلك الماء عنه ويعاد عليه ماء آخر، ثم يسلق ويطبخ بالحملان والجدايا والدجاج، وإن أكل مقلواً بسيرج وخل ومري يمتص بعد أكله ماء الرمان. وكثرة أكله تولد السرطانات والصلامات والجذام والسهر، وتكثر البلغم والبواسير إلا أن أقماعه إذا جففت في الظل، وسحقت نفعت البواسير بعد أن تطلى بدهن مسخن.

وقال بعضهم في وصف الباذنجان يشبه أنوف الزنج، وأذناب المحاجم، وبطون العقارب، وبزر الزقوم. فقيل له إنه يحشى باللحم المقلي بالزعفران، فقال لو حشي بالتقوى ما أفلح أبداً.

وقال الشاعر:

وإذا صنعت غداءنا ... فاصنعه غير مبندجي

إياك هامة أسود ... عريان أصلع كوسجي

وقال مؤلفه البدري فيه وهو مقلي:

بذنجة شبهتها ... لما قلاها واخترم

يسقط زنج رافد ... وزند من بعض الخدم

قال فيه أيضاً:

بذنجكم كزنوج ... كواسج في التئام

خضر الطراطير هاموا ... بالرقص تحت الخيام

ومن خصائصها الكراث. قال الغافقي: الشامي صنفان منه صنف أعناقه طويلة ورؤوسه صغار، وصنف منه أعناقه قصيرة، ورؤوسه مدورة كبار أطيب طعماً من الأول هو المسمى

بالقفلوط، وهو مما يؤكل أصله دون فروعه. وهو في الثانية نافخ رديء الكيموس تعرض منه أحلام رديئة ويدر البول ويلين البطن، ويلطف ويحدث غشاوة في العين، ويدر الطمث ويضر بالمثانة المتقرحة والكلى، وإذا طبخ بماء الشعير أخرج الفضول التي في الصدر وورقه إذا طبخ بماء البحر والخل وجلس النساء فيه نفعهم من انضمام فم الرحم والصلابة العارضة له، وقد يسلق سلقين بماء بعد ماء ثم ينقع بماء بارد حتى يحلو طعمه ويقل نفخه.

وقال الرازي: يهيج الباه والأنعاظ، وهو أسكن وأقل في الحدة والإعطاش من البصل، وأغلظ جرماً وأبطأ نزولاً وانهضاماً.

وقال ابن ماسويه[132]: ينفع من القولنج، وإذا أكل الكراث أو طبخ نفع من البواسير الباردة، وورق الكراث الشامي من خاصيته النفع للرحم التي فيها رطوبة تزلق الولد.

وكراث المائدة المسمى عند أهل العراق بالقرط، وفي الشام بالبقل وفي الحجاز بالكراث.

وقال ابن اسحق[133]: هو الكراث النبطي، ويخرج من تحت الأرض أوراقاً ثلاثاً دون أعناق في لون ورق الكراث الأندلسي وشكله، إلا أنه دقيق جداً، وما تحت الأرض من أصله قدر عقدتين أو ثلاث، أبيض مستطيل غير مستدير.

(ديسقوريدوس: والكراث النبطي هو أشد حرافة من الكراث الشامي)، وفيه شيء من قبض، ولذلك ماؤه إذا خلط بالخل ودقاق الكندر قطع الدم وخاصة الرعاف، ويحرك شهوة الجماع، وإذا خلط بالعسل ولعق كان صالحاً لكل وجع يعرض في الصدر وقرحة الرئة، وإذا أكل نقَّى قصبة الرئة، وإذا أدمن أكله أظلم البصر، وهو رديء للمعدة، وإذا تُضمِّد به مع السماق قطع الثآليل ويبري الشري، وإذا تضمد به مع الملح قلع خبث القروح وإذا شرب من نوره وزن درهمين مع مثله من حب الآس قطع نفث الدم من الصدر.

وقال ابن ماسويه: حار في الدرجة الثالثة يابس في الدرجة الثانية، مصدع، يولد بخاراً ردئاً ويري أحلاماً مرعبة، ينفع من السدد العارضة في الكبد المتولدة من البلغم، وإن سلق وطحن وأكل وضمد به البواسير العارضة من الرطوبة نفع منها.

---

[132] في »مفردات ابن البيطار«: »ابن ماسه«

[133] في »مفردات ابن البيطار«: »ابن سمحون قال علي ابن محمد.. إلخ«.

وقال الرازي: مفتق لشهوة الطعام منعظ معين على الاستكثار من الباه، ولا يصلح لأصحاب الأمزجة الحارة ومن يسرع إليه الرمد والامتلاء إلى رأسه.

وقال اليهودي: خاصيته إفساد الأسنان واللثة.

قال مونس[134]: إذا ضمد به على موضع لسعة الأفعى نفع منها.

(ماسرجويه): وبزره إذا دهنت به المقعدة أذهب البواسير، وأكله يخرب الأضراب وينثرها، غير أنه إذا وجد في الأمعاء بلغماً أساله، وإذا شرب من بزره ملعقة أحدث انتشاراً صحيحاً.

وأما الجزر قال ابن الجوزي: حار رطب، يحرك الباه، ويدر البول، بطيء الهضم دفع مضرته إنضاجه وفيه نفخ. إصلاحه بالخل والمري والخردل.

ومن تشبيه ابن المعتز قوله:

أنظر إلى الجزر الذي ... يحكي لنا لهب الحريق

كمدية من سندس ... وبها نصاب من عقيق

وبها الزعتر. قال ابن الأثير: الزعتر نوعان بستاني وبري. وهو حار يابس محلل ملطف، يسكن وجع الضرس إذا مضغ، وينفع من أوجاع الوركين، وينفع الكبد والمعدة، ويخرج الديدان، ويدر البول، ويمري ويشهي الطعام، ويحلل الرياح، وقدر ما يوجد منه مثقال، وأكله ينفع من غشاوة البصر الحادث من رطوبة، ودهنه ينفع الصدر والرئة؛ وينفع من لسع الحيات لا سيما النديّ منه. وذكروا أن القنفذ وابن عرس إذا تناهشا الأفاعي والحيات تعالجا بأكل الزعتر البري، والله أعلم.

وفيه يقول ابن وكيع:

زعتر بل أدق من أرجل النمل ... وأزكى من نفحة الزعفران

كسطور كسين نقطاً وشكلاً ... من يدي كاتب لطيف المعاني

---

[134] في (مفردات ابن البيطار): »اسحاق بن عمران«.

وبها الفجل حار يابس، ،محرك الباه رديء الكيموس يهضم ولا ينهضم، لأنه يهضم بجوهره اللطيف، فإذا انحل ذلك الجوهر بقي جوهره الكثيف الذي فيه عاصياً على القوى الهاضمة لزجاً سريعاً إلى التعفن رديئاً للمعدة يدر البول، ويجلو المثانة، فإذا أكل على الريق أزال البلغم وقوّى المعدة، لكنه يضر الرأس والأسنان والعين، لكن ماءه يجلو العين وإذا طلي بمائه البهق زال، ومن طبخ الفجل باللبن الحليب، وشربه تنظفت مثانته من الرمل والحصى. والمطبوخ من الفجل يصلح للسعال المزمن العتيق والكيموس المتولد في الصدر، وإذا أكل الفجل قبل الطعام ليَّن البطن وأنفذ الغذاء، وإذا أكل بعده صار الطعام صافياً ولا يدعه يستقرّ. وماء ورقه يفتح سدد الكبد ويزيل اليرقان، وينفع من نهش الأفاعي. وإن وضعت شدخة منه على العقرب ماتت، وماؤه أقوى من ذلك، وأين[135] لدغت العقرب من أكل فجلاً لم تضرَّه. ونَوْ ُر الفجل يحلل الرياح وينفع من النمش الكائن في الأعضاء وآثار الضرب والكلف. ومن أكل بزر الفجل مع العسل ذهب بعض فؤاده.

وبها السذاب. حار يابس، ينفع وجع الصدر، ويقاوم السموم ويشرب من يحذر السم من بزره وزن درهم مع ورقة شراب، يجفف ويقطعه ومن أغلى السذاب في سيرج وطلى به جسده لم يكن في ثيابه قملة، ومن آلمه ضرسه فأخذ ورق السذاب مع زبيبة سوداء فمضغه سكن.

وبها النعناع حار يابس، وفيه رطوبة تحرك به شهوة الجماع، ويقوي المعدة، ويسخنها ويجوّد الهضم ويسكن الفواق الحادث عن امتلاء، وينفع اليرقان وخصوصاً بشرابه وإذا تركت منه طاقات في اللبن لم يتجبن.

وبها الرشاد، حار يابس ملطف يقتل الدود، ويحلل الرياح ويقطع البلغم والرطوبة، إلا أنه يضر المعدة والمثانة.

وبها البقلة الحمقاء، باردة رطبة تنفع الضَرَس والصداع الحار، تضر المني وتقطع شهوة الجماع، دفع ضررها بالجرجير، تصلح للأمزاج الحارة والشباب في الصيف، وإذا شرب بزر البقلة مع السكر نفع السعال الحار، والأقباط تسميها رجلة.

وفيها يقول السراج الوراق:

وأحمقٌ أضافنا ببقلة

---

[135] **الأصح وإن.**

لنسبة بينهما ووصله

فمن أقلُّ أدباً من سفلة

قد مد ما بين الضيوف رجله

وبها الأسفاناخ[136]، حار معتدل رطب، وقيل بارد ينفع من السعال وخشونة الحلق، والصدر، ويقمع الصفراء والمرار، مضرته أنه يسيء الهضم، دفعها بمعجون الورد.

وبها الكرفس حار يابس، يحلل الرياح ويسكن الأوجاع، وينفع من عسر البول، ويخرج المشيمة، ويهيج الباه، وينفع المعدة وبردها، والسعال والطحال، وينقي الكلى والمثانة، ويفتت ويصدع الدماغ، إلا أن يضاف إليه الخس، يصلح للأمزاج الباردة والكهول في الشتاء، وأكله في الشتاء يذهب البلغم.

وبها السلق الأحمر والأبيض، حار رطب، وقيل بارد ملين للطبيعة، وبه تلطيف، يفتح به سدد الكبد والطحال، ينبغي لمن يأكله أن يطيِّبه بالخل والخردل، وأصل السلق مولد البلغم لا يوافق المعدة، وماؤه يذهب الحرارة من الرأس ويقلع الثآليل. مضرته يحرق الدم. دفعها.. والمري ينفع من عضة[137] الكلب إذا استعمل ورقه ضماداً بعد غسل الموضع بنطرون، ومن طلا رأسه بالسلق زالت الصيبان منه واسودّ شعره وتجعد وطال.

بها الهندباء، باردة رطبة، وقيل يابسة جيدها الرطب، يقوي المعدة، ويفتح سدد الكبد والطحال، والأحشاء، والعروق، ويقطع حرارة الدم، ويبرد الكبد الحارة، وأنفعها للكبد أمرّها، وماؤها المعتصر ينفع اليرقان الذي من السدد، مضرتها تبطئ بالهضم، دفع مضرتها بالرشاد، تصلح للأمزجة الحارة والشباب في الصيف.

وبها البصل، حار يابس، وقيل رطب، ينفع من تغير المياه ويفتق الشهوة، ويهيج الباه، ويزيد في المني، ويحسن اللون، ويقطع البلغم، وينظف المعدة، إلا أنه يثير الشقيقة، ويصدع الرأس، ويولد رياحاً ويظلم البصر، وكثرة أكل البصل تورث النسيان، وتفسد العقل، دفع مضرته الخل واللبن، يصلح الأمزاج الباردة، وإذا دق وعجن بالعسل ووضع على الكلف الغليظ والقوابي والبهق

---

[136] ما يعرف الآن بالسبانخ.

[137] ربما كانت كلمة (عضة) ناقصة، فأضفتها ليستقيم المعنى.

الأسود قلع ذلك، وإذا دق ناعماً وطلي به موضع الشعر نفع داء الثعلب، وإن أحرق كان أنفع، وينفع من نهش الحيات والكلَبْ الكَلِب.

وبها الثوم، حار يابس سخن مجفف، جيده القليل الحدّة، ويقوي المعدة، ويسخن المعدة مع البدن، ويقطع البلغم ويحل النفخ، ويصفي الحلق، ويحفظ صحة البدن، وينفع من تغيرت عليه المياه، والسعال المزمن، وأوجاع الصدر من البرد، ويخرج العلق من الحلق، وينفع من السموم، ويفتح السدد، إلا أنه يهيج الصفراء، ويضر الدماغ، ويصدع ويضعف البصر والباه، ولا يصلح بأن يأكله معتقل ولا مصدع وخلطه غليظ، والنيء منه يقتل الدود، والمطبوخ ينظف المثانة. ومن أخذ شيئاً مطبوخاً منه أو مقلواً بسيرج، وتحمَّل به أزال الحكاك عنه، ونفعه من عرق النساء، ومن أكل الثوم ولذغته العقرب لم تضره، وإن طلي مكان اللذغة بالثوم خرج السم من اللسع، وإذا مضغ على سن سكن ألمه، ومطبوخه ومشويه يسكن وجع الأسنان، ورماد الثوم إذا طلي بالعسل على البهق والقوابي نفع، ومن أراد أن يذهب ريح الثوم من فيه فليمضغ دقيق الباقلاء.

وبها الكسفرة[138] اليابسة، حارة مع قبض وقيل باردة[139]، تقوي المعدة المحرورة، لكنها تولد ظلمة البصر، ولا ينبغي الاستكثار منها لأنها تحرق الدم، وتعفنه وتقطع الشهوة وتفسد الدهن والرطوبة وربما قتلت.

وبها الكراويا، حارة يابسة تحلل الرياح وتقتل الدود العارض في الأمعاء وتسمن، وتنفع الخفقان والمغص، وترخي الرئة، دفع ضررها بالشعير.

وبها الكمون، كالكراويا وأقوى في تحليل الريح، حار في الثانية يابس في الثالثة، إذا غسل الوجه بمائه صفاه، فإن استكثر منه صفر اللون، وإذا سخن بالخل وشُم قطع الرعاف.

وبها القرع. قال جالينوس: في السادسة مزاجه بارد رطب، وهو منهما في الدرجة الثالثة، ولذلك صار عصير جرادته نافعاً من وجع الأذن الحادث عن ورم حار متى استعمله الإنسان مع دهن ورد، وكذلك جملة جرم القرع، وما دام نيئاً فطعمه كريه ومضرته للمعدة عظيمة. وقد رأيت إنساناً أقدم على أكله نيئاً فأحسَّ في معدته بثقل وبرد، وأصابه عليه غثيان وقيء. فإذا سلق فإنه

---

[138] وردت في كتب النبات والعقاقير بلفظ كسفرة وكسبرة وكزبرة.

[139] هذا قول (ديسقوريدوس) وقد تكلم على ذلك ابن البيطار في لفظ »كزبرة« من مفرداته بمقالة تدل على فضل وعلم.

يغدو غذاء رطباً، وانحداره عن المعدة سريع لرطوبته ولما فيه من الملاسة والتزليق، وإذا انهضم فليس خلطه برديء متى لم يسبق إليه الفساد قبل انهضامه، والفساد يعرض له من قبل إبطائه في المعدة، وعدم انحداره، ومهما أكل معه انقلب خلطه وتشبه به.

وقال ديسقوريدوس: يسكن الأورام البلغمية، وإذا طبخ كما هو وعصر وشرب ماؤه بعسل وشيء يسير من نطرون أسهل البطن إسهالاً خفيفاً.

وقال الرازي: بارد مولد للبلغم وهو طعام المحرورين، يطفئ ويبرد ويسكن اللهب والعطش، وينفع من الحميات، وإذا طبخ بالخل نقص من غلظه وبطؤ هضمه، وكان أشد تطفية للصفراء والدم، إلا أنه في هذه الحالة لا يصلح لأصحاب خشونة الصدر والسعال، وأما من به سعال وحمى فليطبخه مع كشك الشعير ومع الماش المقشر ودهن اللوز الحلو، وليجتنبه المبرودون والمبلغمون، لأنه يولد فيهم القولنج الغليظ، وإن أكلوه فليأكلوه مطبوخاً بالزيت مطيَّباً بالفلفل، وليشربوا عليه الشراب الصرف، فإذا وضع مع اللبن يصلح منه الخردل، وإذا وقع في الخل فإنه يصلح غلظه لكن لا يصلح برودته.

وقال إسحق بن سليمان: إذا لطخ بالعجين وشوي في الفرن أو التنور واستخرج ماؤه وشرب ببعض الأشربة اللطيفة سكن حرارة الحمى الملتهبة وقطع العطش.

وقال حبيش (بن الحسن): إذا شرب من مائه المستخرج بالشيّ فيكون مع عشرين درهماً من الجلاب أو وزن عشرة دراهم من السكر الأبيض، ومقدار ما يشرب منه أربعة آواق إلى نصف رطل ولحميته تسقط الشهوة، ودهنه في نحو دهن البنفسج جيد للحر والسهر.

وقال إسحق بن عمران: ماؤه يسكن الصداع إذا شرب أو غسل به الرأس، وقد ينوِّم من يبس دماغه إذا قطر منه في الأنف، وهو يلين البطن كيف استعمل، ولم يداوَ المبرسمون والمحرورون بمثله ولا أعجل نفعاً منه.

وقال الشريف: ماؤه المشوي بالعجين إذا اكتحل به يذهب صفرة العين الكائنة من اليرقان، وإذا اكتحل بماء زهره أذهب الرمد الحار، وقشر القرع اليابس إذا أحرق وذُرَّ على الدم المنبعث قطعه، وإذا أحرق وسحق وعجن بخل وطلي به البرص نفع منه، وإذا قشر حَبُّه ودق واستخرج دهنه انتفع به من وجع الآذان ووجع الأمعاء الحارة، ومرقة الفروج المطبوخة بالقرع منعشة

للمغشي عليهم من حدة الأخلاط الصفراوية في الحميات، وحراقة قشره اليابس تنفع من قروح الأعضاء اليابسة وهي جيدة لتطهير الصبيان ومن قروح الذكر وتجففها.

وعن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله (صلعم): »إذا طبختم قدرا فأكثروا فيها من الدبَّاء فإنه يشد قلب الحزين«.

وأنشدني شيخنا العلامة شهاب الدين المنصور:

يا عين أعيان الزمان ويا شيخ الشيوخ ومحيي الشرع

ما قرع الباب عليك امرء إلا وذاق حلاوة القرع

وبها الكمأة، وهي من خواصها. قال ابن البيطار في الثانية وهو أصل مستدير لا ورق له ولا ساق، لونه إلى الحمرة، يؤخذ في الربيع ويؤكل نيئاً ومطبوخاً.

وقال جالينوس: في الثامنة قوام جرم الكمأة من جوهر أرضي، وهي غليظة الكيموس قليلاً، إلا أنه ليس برديء، تورث عسر البول والقولنج، وأجودها ما كان من موضع فيه رمل قليل، والكمأة الحمراء قاتلة، وأجود الكمأة الشديد التلزز والإملاس والميل إلى البياض، وأما المتخلخل الرخو فرديء جداً في المعدة الحارة، يولد الأوجاع في أسفل الظهر والصدر ويولد السدد، وماؤها يجلي البصر، وإدمان أكلها يورث السكتة والفالج، وهي بطيئة الانهضام وينبغي لآكلها أن يقشرها وينقيها تنقية كبيرة ليصل إليها الماء ويخرج غلظها، وربما تدفن في الطين الحار يوماً وليلة، ثم تغسل ثم تسلقها بالماء والملح والفودنج والسذاب سلقاً بليغاً، ثم تؤكل بالزيت الركابي والمري والسعتر والفلفل. واليابسة من الكمأة أبطأ في المعدة وأكثر ضراً، وينبغي أن يشرب عليها النبيذ المعسل الصرف ويؤخذ الترياق والزنجبيل.

وقال ابن الجوزي: الكمأة نبات يتولد من عفونة الأرض الكثيرة الأمطار، يولد البلغم الشديد والأسود أشد غلظاً يولد السوداء، ويفسد النكهة، وهي من الأغذية الرديئة، لكن ماءها يجلو العين لقول النبي (صلعم): »الكمأة من المنّ وماؤها شفاء للعين« أخرجاه في الصحيحين.

وقال الغافقي في مفردات ابن البيطار: إن من أكلها ولسعه شيء من الهوام ذوات السموم مات ولم يخلصه الدواء البتة.

وبها اللوبياء. قال ابن الجوزي: منه أبيض ومزاجه بارد يابس، ومنه أحمر وفيه حرارة ونفخ، جيده الأحمر يدر البول ويولد خلطاً، ويغشى ويولد أحلاماً ردئية رفعها بالزيت والمري والخردل، ومنه غليظ وقليل صاف ينفع الأمزاج الباردة اليابسة، يصلح للكهول، نفخه أقل من الباقلاء.

وبها الأرز: حار قيل بارد، منفعته من لذغ المعدة، مضرته القولنج لأنه يحبس البطن، دفعها أن يطبخ بالدهن واللبن. وإذا طبخ الأرز بعد أن يغسل بدهن اللوز أو السيرج أو السمن أو الإلية[140] لم يحبس البطن، بل يسكن الوجع العارض في المعدة والأمعاء، وغذاؤه محمود معتدل يصلح للأمراض الحارة الرطبة، وإذا طبخ باللبن الحليب ولد السوداء لتوليده خلطاً غليظاً لكنه ينفع الباه.

الباقلاء[141]. بارد رطب وقيل يابس، أجوده الأبيض السمين وأرداه الطري، يحدث الحكة ويولد البلغم، ودفع مضرته بالسعتر والملح، ويؤكل بعده الزنجبيل، والباقلاء تنفع من السعال. مضرته يبلد الحواس، دفعها بإطالة نقعه وإجادة نضجه، وأكله بالفلفل والملح والسعتر مع الأدهان لما فيه من النفخ والترهل، والنوم والكسل، والسدد، يولد الأخلاط الغليظة، ويري أحلاماً رديئة، وإذا طبخ بقشره كان أردأ وأكثر توليداً للرياح، والباقلاء تجلو البهق من الوجه.

وفيها يقول القاضي جمال الدين أبو الحسن علي بن منصور الخزرجي صاحب »غرائب التنبيهات على عجائب التشبيهات«، وقد صلق قدامه الباقلاء:

وقدر بها تصلق الباقلا	قبيل الصباح لمن قد خمر
أتينا بها وسط زبدية	فكان كأحسن شيء حضر
فصوص من العاج مطبوقة	لها غلف من أديم البشر

ومن مجون ابن البيطار الدنيسري قوله:

شاقني حارس فول	زهره حاكى عيونك
وابتغى التعريض قلنا	لعن الله قرونك

---

[140] الإلية: دهن الخروف المحيط بالذيل.
[141] الفول.

ومن بديع ابن وكيع قوله:

إن للباقلاء نَوْراً ظريفاً
جلَّ في الحسن عن بديع مثال
قد حكى ضحوة لنا إذ تبدى
سُرَرَ الروم ضمخت بغوال[142]

ومن بديع المذكور ومقاصده قوله فيه:

فصل الربيع بدا لنا بنسيمه يدعو فتسرع نحوه الخلق
زهَّر الباقلا به فكأنه بين الرياض حمائم بلق

ومن تشابيهه الفائقة قوله:

كأن ورد الباقلاء إذ بدا
لناظريه أعين فيها حور
كمثل الحاظ اليعافير إذا
روَّعها من قانص فرط الحذر
كأنها مداهن من فضة
أوساطها فيها من المسك أثر
كأنه سوالف من خرّد
قد نبتت سوداً لها بيض الطرر

ومن لطائفه قوله فيه:

---

(142) عطر.

لي نحو ورد الباقلا لحظ سباني بالدعج

كأنما بياضه يلوح في ذاك البلج

خواتم من فضة بها فصوص من سبج

وله رحمه الله تعالى:

كلفت بنور باقلا سبتني

كمائمه فَسِرِّي فيه فاشٍ

إذا نزل الفراش عليه يوماً

حسبت النَّوْرَ أفراخ الفراش

وبها الذرة. باردة يابسة مجففة.

وبها الدخن. يابس يعقل.

وبها الماش، بارد رطب، جيده الأخضر الكبار يسهل الأخلاط المؤذية ويلين الصد، وينفع من السعال مع الحمى ويضعف الأسنان ويولد الرياح، بطيء الانهضام، وهو غذاء جيد للمحموم إذا طبخ بدهن اللوز.

وبها القرطم. حار رطب يسهل البلغم ويحلل الأورام الصلبة، وينقي الصدر والصوت، ويزيد في الباه، لكنه رديء للمعدة، مقدار الشربة منه خمسة دراهم.

وبها العدس. بارد يابس، جيده الأبيض الناضج، يسكن حدة الدم، ويقوي المعدة، مضرته بالماليخوليا والأعصاب والبصر دمه غليظ، وهو عسر الانهضام، يصلح الأمزاج الدموية والشباب في الصيف، ويكره لأصحاب السوداء، لأنه يتولد منه خلط سوداوي فيحدث فيهم الوسواس والجذام وحمى الربع، ويضر بالعين التي مزاجها يابس، وينفع العين التي مزاجها رطب، ومما يدفع ضرره الأسفاناخ[143] والسلق مع كثير من الأدهان. وينبغي أن يلقى على رطل من العدس سبعة

---

[143] **المعروفة اليوم بالسبانخ.**

أرطال من الماء حتى ينضج جيداً.

ولا ينبغي أن يخلط به حلو، فإنه يولد سدداً في الكبد، ومن أكثر من أكله أظلم بصره لشدة تجفيفه، ويقلل البول والطمث، فلا يقربه من يقطر في بوله.

وبها السمسم. حار رطب دسم مغثٍ معطش مسقط للشهوة، مرخ للحشا عسر الانهضام، إلا أنه يسمن ويحلل الأورام الحارة، وهو جيد لضيق النفس والربو، رديء للمعدة. دفع مضرته أن يؤكل بالعسل، ودهن السمسم هو السيرج محلل الأورام البلغمية والقولنج، وينفع السعال وخشونة الحلق، إلا أنه رديء لفم المعدة.

وبها بزر قطونا. بارد رطب، يجلو ويغسل وينقي ويطفي العطش إذا قلي، فإن ضرب في الماء حتى يرخي لعابه وشرب أطلق الطبيعة.

وبها الترمس. حار يابس، نفعه يقتل الدود وينفخ سدد الطحال، عسر الانهضام، يولد خلطاً بارداً، دفعها أن يؤكل بالخل، يصلح للأمزاج البلغمية والشيوخ في الشتاء.

وفيه يقول مهيار:

وترمس طاف به مهفهف كالقمر

من أسود وأصفر وأحمر وأخضر

فخلته لما أتى به فصوص جوهر

وبها الحمص. حار رطب، وقيل يابس والأسود أقوى جيده الكبار، ويجلو ويزيد في المني جداً، ويفتت الحصى ويحسن اللون طلاء وأكلا، ويصفي الصوت ويفتح السدد من الكبد والطحال، وينبغي أن يؤكل في الطعام، وطبيخ الأسود بدهن اللوز، ويفتت الحصا في المثانة والكلى، وهو رديء لقروح المثانة، ورطبه أكثر توليداً للفضول من يابسه. وماؤه يحدر الدود وينقي المثانة والأمعاء الدقيقة، وينفع من وجع الظهر ويخرج الجنين ويدر الطمث. دفع مضرته بالخشخاش والكمون والأسود أنفع. وإذا نقع في الخل على الريق وصبر عليه نصف يوم قتل الدود.

وفيه يقول الشهابي ابن الأطرش ويعرض بذكر الأمير طشتمر حمص أخضر لما عاد من النفي:

لما رجعتَ إلينا من شقة البعد والبين

خلناك تحنو علينا يا حمص أخضر بقلبين

وبها الحلبة. حارة يابسة ملينة للطبيعة، إذا أكلت مطبوخة بعد الطعام. ومتى طبخت مع التين اليابس طبخاً جيداً ثم صفيت وألقى ماؤهما في العسل وطبخ ثانية حتى يصير كالعرق، نفع أصحاب السعال العتيق ونقى الصدر والرئة من الخلط الغليظ اللزج.

وبها الخس. قال ابن الجوزي: بارد رطب ينفع السهر ويولد ماء كثيراً، ويجلب النوم، وينفع من الهذيان وإحراق الشمس للرأس، ويقطع سيلان المني. وهو أفضل البقول وأقلها رداءة وأكثرها غذاء، سريع الهضم، ينفع الأمزاج الحادة، والأورام الحارة، واليرقان، وينفع من اختلاف المياه، وهو يسكن شهوة الجماع، وينفع من كثرة الاحتلام، وبزره أشد في ذلك، إلا أن ضرره يجفف المني ويضر الباه والبصر، ويحدث ظلمة، دفع مضرته بالكرفس، والله أعلم.

وفيه يقول مؤلفه البدري على لسان بعض الظرفاء:

حبت في الزيه[144] يوماً خِلّيْن والجوع مسّا

بفولة جاد لي ذا وذا ببقل وخسّا[145]

ومن محاسن الشام أرض الميطور والسيلوق وهما من متنزهاتها، ويقال إن أول من غرس بها غراساً بيده سليمان بن عبد الملك، وكان يروي عن النبي (صلعم) حديثاً يقول: قال النبي (صلعم): »من غرس غرساً كتب الله له من الأجر بقدر ما يخرج من ثمار ذلك الغرس«. وقال النبي (صلعم): »نعم المال النخل الراسخات في الوحل، المطعمات في المَحْل«. وقال (صلعم): »ابتغوا الرزق في خبايا الأرض« يعني الزراعة. وقيل لعثمان رضي الله عنه: »أتغرس بعد الكبر؟«. فقال: »لأن توافيني الساعة وأنا من المصلحين خير من توافيني وأنا من المفسدين«. وقيل لأبي الدرداء رضي الله عنه وهو يغرس جوزة: »أتغرس وأنت شيخ وهي لا تطعم إلا بعد عشرين سنة«، فقال: »لا عليّ بعد أن يكون الأجر لي«. ومر كسرى بشيخ وهو يغرس فقال: »أترجو أن تأكل من ثمرتها« فقال: »غرسوا وأكلنا ونغرس فيأكلون«. فقال كسرى: »زه«

---

(144) كذا.

(145) كذا.

وأعطاه أربعة آلاف درهم، فقال الشيخ: »إن الشجر تدرك وتطعم في سبع سنين، وقد أطعمت شجرتي في يوم واحد« فقال كسرى: أعطوه أربعة آلاف أخرى.

رجع. ويقال إن سليمان بن عبد الملك كان نهماً في الأكل، فجاءه بستاني ليضمن بستانه هذا، فقال: اركب إليه أولاً انظر فاكهته ثم نضمنك إياه، ثم ركب ودخل البستان فلم يدع به من الثمار إلا اليسير حتى ما خلّى فيه من البندق الأخضر والفستق إلا ما عزب عنه، ثم نادى الضامنَ سليمان وقال للشهود اكتبوا على هذا ضمان هذا البستان، فقال البستاني كنت أضمنه قبل دخول أمير المؤمنين إليه، فضحك منه. ويقال إن قشر البندق والفستق تجمع، فجاء قدر مكوك طائفي وفضل عنه[146].

قال ابن الجوزي: البندق حار يابس أغلظ من الجوز، وأبطأ انهضاماً، ويولد رياحاً في البطن الأسفل، إلا أنه يقوي المعدة والأمعاء، وخلطه غليظ في الدماغ، ويؤكل مع قليل فلفل، فينفع من الزكام وينفع من النهوش خصوصاً في التين والسذاب وكذلك الجوز.

قال ابن البيطار: في السابعة وفيه من الجوهر الأرضي البارد أكثر مما في الجوز، وكذلك هو أشد عفوصة منه عند المذاق، وذلك موجود في شجرته، وثمرته وقشره.

قال جالينوس: إذا سحق وشرب بالعسل أبرأ من السعال المزمن، وإذا قلي وأكل مع شيء يسير من الفلفل أنضج النزلة، وإذا حرق وسحق وخلط بالشحم العتيق من شحم الخنزير أو شحم الدبّ ولطخ به داء الثعلب نبت فيه الشعر. والبندق المحروق إذا سحق مع الزيت وسقيت به يافوخات الصبيان الزرق سوّد أحداقهم وشعورهم، ومن أكل البندق قبل الطعام نفع من السموم وهو مقطع للخلط اللزج، نافع من النفث الحادث من الرئة.

وفيه يقول بعضهم وأبدع:

ولقد شربت مع الغزال مدامة ... حمراء صافية بغير مزاج

فتفضل الظبي الغرير ببندق ... شبهته ببنادق من ساج

فكسرته فوجدت صوفاً أحمراً ... قد لف فيه بنادق من عاج

---

[146] كان القصاصون يبالغون أولاً بذكر القصص في هذا الباب تقرباً للعباسيين، ثم خلف من بعدهم خلف تجاوزوا حدود المنطق والعقل في هذا الإغراق وأسرفوا فيه. الأعظمي.

الفستق حار يابس، وقيل رطب وقيل معتدل، منفعته للمعدة يقوي فمها، ويقوي الكبد، ويفتح سددها، وينقي الكليتين والمثانة، يفتح منافذ الغذاء، ويزيد في الباه، وينفع من لذغ العقرب، وسائر الهوام خصوصاً الشامي، لكنه يصير الشري، دفع مضرته بمشمش يابس والله أعلم.

وفيه يقول مهذب الدين الدهان:

وفستقة شبهتها إذ رأيتها
وقد عاينتها مقلتي بنعيم
زبرجدة خضراء وسط حريرة
بحقة عاج في غلاف أديم

وهو مأخوذ من قول الصابي:

زمرد صانه حرير في حق عاج له غلاف

وأحسن منه قول ابن المعتز بالله:

زبرجدة ملفوفة في حريرة مضمنة دراً مغشى بياقوت

وقال فضل الكاتب وأبدع:

وفستق مستلذ من بعد شرب الرحيق
حق من العاج يحوي زمرداً في عقيق

ومن لطائف ابن سكرة قوله:

كأنما الفستق المملوح حين بدا
مقشراً في لطيفات الطيافير
والقلب من بين قشريه يلوح لنا
كألسن الطير من بين المناقير

عَود وانعطاف إلى ذكر سليمان بن عبد الملك. نقل الحافظ ابن عساكر في تاريخه عن عبد

الله بن عبد الله بن الحارث قال: أخبرنا أن سليمان بن عبد الملك أمر قيّم بستانه أن يحبس على الفواكه لا يجني منها شيئاً، وأمرني بالركوب معه عند طلوع القمر من آخر الليل ومن حضر من أصحابه، فلما دخلنا إلى البستان انفرد كل منا يأكل حتى ارتفع النهار، ثم صرنا إليه وقد أكلنا قدر الطاقة، ونحن نقول هذا القطف العنب استوى، فيخرطه في فيه وهذه التفاحة نضجت وهذه الإنجاصة ناعمة، وكلما رأينا شيئاً نضيجاً نشير إليه، فيتناوله ويأكله حتى آن الضحى، فأقبل على قيم البستان وقال ويحك يا شمردل، إني قد جعت فهل عندك شيء تطعمنيه. قال نعم عَناق حولية حمراء، قال أئتني بها بلا تأخير، فجاء بها مشوية على خوان وهو قائم بين أشجار الفاكهة فصار يتناول منها قطعة بعد قطعة، ويتناول عليها الفاكهة إلى أن فرغت. فقال له يا شمردل هل عندك غيرها فقال نعم دجاجتان معلوفتان قد عميتا شحماً. قال ائتني بهما، ففعل كما فعل بالعناق، وأتى بهما وهو قائم بين أشجار الفاكهة حتى فرغا وقال له إن كان عندك سويق بسمن سلا وبعض سكر فائتني به فإني جائع، فجاء بذلك فأكله واستدعى بماء بارد وجعل شمردل يصب عليه الماء وأمير المؤمنين يحركه حتى كفأه فارغاً ثم أعاد الأكل في الفاكهة فأكل ملياً، وإذا بالسماط حضر فجلس يأكل كأنه لم يأكل شيئاً[147].

قال الحارث فعجبنا منه.

ويقال إنه عرضت له حمى عقيب هذا اشرف منه على الموت، وقيل بل سبب موته أنه أكل أربعمائة بيضة وسلتي تين، وسبعمائة رمانة، وخروف، وست دجاجات ومكوك زبيب طائفي**!!**.

وإنما ذكر ذلك على سبيل الاستطراد وذكر بستانه والله أعلم.

ومن محاسن الشام »السهم«، وهو متصل بأرض الصالحية، وهو درب ما بين دور وقصور، وفاكهة وزهور، ومياه تجري بهدير كالبحور، وفيه يقول القيراطي:

دمشق بواديها رياض نواضر

بها ينجلي عن قلب ناظرها الهم

على نفسه فليبك من ضاع عمره

وليس له فيها نصيب ولا سهم

---

[147] واحدة أخرى من مساجلات العباسيين وقصاصيهم ضد الأمويين.

ومن لطائفه قوله فيها وفي السهم:

بقاع دمشق للأمير بشائر

فقف بمغاني جنكها مترنما

بقاع إذا قوس الرباب بسهمه

رماها غدت بالوشي بردا مسهما

وما أحسن قول القراطي:

دمشق سما سهمها على قوس الكواكب، وأقبلت من كتائب زهورها في مواكب. وتحرك عودها حين غنت عليه من الورق الفينان، وطفح يزيدها فقلت وهذا مما يعجب أبا سفيان.

ومن المحاسن أرض بضار وبهران، وهما معدِن التوت، وأصل حسه المنعوت.

وهو أصناف: محسني، بندقي، عجمي، مخضب، قرشي، حراديني، شامي وهو الأسود.

قال جالينوس: في السابعة التوت المحسني الأبيض، إذا كان نضيجاً فهو يطلق البطن، وما لم ينضج وقُدِّد صار دواء يحبس البطن حبساً شديداً حتى أنه يصلح لقروح الأمعاء، والاستطلاق، ولجميع العلل التي هي من جنس التحلب، ويخلط بعد أن يسحق مع الأطعمة كما يخلط السماق، فإن أحب إنسان أن يشربه شربه مع الماء أو مع الشراب أو مع عصارة التوت المدرك فهي نافعة لإدواء الفم.

وقال ابن الجوزي: إذا أكل التوت الأبيض على الريق أسهل، وولد خلطاً جيداً فإن أكل على الطعام ولد كيموساً وأضر بالمعدة، وهو رديء الغذاء فاسد الدم خلطه غليظ، يكره منه غير النضيج، والأوفق أن يغسل قبل أكله ليؤمن أضراره بالمعدة والرأس، ويشرب بعده السكنجبين، والتوت النضيج المبرد بالثلج بنفع المعدة التي غلب الحر عليها واليبس.

وفيه يقول المهلبي:

كلوا من التوت وانشطوا ... فإنه على الأري[148] مسلط

كأنما التوت على أطباقه ... لآلئ بعندم منقط

ومن مجون لسان الدين ابن الخطيب قوله فيه:

أقول له إذ ابتعنا عصيرا

وجاوزنا المنازل والبيوتا

---

[148] الأري: العسل أو الندى.

لعلك يا حبيب القلب تأتي
وتأكل عندنا عنباً وتوتا

ونقلت من خط المرحوم شمس الدين محمد النواجي قوله:
بالله يا صاح قم وباكر بستان لهو حوى نعوتا
تشبع نخلاً به وكرما مرتباً يانعا وتوتا

والتوت الأسود الشامي قال ابن الجوزي في »لقط المنافع« الحلو حار رطب، والحامض بارد جيده الكبار السود. ومنفعته لأورام الحلق وإدرار البول، ومضرته يحدث مغصاً وسوء استحالة، وهو رديء للمعدة، إلا أنه لا يضر معدة صفراوية، ودفع مضرته الأطريفل الصغير، يصلح للأمزاج الدموية والشباب في الربيع في البلد الحار والله يعلم.

ومن محاسن الشام »الصالحية« مشحونة بالزوايا، والترب، والمدارس، حتى إن بها قصبة دون ميل، تمشي فيها بين ترب ومدارس ببناء جميل استولى عليها المباشرون والنظار، فأزالوا منها العين ولم يبق سوى الآثار. فكم من مدرسة اندرست بعد الصلاة والتراويح، وأمست في ظلمة بعد تلك المصابيح. وهي تقول أصبحتُ حاصلاً، بعد ما كان إيواني بالقراء عامراً آهلاً، وهذه تقول أضحيت مربطاً للبهائم، بعدما كنت معبداً للقائم والصائم. وهذه تقول اتخذوني مسكناً، وهذه تقول جعلوني متبناً. وهذه تقول هدّوني، وأخذوا سقفي وكشفوني، وهذه تقول أخربوا جداري، وباعوا الباب، وجعلوني مأوى للكلاب. والأوقاف تستغيث إلى المولى المغيث، فيقال لهم اسمعوا كلام الرحمن في محكم القرآن: »إن إلينا إيابهم، ثم إن علينا حسابهم«.

فياشوقاه لحسن »الجركسية« وحلاوة »الركنية« ويا لهفاه على »جامع الأفرم« و»الناصرية«. تغيرت تلك المعاهد، وغلقت أبواب تلك المساجد والمعابد. إنا لله وإنا إليه راجعون. إن هذا لهو البلاء الجسيم، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وبالصالحية نهران فيها يجريان: »ثورا« و»يزيد«، وكم عليهما من غرفة وقصر مشيد.

يحكى عن ابن الصائغ الحنفي أنه لما قدم من القاهرة إلى دمشق المحروسة نزل في »الجسر الأبيض« عند الأمير مجير الدين ابن تميم، ونهر ثورا يمر بداره المانوسة، فأجلسه على جانب

النهر لأجل برد الهواء، فرأى شمس الدين ابن الصائغ ما يمرّ من الفواكه على وجه الماء وصار يتناول ويأكل ما استطاب، ويضع قدامه منه ما أعجبه، ثم التفت لابن تميم وقال له: أنت يغنيك هذا النهر عن شراء الفاكهة بفيض فضله العميم وأنشده في الحال ارتجالاً:

يقول وقد رأى ثورا خليلي يفيض بسائر الثمرات فيضا

ايكفيكم فلا تشرون شيئاً فقلت له نعم ونبيع أيضاً

فقال ابن الصائغ: وهذه الفاكهة أليس يرميها في النهر أرباب الغيطان. قال ابن تميم إنما هذه من اشتباك الأشجار وانحنائها عليه، فيلقيها النسيم عندما تشتمل الأغصان، وأما البساتنة فإنهم يضعون فواكه مجموعة على أبواب البساتين كالزكاة لمن يمرّ بها ويحتاج إلى شيء فيأخذه من الفقراء والمساكين.

وأُخبرت في القديم أن بعض الفقراء يضع مكتله على رأسه ويسرح في طرق البساتين فيعود وقد امتلأ مكتله مما يسقط من الأثمار من غير أن يتناول بيده شيئاً.

وفي البساتين من يزرع أشجاراً للفقراء يعرفونها بالتكرار، وغالب ما يزرعه من ذلك على الطرقات ليقرب تناولها.

وغالب أهل الصالحية يهادون سكان المدينة بالبلح والأترج والكباد، لنمو حسنه عندهم ونضارته التي هي في ازدياد.

قال ابن الجوزي: البلح حار يابس وقيل بارد ينشف الرطوبة ويدبغ المعدة ويحبس، جيده غير القابض يضر بالأسنان والفم. دفع مضرته بالسكنجبين، وإذا أكل أول ما يحلو أحدث قراقر. والبسر والبلح يحدث السدد في الأحشاء والكبد، ويولد الإكثار منهما أخلاطاً غليظة، وهما رديئان للصدر واللثة والجمار الذي هو طلع بارد يابس يقوي الحشا ويعقل البطن والطبع، ويضر الصدر والحلق، دفع مضرته بالتمر والشهد، خلطه غليظ بطيء الهضم، ينفع الأمزاج الحارة الرطبة، ومن أكثر من أكل الطلع مرضت معدته وأورثه القولنج.

وبإسناد عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله (صلعم): »كلوا البلح بالتمر فإن الشيطان إذا نظر إلى ابن آدم يأكل البلح بالتمر يقول يقي ابن آدم جني الحديث بالعتيق«.

الرطب حار رطب يقوي المعدة الباردة، ويوافقها ويزيد في الباه، لكنه سريع التعفن ودمه رديء وهو مصدع ويولد السدد ويؤذي الأسنان وينبغي أن يشرب بعده السكنجبين.

وعن أنس قال: »رأيت رسول الله (صلعم) يأكل البطيخ بالرطب« ورواه أبو داود. وعن عبد الله بن جعفر قال: »رأيت رسول الله (صلعم) يأكل القثاء بالرطب« أخرجاه في الصحيحين. وعن أبي دواد من حديث عائشة رضي الله عنها أن النبي (صلعم) كان يأكل البطيخ بالرطب ويقول: »يكسر حر هذا برد هذا«. وقال أبو سليمان الخطابي وفي هذا بيان الرطب والعلاج ومقابلة الشيء بالمضاد له وفيه إباحة التوسع بالأطعمة ونيل الملاذ المباحة.

والرطب المعسل حار رطب ينفع المعدة الباردة، ويضر الحنجرة والصوت. دفع مضرته بالسويق الخشخاشي. فإذا عتق كان أقل حرارة وأكثر رطوبة وأزيد في توليد المني، فإذا ربي بالعسل والزعفران تضاعفت حرارته لكن يكسرها اللوز في موضع النوى، ويؤكل بعده الخس بالخل.

والتمر جيده البرني الحديث الكبار، وهو حار رطب في الأولى، يقوي الكبد والأعصاب ويلين الطبع، ويزيد في المني، ولكنه يصدع لحرارته ويولد السدد ويؤذي الأسنان سريع التعفن.

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله (صلعم): »كلوا التمر على الريق، فإنه يقتل الدود«. وعن أنس بن مالك: أن وفد عبد القيس من أهل هجر قدموا على النبي (صلعم) فقال: »خير ثمراتكم البرني يذهب بالداء ولا داء فيه«.

وفي مدينة النبي (صلعم) تمر يقال له العجوة. وفي الصحيحين من حديث سعد بن أبي وقاص عن النبي (صلعم) أنه قال: »من تصبَّح سبع تمرات عجوة لم يضره ذلك اليوم سم ولا سحر«. وعن أبي سعيد وجابر قالا قال رسول الله (صلعم): »العجوة من الجنة وهي شفاء من السم«. واعلم إنما خصت عجوة المدينة بدعاء النبي (صلعم) لأن التمر لا يفعل ذلك.

والقسب معتدل في الحرارة يابس يحبس الطبع، وهو أحمد من التمر. وما ألطف قول صدر الدين بن الأدب في التمر:

لم أرد التمر الذي أهديتموه لسوى

خوفي من نواكم لأن في التمر النوى

وقال ظافر الحداد في وصف النخيل:

وعشية بهرت لعينك منظراً
قدم السرور بها لقلبك وافدا
روض كما اخضرَّ العذار وجدول
نقشت عليه يد النسيم مباردا
والنخل كالهيف الحسان تزينت
فلبسن من أثمارهن قلائدا

وقال بعضهم:

أما ترى التمر يحكي في الحسن للنظار
مخازناً من عقيق قد قمعت بنضار
كأنما زعفران فيه مع الشهد جاري
يشفّ مثل كؤوس مملوءة بعقار

ومما ينسب إلى نفطويه قوله:

كأنما النخل وقد نكست رؤوسها الريح بأذيالها
أحبة فارقها إلفها فأطرقت تنظر في حالها

ومن محاسن ابن سارة قوله في الجمار:

جمارة كالماء لكنها ما بين أطمار من الليف
كأنها جسم رطيب وقد لُفِّف في ثوب من الصوف

والنصير الحمامي في من أهدى له جمارة:

أهدى لنا جمارة من لست أخلو من عذابه

فكأنما هي جسمه لما تجرَّد من ثيابه

ابن المعتز يصف الطلع بقوله:

ومريضة الأجفان تفتن كل ذي عقل وناسك

أهدت إلينا طلعة والشوك للأحشاء ناهك

فكأنها لما بدت في كفها مكوك حائك

حتى إذا فضت رأيت من اللجين بها سبائك

ومن محاسنه قوله فيه:

كأنما الطلع يحكي لناظري حين يقبل

سلاسلاً من لجين يضمها تحت صندل

وأخذه بلا قافية ابن عبد ربه:

أفدي الذي أهدى إلينا طلعة

أهدى إلى القلب المشوق بلابلا

فكأنما هي زورق من فضة

قد أودعته من اللجين سلاسلا

وأخذه ابن وكيع فقال وهو من لطائفه:

طلعٌ هتكنا عنه أثوابه من بعد ما قد كان مستورا

كأنه لما بدا ضاحكاً في العين تشبيهاً وتقديرا

درج من الصندل قد أودعت فيه يد العطار كافورا

ومن معانيه البديعة قوله:

وطلع هتكنا عنه جيب قميصه

فيا حسنه من منظر حين هتكا

حكى صدر خود من بني الروم هزها

سماع فشقت عنه ثوباً ممسكا

ومن مقاصده قوله في البسر الأحمر:

انظر إلى البسر إذ تبدى ولونه قد حكى الشقيقا

كأنما خوصه عليه زبرجد مثمر عقيقا

ومن بدائع ابن القطاع قوله فيه:

انظر البسر إن صورته أحسن ما صوره الرائي

كأنما شكله لمبصره أنامل قمعت بحناء

ابن حمديس الصقلي قوله في البلح:

أما ترى النخل أطلعت بلحاً جاء بشيراً بدولة الرطب

مكاحل من زمرد خرطت مقمعات الرؤوس بالذهب

ابن النقيب اللباني قوله في البسر الأبيض:

انظر إلى البسر الذي قد جاءنا بالعجب

كيف غدا في لونه كعاشق مكتئب

كأنه من فضة قد غمست في ذهب

ومن لطائف ابن وكيع قوله في الرطب:

أما ترى الرطب المجنى لآكله

حلوى أعدت لنا من صنعة الباري

ما باشرتها يد العقاد في عمل

في الدست يوماً ولا حطت على النار

الأترج. قال ابن البيطار كثير بأرض العرب، وهو مما يغرس غرساً ولا يكون برياً وورقه مثل ورق الجوز، وهو طيب الرائحة، ونواره شبيه بنوار النرجس، إلا أنه ألطف وله بزر شبه الكمثرى.

وقال جالينوس: في السابعة وجوف الأترج الذي فيه البزر حامض الطعم، وقوته قوة تجفف تجفيفاً كثيراً حتى يقال أنه في الدرجة الثالثة من درجات الأشياء التي تبرد وتجفف.

(اسحق بن سليمان) وما كان منه حامضاً كان بارداً يابساً في الدرجة (الثالثة) يقوي المعدة، ويزيد في شهوة الطعام، ويقمع حدّة (المرّة) الصفراء، ويزيد الغم العارض منها، ويسكن العطش ويقطع الإسهال، وينفع من القوباء والكلف إذا طلي عليها، ويستدل على ذلك من فعله في الحبر إذا وقع في الثياب فإنه إذا طلي عليه قلعه وذهب به.

(جالينوس) وشحم الأترج الذي بين قشره وحماضه يولد أخلاطاً غليظة باردة.

(ابن سينا): ينفخ بطيء الانهضام، يورث القولنج، ويجب أن يؤكل مفرداً ولا يخلط بطعام قبله ولا بعده، والمربى بالعسل أسلم وأقبل للهضم.

وقال ابن الجوزي: الأترج جيده السوسي الكبار، وهو بارد رطب، ولحمه بارد وقشره حار يابس، وحماضه بارد يابس، ودهنه ينفع البواسير، وحبه ينفع الدماغ الذي ناله البرد ويحلل الرياح العارضة فيه. والله أعلم.

وفيه يقول عبد الله بن المعتز بالله:

يا حبذا يومنا ونحن على رؤوسنا نعقد الأكاليلا

في روضة ذلّلت لقاطفها غصونها الدانيات تذليلا

كأن أترجها تميس به أغصانها حاملاً ومحمولا

سلاسل من زبرجد حملت من ذهب أصفى قناديلا

وما أرشق قول ابن رشيق:

أترجة سبطة الأطراف ناعمة
تلقي النفوس بحظ غير منحوس
كأنما بسطت كفاً لخالقها
تدعو بطول بقاء لابن باديس

ومن تشابيه ابن بوبن[149] من مزدوجته:

كأنما أترجه المصبغ أيدي زناة من زنود تقطع

ومن بديع ابن المعتز قوله:

وكأن الأترج كف كعاب جمعته لضمها بسوار

ومن التشابيه البديعة قول ابن حمديس:

انظر إلى الأترج وهو مصبغ
إن كنت في التشبيه أي محقق
مثل الأكف غدت تضم أناملا
يدخلنهن في إناء ضيق

ومن محاسن محيي الدين الدهان:

حيَّاك من تهوى بأترجة ناعمة مقدودة غضه
فجلدها من ذهب أصفر وجسمها الناعم من فضه

وقال الأمير أبو فراس بن حمدان في الكباد:

أما ترى الكباد في حسنه إذا بدا في وسط بستانه

---

[149] **كذا.**

كعاشق أبصر محبوبه فاصفرّ من خيفة هجرانه

وقال ابن زيدون في الحماض:

يا حبذا حماضة تحدث للنفس الطرب

كأنها كافورة لها غشاء من ذهب

الليمون. قال صاحب الفلاحة ستة أنواع منها: المركب، وهو نوعان أحمر وأصفر، ومنها التفاحي وهو نوعان، والمختم، والحلسمي، وغالب ما يستعمل الأصفر والتفاحي.

وأخبرني بعض الغياطنة[150] أن بمصر الليمون أربعة عشر نوعاً ولم يعدَّ منهم ولا واحداً.

وقال ابن البيطار: والليمون مركب من ثلاثة أجزاء مختلفة المنافع، والقوى وهي القشر والحماض والبزر. في طعم قشره بعض مرورة وقبض خفي، وله عطرية ظاهرة، وفيه تسخين وتجفيف مزاجه حار في أول الدرجة الثانية يابس في آخرها.

ومن لطائف النصير الحمامي قوله فيه:

أهدى إلي الظبي ليمونة

لا زلت ذا شكر لإحسانه

صفرتها تحكي اصفراري به

وطعمها من طعم هجرانه

وله فيه:

ليموننا هذا الذي قد بدا يأخذ من إشراقه بالعيان

كأنه بيض دجاج وقد لطّخه العابث بالزعفران

النارنج. قال ابن الجوزي: حماضه بارد يابس، يقوي المعدة، ويقطع البلغم، ويسكن

---

(150) الفلاحون.

الصفراء، إلا أنه يرخي الأعصاب، دفع مضرته أكله بالسكر، يشهي الطعام، وحَبُّه يحلل الرياح الباردة من الدماغ، وهو ألطف من الأترج ومختاره ما قَلَّت حموضته وقشره حار يابس، وخاصية النارنج أن من أدمن شمه يأخذه الرعاف إلى أن يموت والله سبحانه وتعالى أعلم، وزهره يسمى بالقداح.

ومن محاسن ابن قرناص قوله في نواره:

نديمي هيّا قد قضى النجم نحبه

وهبَّ نسيم ناعم يوقظ الفجرا

وقد أزهر النارنج أزرار فضة

تزر على الأشجار أوراقها الخضرا

ومن أغراض شهاب الدين محمد بن دمرداش قوله:

إن أينع النارنج حاكى لونه

في صبغه القانيّ خد حبيبي

وإذا تبدّى مزهراً فكأنما

جمع الوصال عذاره ومشيبي

وقال مؤلفه البدري:

نارنجة قد أشبهت حسناء في

عرس النسيم تميس مع نشر طوى

يا حسنها تجلى لنا في حلة

من سندس أزرارها من لؤلؤ

وقال أيضاً:

في الكيميا صحت لنا نارنجة من حطب
لجين زهرها يَعُد سبائكاً من ذهب

ومن لطائف الأرجاني قوله فيه:
ونارنجة بين الرياض نظرتها على غصن رطب كقامة أغيد
إذا مَيَّلَتْها الريح كانت كأكرة بدت ذهباً في صولجان زبرجد

ومن محاسن الصاحب ابن عباد:
بعثنا من النارنج ما طاب عرفه
ونَمَتْ على الأغصان منه نوافج
كرات من العقيان أحكم خرطها
وأيدي الندامى حولهن صوالج

ومن بدائع ابن وكيع قوله:
ألا اسقني الراح في جنة طرائف أثمارها تزهر
كأن تمايل نارنجها مقابض كيمختها أخضر

ومن ألغاز ابن خلكان قوله فيه:
ما اسم إذا صحَّفته ألفيته من بعد ذاك ولفظه تاريخ
في ضمنه نار إذا حققتها لا جمرها وارٍ ولا منفوخ
حيران إن صحفته وعكسته لا العذل يسمعه ولا التوبيخ
يا ريح بلِّغ من أحب تحيتي إن الحبيب لما تقول مصيخ

ونقلت من خط بلدينا الشرف القواس الدمشقي:
نظرت إلى نارنجة في يمينه

كجمرة نار وهي باردة اللمس

فقرَّبها من خده فتألقت

فشبَّهتها المريخ في دارة الشمس

ومن بدائع ابن قرناص الحموي قوله:

نارنجة برزت في منظر عجب زبرجد ونضار صاغه المطر

كأن موسى كليم الله أقبسها ناراً وجرّ عليها ذيله الخضر

ومن أغزال ابن دمرداش قوله:

تأمل ترى النارنج في الدَوْح باسما

نضيرا يروق العين من جلناره

وقد لاح تحت الغصن غضاً كأنه

خدود الذي أهواه تحت عذاره

ومن المعاني التي سبكها ظافر الحداد قوله:

تأمل فدتك النفس يا صاح منظراً

يُسَرُّ به قلب اللبيب على الفكر

حيا وابل يجري على شجر بدا

به ثمر النارنج كالاكر التبر

دموع حداها الشوق فانهملت على

خدود تراب تحت أنقبة خضر

ونقل ابن خلكان في ترجمة السلامي أنه كان شاعراً مجيداً فرحل في صباه من مدينة السلام إلى الموصل، وبها جماعة من كبراء الشعراء، كالسري والببغاء والخالديين، فأرادوا اختباره في

النظم، فقال أبو الفرج الببغاء: أنا أكفيكم ذلك، وصنع وليمة ودعاه إلى عنده، وقال له في غضون المحاضرة ما تقول في هذا النارنج الذي بمنزلنا فأنشده ارتجالاً وقال:

ونارنج تميل به غصون ومنها ما يرى كالصولجان

أشبهه ثدايا ناهدات غلائلها صبغن بزعفران

فحرك كل منهم رأسه وقال هذا التشبيه هجس بفكري الآن. وأنشد:

تطالعنا بين الغصون كأنها نهود عذارى في ملاحفها الصفر

السري:

إذا ما تبدى في الغصون حسبته نهود عذارى مسهن خلوق

ومن محاسن الشام »جبل قاسيون«، فإن الصالحية في سفحه وتحت داره، وهو جبل مبارك به آثار الأنبياء، والصحابة والأولياء وبه »الكهف«، ويقال إنه كهف أصحاب القصة وبه مغارة الدم، يقال إن كل ليلة جمعة يرى بها قطرة دم، وبه محاريب الأربعين، محل تعبدهم. وقال بعضهم:

تحن إلى وادي دمشق جوانحي وإن كان مما قل فيه نصيبي

وإني لأهوى قاسيون لأنني رأيت اسمه شبهاً لاسم حبيبي

وبه ينبت من عند الله تعالى من الأزهار والأشجار ما لا ينبت في غيره وسقيه بالأمطار.

فمن أزهاره القرنقل وهو شديد العطرية، والخزام وهو مشهور بالعطرية.

والشيح. قال ابن الجوزي: حار يابس في الثالثة، أفضله ما كان إلى البياض، وهو بدمشق يخرج الدود. وإذا أحرق وسحق ووضع في زيت أو في دهن اللوز وطلي به من لم ينبت له لحية أسرع نباتها، لأنه يوسع مسامها بلطافته ويمنع من داء الثعلب. وعن عبد الله بن أبي جعفر القرشي أن رسول الله (صلعم) قال: »بخروا بيوتكم باللبان والشيح«.

وبعد السماق. قال ابن البيطار: في الأولى يستعمل في الطعام، وهو ثمر نبات يقال له أروس

برسوديسقونس[151]، وهو بالعربية سماق الدباغين وإنما سمي هكذا، لأن الدباغين يستعملونه في دباغة الجلود. وهي شجرة تنبت في الجبال والصخور، طولها نحو من ذراعين، وفيها ورق طويل لونه إلى حمرة الدم، وهو مشرف الأطراف على هيئة المنشار، وله ثمر شبيه بالعناقيد كثيف، وفي عظم الحبة الخضراء إلى العرض.

وقال جالينوس في الثامنة يقبض ويجفف وأنفع ما فيها الثمرة وعصارتها.

(ديسقوريدوس): ويعمل منه حقنة لقرحة الأمعاء، ويقطر في الأذن التي يسيل منها القيح، وإذا تُضُمِّد بالورق (مع الخل) والعسل أضمر الداحس، ومنع الورم (الخبيث الذي يقال له غنغرانا).

(الرازي): وزعم قوم أنه إذا شد في صوف مصبوغ بحمرة وشُدَّ على صاحب النزف من أي عضو كان قطع الدم.

(ابن ماسويه): وينفع الإسهال المزمن الذي يكون من الصفراء، وإذا نقع في ماء ورد واكتحل به نفع من ابتداء (الرمد) الحار مع مادة وقوّى الحدقة.

(اسحق بن عمران): وإن نقع في ماء نفع من السلاق والاحتراق، وقطع الحكة العارضة للعين، وإن أخذه من به قيء دائم ودقه مع الكمون دقاً جريشاً، وشرب منهما بماء بارد قطع القيء عنه.

وقال ابن الجوزي: السماق بارد في الثانية يابس في الثالثة، قابض مقوٍّ للمعدة يشدها ويجلو خشونة اللسان، ويسكن العطش والغثيان الصفراوي، وأجوده الأحمر.

وبه الزعرور. قال صاحب كتاب »الفلاحة« هي شجرة تنبت بنفسها في الجبال والصحاري، وتغرس في البساتين، وفلاحتها كفلاحة الخوخ والمشمش، وإذا حولت ضعفت، ومن أراد قوتها فليحمل إليها من التراب الذي كانت به، ويطمره حواليها، فإنها تقوى، وأجوده الأحمر البستاني البالغ، وهو بارد يابس رديء للمعدة والكلى، يولد بلغماً، والجبلي يقمع الصفراء ويحبس السيلانات، ويقوي المعدة، ويقمع القيء، إلا أنه يصدع.

---

[151] في مفردات ابن البيطار »رؤوس برسوديسمقوس«.

وقال صاحب »المفردات«: هي شجرة مشوكة، ولها ثمر صغار شبيه بالتفاح في شكله، لذيذ، في كل واحدة منها ثلاث حبات ولذلك سماه قوم طريفلن[152]. وهو ذو الثلاث حبات، وهو قابض، وإذا أكل كان جيداً للمعدة ممسكاً للبطن، مسكناً للصفراء والدم، ولا يحبس البول، ويشهي الأكل، ويولد القولنج.

وقال صاحب »اللقط«: الزعرور الجبلي بارد يابس مطفئ للحرارة، يقمع الصفراء، والبستاني الأحمر بارد رطب مولد للبلغم، رديء للمعدة والله أعلم.

وهذا الأحمر لا حاجة به لجناه، وإنما يرمي سياجاً لشدة شوكه، وكذا في السياج توت أسود لا يجنيه زراعه كورد السياج السالف لنا ذكره.

ومن السياج شجرة يقال لها »الزيزفون«[153]، لها زهر أصفر برائحة عطرية، وفيه تهييج للنساء إذا شممنه، وهذه الأربعة الأشياء إنما يزرعونها لشدة شوكها.

وفيه يقول ابن حني وأبدع:

كأنما الزعرور لما بدا
في حسن تقدير وأمر أنيق

جلاجل مخضوبة عندماً
أو خرزات خرطن من عقيق

يضوع من ريَّاه لما هفا
به نسيم الريح مسك نشيق

ونقلت من خط الشهابي أحمد بن العطار الدنيسري:

باكر الدوحة واغنم واجتلي

[152] كانت في الأصل »طريفان«، وفي مفردات ابن البيطار »طريفلن«، وفي اللغة الفرنسية لفظ Triphylle بمعنى ثلاثي الورقات.

[153] قال ابن البيطار: هو اسم دمشقي للنوع الذي لا يثمر من شجر الغبيراء.

غصن زعرور تسامى وافتخر

حقة من ذهب داخلها

قطنة فيها ثلاث من درر

وبه الخروب. قال ابن الجوزي: بارد يابس وقيل حار، جيده الحلو الطري، ينفع القيام ما دام طرياً، فإذا يبس عقل البطن، والرطب رديء للمعدة، واليابس أبطأ انهضاماً، ما يدفع ضرره الفانيد، والمضمضة بطبيخه جيدة لوجع الأسنان. والله أعلم.

ومن محاسن الشام قرية »منين«. خضرة نضرة، وهي شمالي جبل قاسيون، وبها السيدان الجليلان »الشيخ جندل«، و»الشيخ أبو الرجال« أعاد الله علينا من بركاتهما، ويقال إن الشيخ »جندل« لا يقبل من ينام عنده، فإذا نام الإنسان حول الضريح يفتح عينه يجد نفسه ملقى خارج المزار، وقد اشتهر ذلك عنه.

وإلى منين ينسب الجوز المنيني لرقة قشره وبياض قلبه، وهو صنوف: مغاربي، وفرك، ومنيني، وجبلي، وبستاني.

قال جالينوس: في السابعة وهذه الشجرة في ورقها وأطرافها شيء من القبض، وهو في القشر الخارج إذا كان طرياً أبين. وكذلك الصبّاغون يستعملون هذا القشر، وأما قلبه الذي يؤكل ففيه دهنية، وبهذا السبب تسرع إليه الاستحالات.

قال ابن الجوزي: الجوز حار رطب، وقيل يابس عسر الانهضام، رديء للمعدة، مضرته نتن الفم، ويؤلم الحلق ويصدع، ولا يصلح أكل العتيق منه. ودفع مضرته بالخشخاش والمتولد عنه دم حار، يصلح للأمزاج اليابسة وللمشايخ، إذا أكل مع التين نفع من السموم لا سيما الجوز الأخضر.

وقال ديسقوريدوس: الجوز عسر الانهضام مولد للمرة الصفراء، حار لمن به سعال، وإذا أكل على الريق هوّن القيء، وإذا أحرق قشره وسحق مع شراب وزيت ولطخ به رؤوس الصبيان حسَّن شعورهم، وأنبت الشعر في داء الثعلب، وداخله إذا أحرق وخلط به شراب واحتملته المرأة منع الطمث.

(إسحق بن سليمان): والجوزة الخضراء إذا أخذت عندما تبقى قدر الحمصة ودقت وخلطت

بالعسل واكتحل بها نفع من غشاوة البصر.

(الشريف): وإذا دق قشره الأخضر وألقي معه خبث الحديد مكسوراً وترك أسبوعاً معه يحرك في كل يوم، ثم خضب به بعد ذلك الشيب سوّده وكان منه صبغ عجيب، وإذا دلكت به القوابي والحزازات نفعها.

(البصري): والجوز المربى جيد لبرد الكبد، نشاف لرطوبة المعدة والله أعلم.

وفيه لأبي الفرج ابن هندو:

تأمل الجوز في أطباقه لترى	رواق حسن عليه غير محطوط
كأنه أكرٌ من صندل خرطت	فيها بدائع من نقش وتخطيط

وبها الثلج الذي يقيم من العام إلى القابل، ويحمل ثلج السلطان إلى القاهرة مدة العام، وما يستعمل بدمشق الجميع منها يخزنونه في حواصل معدّة له.

وقال ابن الجوزي: الثلج بارد بالطبع، يابس بالعرض، وفيه خلط يولد سوداء في الكبد، جيده ما كان من ماء عذب يجمد يجود الهضم، لكنه يهيج السعال ويلين المفاصل، ويشنج ويضر العصب، لأنه يحقن البخارات الحارة فيها، ويمنعها من التحلل، ويضر المعدة خصوصاً التي يتولد فيها أخلاط باردة، دفع مضرته شربه قليلاً قليلاً، وهو صالح للأمزجة الحارة، وهو يطلق البطن أولاً ثم يعقل، وإذا كانت المياه الثليجة والجليدة في آجام كانت رديئة ثقيلة، وهي تولد البلغم في الشتاء، والمرارة في الصيف، وتورث شاربيها الطحلة وحشو الأحشاء، وربما وقعوا في الاستسقاء، وتضعف أكبادهم وتولد فيهم الجنون والبواسير، ويعسر على نسائهم الحبل والولادة ويلدن أجنة متورمين. والثلج رديء للمشايخ، وماء الثلج يسكن وجع الأسنان الحار والله أعلم.

ومن لطائف ابن عباد قوله:

أقبل الثلج فانبسط للسرور	وبشرب الصغير بعد الكبير
فكأن السماء صاهرت الأر	ض وصار النثار من كافور

وأخذه بلا قافية أحمد بن علي العلوي فقال:

هواك من الدنيا نصيبي وإنني
إليك لمشتاق كجفني إلى الغمض
فزرني وبادر يوم ثلج كأنه
شمائم كافور نثرن على الأرض

ومن محاسن قول أبي الفتح البستي:

قد نظمنا السرور في عقد أنس وجعلنا الزمان للهو سلكا
وشربنا المدام في يوم ثلج عزل الفيء فيه رشداً ونسكا
فكأن السماء تنخل كافو راً علينا ونحن نفتق مسكا

أخذه ظافر الحداد فقال:

ويوم ضاحك يبكي ضعيف معاقد السلك
أذوب ببرده برداً كمبسم من حوى ملكي
كأن الريح تنثره على الأرضين في وشك
تغربل من خلال الند كافوراً على مسك

وينبت في الثلج الريباس، قال ابن الجوزي: بارد يابس مسكن للحرارة، وقامع للصفراء، نافع للإسهال، يقوي المعدة والكبد الحرانين، وهو شبيه بأضلاع السلق، وفيه خشونة، وطعمه حلو يعطي حموضة بعفوصة، ولا يطلع إلا في الثلج والله أعلم.

وفيه يقول أبو علي العثماني النيسابوري:

انظر إلى الريباس تنظر منه أعجب منظر
كسواعد بيض بدت من كم شعر أحمر

وينبت في جبال الثلج أيضاً أمير باريس. قال ابن البيطار: هو البرباريس وبالفارسية

الزرشك. ومنه أندلسي، ورومي، وشامي، وأحسنه الشامي (يجلب من جبل بيروت وجبل بعلبك، وهو أجود من الرومي عند باعة العطر بمصر والشام).

(الفلاحة): وهو شجرة خشنة النبات خضراء تضرب إلى السواد تحمل حباً صغاراً بنفسجية.

قال ابن ماسة: بارد يابس في الثانية، يقوّي الكبد والأمعاء، وفيه قوة قابضة مانعة.

(ماسرجويه): يمنع من الأورام الحارة إذا وضع عليها.

(الرازي): هو قاطع للعطش جيد للمعدة والكبد الملتهبين، ويقمع الصفراء جداً.

قال الرازي[154]: حبه يجفف قروح الأمعاء ويقطع نزف الدم الأسفل، ولا سيما الذي يجلب من جبلي بيروت وبعلبك.

وينبت بهذا الجبل الصنوبر. قال ابن الجوزي: حار في الثانية يابس في الثالثة، حبه ينفع من الصداع البلغمي، إفراط استعماله مصدع، دفع مضرته بالشاه صيني أو الصندل، والغرغرة بطبيخ قشره يجلب بلغماً كثيراً.

وفيه يقول الشريف الرضي:

حب الصنوبر إذ أتا ... ك غنيت من كل البشر

نقلٌ لعمري مشتهى ... ما إن يدوم له خبر

يحكي لنا صدفاً أتت ... في باطن منها الدرر

ومن أغراض ابن المعتز قوله:

صنوبر ظلتُ به مولعاً ... لأنه أطيب موجود

كأنه الكافور في لونه ... يحويه إذ لاح من العود

وثَمَّ أشياء لا تنبت إلا في الأراضي الحارة كالقلقاس، فإنه يطلع بأرض قرية الغور من أعمال دمشق، ولا ينبت في غيرها من أرض الشام.

---

[154] نقله ابن البيطار عن كتاب »التجربتين« ولم يذكر جملة: »ولا سيما.. إلخ«.

قال ابن البيطار: ينبت على المياه في الأراضي الحارة، وله ورق كبير أملس يشبه ورق الموز، إلا أنه ليس بطوله، وهو مجفف يشبه ورق القرع، ولكل ورقة من ورقه قضيب منفرد غليظ الإصبع، ونبات القضيب من الأصل الذي من الأرض، وليس لهذا النبات ساق ولا ثمر، وأصله شبيه بالأترج، إلا أن ظاهره مائل إلى الحمرة وداخله أبيض كثيف مكتنز مشاكل للموز، وطعمه فيه قبض مع حرافة قوية تدل على حرارته ويبسه، وهو يابس في الأولى، إذا سلق بالماء زالت حرافته جملة واكتسب مع ما فيه من القبض اليسير لزوجة مَغرِّية كانت بالقوة إلا أن حرافته كانت تخفيها وتسترها، ولذلك صار غذاؤه غليظاً بطيء الانهضام، ثقيلاً في المعدة لكثافة جسمه ولزوجته، إلا أنه لما فيه من القبض والعفوصة صارت فيه قوة مقوية للمعدة معينة على حبس البطن إذا أخذ مقدار منه لا يثقل على المعدة، فيحيله ضرورة لثقله، وبعد انهضامه، ولما يولد فيه من اللزوجة والتغرية صار نافعاً (من سحوج الأمعاء)، ويزيد في الباه، ويسمن وإدمانه يولد السوداء والله أعلم.

ومنها الموز. قال ابن الأثير في عجائبه: الموز يسمى قاتل أبيه، لأن شجرته لا تثمر إلا مرة في السنة ثم تموت، ولا يحمل الأصل الواحد إلا قنواً واحد ثم يموت، وتخلفها أخرى من أصلها ويكون في القنو من خمسين موزة إلى خمسمائة، ومن حين نشوئها إلى حين إثمارها شهران. ويقال إن فيه برياً وبستانياً، والبري يسمى الطلح، وأكثر ما يوجد في الجزائر. وورقها طوله ثلاث أذرع وعرضه ذراعان. وأجود الموز الكبار البالغ، وثمرته حارة رطبة، تنفع حرقة الصدر والحلق، وتنفع المثانة وتدر البول، وتلين الطبع، لكنه ثقيل على المعدة والإكثار منه يولد السدد ويزيد في الصفراء والبلغم، وأكله بعد الطعام يمنع بخار المعدة إلى أن يرتقي إلى الرأس.

وقال ابن الجوزي: جيده الكبار الحلو، ينفع من خشونة الصدر والرئة وقروح الكليتين، ويضر المعدة، ودفع مضرته بالسكر ويتولد عنه دم بلغمي والله أعلم.

وفيه يقول الخوارزمي:

يا من أتى البستان يقصد نزهة	انظر لصنع الله فيما يخلق
الموز شبه عساكر مصفوفة	من فوقها رايات خضر تخفق

وفيه يقول مؤلفه البدري:

انظر إلى الموز الذي حلا وصفا إذ مر بي

سبائكاً من فضة قد موهت بالذهب

ومنها القصب. قال أبو حنيفة: القصب أنواع، فمنه أبيض وأصفر وأسود ، والأسود لا يعصر، وهو يغلظ حتى لا يحيط به الكفان، وإنما يعتصر الأبيض والأصفر، ويقال لعصارته عسل القصب، وأجوده ما يجاء به من أرض الزنج، فهو أصفر مثل الأترج. والقند ما يجمد من عصير قصب السكر، ثم يتخذ منه السكر، ويقال لما جعل فيه القند من السويق وغيره مقنود ومقنَّد، كما يقال معسول ومعسل وقال أبو العبر[155]: قصب السكر لطيف، ملائم للبدن نافع من الخشونة التي تعرض في الصدر والرئة والحلق، ويجلو الرطوبة اللطيفة المتولدة فيها، ويدر البول ويولد نفخاً ولا سيما إذا أخذ بعد الطعام.

وقصب السكر ملين للطبيعة، واستعماله لتهييج القيء صالح إذا شرب على أثره ماء فاتر، وتهوع بريشة طويلة قد غمست في السيرج.

وقال المنصوري: حار باعتدال، يدر البول ويذهب بالحرقة الكائنة عند خروجه وينفع من السعال.

(اسحق بن عمران): يقطع الالتهاب العارض في المعدة برطوبته ولطافته، وينقي المثانة.

وقال ابن الجوزي: القصب أشد تلييناً من السكر، لكنه يولد رياحاً دفعها أن يقشر ويغسل بماء حار.

وقال عفان بن مسلم المحدث: من مص قصب السكر بعد طعامه لم يزل يومه أجمع في سرور والله تعالى أعلم.

وفيه يقول خليل[156] بن الفرس رحمه الله:

سبحان من أنبت في أرضه ما بين شوك وجلا فيها

---

[155] في مفردات ابن البيطار: (الدمشقي).

[156] في نسخة دار الكتب المصرية (أحمد).

أنبوبة مملوءة سكراً قد كان ماء وحلا فيها

وكتب مؤلفه البدري يستدعي بعض الإخوان في شهر رمضان إلى غيط قصب:

في قصب السكر لي ذوق سريع ما اقتضب

شبهته بأهيف قد رقّ عشقاً وانتصب

واصفرّ جسمه لذا أرخى له خضر العذب

فقم لوصل قطعه واسع له أخا الأرب

في الصوم قبل العصر إن ذا لأعجب العجب

قلت: وأما محاسن الشام فإنها لا تحصى، وغوطتها الجامعة للمحاسن لا تستقصى. وقد جاء في الأخبار عن كعب الأحبار رضي الله عنه: »غوطة دمشق بستان الله في أرضه«.

وعن أبي أمامة رضي الله عنه أن النبي (صلعم) تلا هذه الآية: »وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين«. قال: »هل تدرون أين هي«. قالوا: »الله ورسوله أعلم« قال: »هي في الشام بأرض يقال لها الغوطة مدينة يقال لها دمشق هي خير مدائن الشام«.

وفي رواية عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما بلفظ »قال هي دمشق«.

قال الذهبي: وأجمع سواح الأرض والأقطار على أن متنزهات الدنيا أربعة وهي (صغد سمرقند) و(شعب بَوّان) و(نهر الأبلة) و(غوطة دمشق).

قال أبو بكر الخوارزمي في رحلته: رأيتها كلها فكان فضل غوطة دمشق على الثلاث، كفضل الأربعة على غيرهم، كأنها الجنة وقد زخرفت وصورت على وجه الأرض.

وما أحسن قول الشيخ علاء الدين علي بن المشرف المارداني، وقد أنشدنيه شقيقه ركن الدين محمد عند قدوم أخيه إلى دمشق المحروسة في سنة إحدى وعشرين وثمانمائة:

ليس في الحسن للشآم نظير لا يغرَّنك بالبلاد الغرور

كل ما تشتهيه نفسك فيها وبها البِشر والهنا والسرور

قلت للركب مذأنخنا عليها وتراءت ولدانها والحور
هذه الجنة ادخلوا بسلام بلد طيب ورب غفور

وقال الشيخ عبد الله الأرموي رحمه الله: »دمشق من أي جهة أقبلت عليها تجدها حلة بيضاء طرازها أخضر«.

وقال الشهاب محمود من رسالة: »وأما دمشق فكأنها وجه الحبيب، وقد دار به العذار الأخضر الرطيب«.

وقال الشيخ »عبد الولي الحضرمي« رحمه الله: »سحت البلاد ورأيت ما بها من الأعاجيب، فلم أنظر كصغد سمرقند، وهو نهر تحف به قصور وبساتين وقرى مشتبكة العمائر مقدار اثني عشر فرسخاً في مثلها، وهي في وسط مملكة ما وراء النهر. ورأيت شعب بوَّان، وهي بقعة مذكورة بنيسابور طولها فرسخان وقد التحفتها الأشجار، وجاست خلالها الأنهار. وهذا الشعب لبوان بن ايوح ابن أفريدون، وفيه يقول أبو الطيب المتنبي من قصيدة تشتمل على وصفه:

يقول بشعب بوان حصاني أعن هذا يُسار إلى الطعان
أبوكم آدم سنَّ المعاصي وعلّمكم مفارقة الجنان

ومررت بنهر الأبلة، وهي من أعمال البصرة طوله أربعة فراسخ، وعلى جانبيه بساتين كأنها بستان واحد قد مُدَّ على خط الاستواء، نخله كأنه غرس في يوم واحد.

ودخلت إلى دمشق وتنزهت في غوطتها، أجدها أحسن من الثلاث وأكثرها خيراً، طولها ثلاثون ميلاً، وعرضها خمسة عشر ميلاً، مشتبكة القرى والضياع، لا تكاد الشمس تقع على أرضها لغزارة أشجارها واكتناف أغصانها«.

وقال الميدومي في كتابه »لطايف الأعاجيب«: كان بغوطة دمشق أشجار تحمل الواحدة منها أربع فواكه كالمشمش، والخوخ، والتفاح، والكمثرى. وبها ما يحمل الثلاث، وأقلهن اللونان من الفاكهة. قلت وهذا موجود إلى يومنا هذا، فإني رأيت بها الكرمة الواحدة تطرح العنب الأبيض والأسود والأحمر، ورأيت بوادي النيربين شجرة توت تطرح التوت الأبيض والأسود.

وهذا من صنعة الفلاحة، يسمى التطعيم، وهو أن يأخذ قطعة خشب من التفاح ويشق ساق

شجرة كمثرى تكون بساقين وتوضع تلك القطعة في إحدى الساقين المشقوقة، وتشدها بخرقة وتسقيها وتعاهدها إلى أن تلحم بها ويخرج الورق الجديد ثم تثمر.

رجعٌ إلى بقية كلام الميدومي. قال: وكان غرس الأشجار في بعض البساتين كالسطور التي تقرأ. والله أعلم.

ونقلت من شرح الشريشي ما نقله عن شيخه ابن جبير قال: دمشق هي خير المشرق، ومطلع حسنه المؤنق، وعروس المدن قد تحلت بأزاهير الرياحين، وتجلَّت في حلل سندسية من البساتين، وحلَّت من موضع الحسن بمكان مكين، وتجملت في مِنَصَّتها بأجمل تزيين. وتشرفت بأن أدنى الله المسيح وأمه إلى ربوة ذات قرار ومعين، ظل ظليل، وماء سلسبيل، ورياض تحيي النفوس بنسيمها العليل، وتتبرج لناظرها بمجتلى صقيل، وتناديهم هلموا إلى مغرس للحسن ومقيل. قد سئمت أرضها من كثرة الماء، حتى اشتاقت إلى الظماء، فتكاد تناديك بها الصم الصلاب: اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب. قد أحدثت البساتين بها إحداق الهالة بالقمر، واكتنفتها اكتناف الكمامة للزهر، وامتدت بشرقها غوطتها الخضراء امتداد البصر، ولقد صدق القائلون: »إن كانت الجنة في الأرض فدمشق لا شك فيها، وإن كانت في (السماء) فهي بحيث تسامتها وتساميها«.

وقال البحتري فيها:

إذا أردت ملأت الطرف من بلد ... مستحسن وزمان يشبه البلدا

يمشي السحاب على أجبالها فرقا ... ويصبح النبت في صحرائها بددا

فلست تبصر إلا واكفاً خضلا ... ويانعاً خضراً أو طائراً غردا

كأنما القيظ ولّى بعد جيئته ... أو الربيع دنا من بعد ما بعدا

وقال ابن سعيد الموصلي:

سقى دمشق وأياماً مضت فيها

مواطر السحب ساريها وغاديها

ولا يزال جنين النبت ترضعه

حوامل المزن في أحشا أراضيها

ومن محاسن الشام ما يصنع فيها من القماش والنسيج على تعداد نقوشه وضروبه ورسومه. ومنها عمل القماش الأطلس بكل أجناسه وأنواعه، ومنها عمل القماش الهرمزي على اختلاف أشكاله وتباين أوصاله، ومنها عمل القماش الأبيض القطني المصور لأحياء القصور، وأموات القبور. وبها أيضاً عمل القماش السابوري بجميع ألوانه وحسن لمعانه.

وفيها تعمل صناعة الذهب المسبوك والمضروب والمجرور والمرفوع، والممدود والمرصوع. وفيها تعمل صناعة القرطاس بحسن صقاله ونقيّ أوصاله. وفيها تعمل صناعة القرضية ودباغتها المرضية. وفيها تعمل صناعة الزموط والأقباع وتحمل لسائر البلاد والضياع. وفيها صناعة الحرير بالفتل والدواليب والسرير. وفيها تعمل صناعة السلاح، بما فيها من الأعاجيب والاقتراح. وفيها تعمل صناعة الموشى والمدهون بما تحتار فيه النواظر والعيون. وفيها تعمل صناعة النحاس من الضرب والتفصيل والنقوش التي تشرح صدر الناس. وفيها صناعة ألواح الصقال ودهن ألواح صغار الكتاب، وجفان القصع وتفصيل القبقاب.

وأذكرني هنا قول ابن هاني الأندلسي على لسان القبقاب وأجاد ثم أفاد:

كنت غصناً بين الأنام رطيبا

مائس العطف من غناء الحمام

صرت أحكي رؤوس أعداك في الذلّ

برغمٍ أداس بالأقدام

رجع. وغالب ما ذكرناه من هذه الصنائع تتبدل عليه أيادي الصناع من الواحد بعد الواحد إلى أن ينيف على عشرة صناع حتى تتم.

وأعلم أن هذه الصنائع استخرجتها الحكماء بحكمتها ثم تعلمها الناس منهم، وبعضهم من

بعض وصارت وراثة من الحكماء والعلماء ومن العلماء للمتعلمين ومن الأستاذين للتلامذة للصناع وهكذا نقله ابن جماعة في شرحه على نقول العيد.

ومن محاسن الشام ما يحمل منها إلى الديار المصرية عشرة قافات انفردت بها وهذه مسمياتها: قصب ذهب، قبع، قرضية، قرطاس، قوس، قبقاب، قراصيا، قمر الدين من المشمش، قريشة، قنب.

وكنت في هذا المحل أكتب وإذا بشخص خليع يغلب عليه الخيال والدخل يتردد إليّ من أهل مصر العتيقة، يقال له تعاتير جاء إليّ وقال[157] عبِّر لي هذا المنام، رأيت الليه في النوم رجلاً جليلاً من أهل الشام، أعطاني قصعة بها آثار قطن، فيه بعض قضامة مربوطة بخيط قنب. فأردت أن أدخل عليه سروراً قلت له: يا تعاتير من مناسبة الحبال القضامة وهي ذهب وفضة في وعاء مشدود معقود تناله من بعض رؤوساء الشاميين. فسر بذلك، وفارقني، فأخذت أتعجب من الاتفاق وذكر هذه الأربعة قافات المجلوبة من الشام إلى القاهرة، وفيما أنا في مثل هذا السياق إذا أنا به في اليوم الثاني جاءني وهو يضحك، فقلت: ما بالك وما خبرك؟ قال: فارقتك فأخذت لي قطعة جنب[158] ورطب وجلست آكلهم برغيف في عقبة قدام المقياس، وإذا برئيس شامي في خدمته عبيد وغلمان نزل إلى تلك العقبة، وقال للنوتي اطلع بنا المقياس لنزوره وزوِّرنا الآثار، وقال لغلمانه لاقونا بالخيل إلى الآثار، فنهرني بعض العبيد وقال ما تخرج. فقال له سيده دعه يؤانسنا. وسألني عن اسمي فقلت له: الناس يسموني تعاتير وإنما اسمي أبو الخير. فتهلل وجهه وقال: هذا المكان ما اسمه، فأقول له كيت وكيت، وهذا يعرف بكذا إلى أن توجهنا إلى درج الآثار وأراد الطلوع وإذا بمنديل سقط منه في المركب، فبادرت لمناولته إياه، فقال لي: أعط منه للنوتي ديناراً وخذه لك بما فيه، فقبلت يده، وقال لي ما تروح معنا قلت له مرسومك هذا النوتي ابن حارتي وأرجع معه، فقال ادعُ لنا. وتركته وأنا لا أصدق من الفرح. فقلت لبعض غلمانه: ايش يقال لهذا الرئيس بين الشاميين. قال: هذا القاضي بدر الدين بن المزلق، فدعوت له وانصرفت أجد بالمنديل خمسة دنانير ذهباً وسبعين نصفاً فدفعت للنوتي ديناراً وجئت لأتشكر منك على تعبير المنام، وأخبرك بتفسيره، فقلت له هذا أعجب من الأول.

وغالب ما عددناه وأوردناه من محاسن الشام انفردت به دون غيرها، ويحمل منها لغالب

---

[157] فسر.

[158] جبن؟

البلاد لكثرة خيرها، ومن أعاجيبها أن خيرها في الغالب لغير بنيها حتى أنه ينسى الأهل والأوطان ولو فارقها لعاد إليها على طول الزمان.

وقال القاضي الفاضل:

يقولون لي ماذا رأيت بشامهم
فقلت لهم كل المكارم والفضل
فبلدتهم خير البلاد وأهلها
بإحسانهم تغني الغريب عن الأهل

وقال ابن سعيد:

في جلق نزلوا حيث النعيم غدا
مطولاً وهو في الآفاق مختصر
فالقضب راقصة والطير صادحة
والنسر مرتفع والماء منحدر
لكل واد به موسى يفجره
وكل روض على حافاته الخضر

وقال إبراهيم بن عبد الله الأنصاري متشوقاً إليها:

رعى الله أياماً تمضت بجلق
لقلبي عليها أنة وتوجع
رحلت وأبراد الشباب قشيبة
وعدت وأسمال المشيب ترقع

وقال الشيخ شمس الدين محمد بن الصائغ الحنفي يتشوق إليها:

أدمشق لا بعدت ديارك عن فتىً

أبداً إليك بكله يتشوقُ

أشتاق منك منازلاً لم أنسها

أنّى وقلبي في ربوعك موثق

أنّى اتجهتُ رأيت دوحاً ماؤه

متسلسل يعلو عليه جوسق

والريح تكتب والجداول أسطر

خطّ له نسخُ الغمام محقق

ومعاطف الأغصان هزَّتها الربا

طربا فذاك نما وهذا مونق

تتلو على الأغصان أخبار الهوى

فيكاد ساكت كل شيء ينطق

ومن محاسن الشام أنَّ كل نزهة ذكرناها لها أوانٌ يتفرج أهل البلد فيه، وزمان يتعاهدونها به، ويرجعون إليه.

ويعجبني قول ابن فائد البحراني:

برزت دمشق لزائري أوطانها

من كل ناحية بوجه أزهر

لو أن إنساناً تعمد أن يرى

مغنى خلا من نزهة لم يقدر

ومن لطائفه قوله في الذهبيات، وقد عاد إليها في الخريف:

صيغت بلون ثمارها أوراقها

فتكاد تحسب أنهن ثمار

لو كان مكتوباً عليها يوسف

شهد الصيارف أنها دينار

ومن محاسن ابن ديَّار قوله في الذهبيات:

انظر إلى ذهبيات الغصون وقم

إلى المدام وواصلها إلى العنق

أما ترى النهر بالتصفيق أطربها

فنقطته دنانيراً من الورق

ونقلت من خط الزيني ابن الخراط قوله:

أتانا الخريف نديمي فقم نجدد بالراح عيشاً ذهب

إذا ما جلونا عروس الطلا على الغصن نقطّها الذهب

ومن المعاني التي افتضها الرغادي:

يا ورقاً بالخريف يحكي على النحور المسلسلات

شبه الدنانير صففوها على سيوف مسلسلات

ونقلت من خط بلدينا العلاء بن أيبك الدمشقي:

لا تخش يا محبوب من فاقتي

فعن قريب ذهبي يأتي

فاذهب لفضيات ذا بالطلا

واستجلها في الذهبيات

ونقلت من خط المرحوم شيخ الإسلام شهاب الدين ابن حجر:

قد قال زهر الروض من ذا الذي
فضَّل فضل الذهبيات
ما ذهبي يذهب من حجلة
مودعاً بل ذهبي يأتي

ويعجبني قول المعوج الشامي وتلطف بقوله:

تأمل ترَ أرض الخريف عليلة
من البرد حتى عادها وابل القطر
وعالجها فصل الربيع فعوفيت
فنقّطها الأزهار بالبيض والصفر

ومن محاسن الشام صيفيتها وأنها معلنة بحياة الأزهار ونمو الأثمار. ولهذا قال الحافظ اليغموري:

واستنشقوا لهو الربيع فإنه
نعم الصديق وعنده ألطاف
يغذي الجسوم نسيمه فكأنه
روح حواها جوهر شفاف

ويعجبني قول ابن قرناص فيه:

بعث الربيع رسالة بقدومه
للروض فهو بقربه فرحان

ولطيب ما قرأ الهزار بشدوه

مضمونه مالت به الأغصان

وشتويتها مؤذنة بموت الأشجار بالإصفرار، وتغسيلها بعد التجريد بالأمطار. ولهذا قال الحافظ اليغموري:

خذ في التدفي بالخريف فإنه

مستوبل ونسيمه خطاف

يجري مع الأجساد جري حياتها

كصديقها ومن الصديق يخاف

ومن الدر النظيم قول ابن تميم:

يا شهر كانون من حب الغصون أمتَّ

الأرض وجداً وأبكيت السما حزنا

والمزن غسَّلها من فيض أدمعه

والثلج حاك لها من نسجه كفنا

لكن يعتدّون للشتاء بالأسمان والأدهان، ويموِّنون البيوت بالحبوبات، ولحم القديد والمعسولات، والفاكهة المعلقة، والحلاوات المؤنقة. ويكنون في الأماكن المبخرات، ولا يخرجون منها، فإنها بلدة كثيرة المحاسن، وماؤها غير آسن، وهي مباركة وفيها البركة، وعيشها رغد في السكون والحركة، ولكن استقرى من كان مولده فيها لم يزل في قبض، ما دام بها إلا أن ينزل إلى تحت الأرض، ويقال إنه لا يوجد بها اثنان من أهلها على قلب واحد متصافيان، ويقال إن من قصدها بسوء ونواه أكبه الله تعالى فيه وأعثره. ولما قدم عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس رضي الله عنهم دمشق وحاصر أهلها، فلما دخلها وهدم سورها وقع منه حجر كان عليه مكتوب باليونانية، فأرسل خلف بعض الرهبان فطبعه وقرأه فإذا عليه مكتوب: ويك أم الجبابرة من رماك بسوء قصمه الله. ويك من الخمس الأعين، نقضُ سورك على يديه بعد ألف سنة. فوجدوا الخمس

الأعين عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب.

فهي بلدة كثيرة البركات غزيرة الخيرات، نعم بلدة الأنبياء، وموطن الأصفياء والأولياء، وبها صحابة من الأجلاء ومقابرها حوت أماثل الفضلاء.

ومنها جبانة باب الصغير، بها بلال الحبشي رضي الله عنه، وبها السيدة سكينة بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما، وبها السيدة زينب بنت الإمام علي رضي الله عنهما، وبها معاوية رضي الله عنه، وبها أويس القرني رضي الله عنه، وبها أبو عبيدة بن الجراح على ما قيل خارج الجامع المعروف به[159].

---

[159] زاد ابن الحوراني في كتابه »الإرشادات إلى أماكن الزيارات« أن من الصحابة المدفونين في »الباب الصغير«: أوس ابن أوس الثقفي الصحابي من أهل الصفة، ذكره النووي في »تهذيب الأسماء«.

وأبا الدرداء عويمر الخزرجي الصحابي، ولي قضاء دمشق لعمر. وزوجته أم الدرداء الصغرى مدفونة بقربه.

وواثلة بن الأسقع من أهل الصفة، خدم النبي صلى الله عليه وسلم ثلاث سنين.

وفضالة بن عبيد، ولي قضاء دمشق لمعاوية، ودفن عند أبي الدرداء. وحمل معاوية نعشه وقال لابنه: »أعني فإني لا أحمل بعده مثله«.

وسهل بن الربيع الأوسي الصحابي.

ويسرة بن فاتك الأسدي أخا خزيم بن فاتك، وهو الذي قسم دمشق بين المسلمين بعد فتحها.

وشمعون بن ختانة أبا ريحان الأسدي الأنصاري.

ومكحولاً مولى سعيد بن العاص، سمع من أنس وواثلة.

ونقل ابن الحوراني عن الهروي في »الزيارات« أن في »مسجد النارنج« بباب الصغير ثلاثاً من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم، وفضة جارية فاطمة، وقبر سهل بن الحنظلية، وقبر أم الحسن بنت حمزة بن جعفر الصادق، وقبر علي بن عبد الله ابن العباس، وقبر ابنه سليمان، وقبر زوجته أم الحسن بنت جعفر ابن الحسن بن الحسين. وبمقبرة باب الصغير أيضاً قبر خديجة بنت زين العابدين، هؤلاء في تربة واحدة. وقبر سكينة بنت الحسين، وقبر محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم.

وبها قبور كثير من الأولياء والصالحين لم يعلموا، لما قيل من أن مقبرة باب الصغير حرثت وزرعت بعد مائة سنة، فلذلك لا تعرف القبور.

ونقل عن الحافظ ابن طولون في »بهجة الأنام« أن قبر معاوية الكبير في الحائط القبلي من جامع دمشق في قصر الإمارة »الخضراء«، وهو الذي تسميه العامة »قبر هود«. أما الذي في الباب الصغير فهو قبر أبي ليلى معاوية الثاني ابن يزيد.

وذكر صاحب »مثير الغرام« أن »الوليد بن عبد الملك« الذي بنى مسجد دمشق ومسجد النبي صلى الله عليه وسلم وقبة الصخرة المقدسة في بيت المقدس – دفن سنة 96 بمقبرة باب الصغير شمالي قبر معاوية بنحو عشرين ذراعاً، وقبره ظاهر معروف يزار.

وفي الباب الصغير من العلماء الشيخ حماد وهو من القدماء، ومنصور بن عماد بن كثّير السلمي، وعمر بن الحسن الخرقي من تابعي أصحاب أحمد بن حنبل وهو مؤلف »المقنع«، وأبو الفتح نصر بن إبراهيم بن نصر المقدسي النابلسي شيخ الشافعية بالشام، وقد اجتمع به الغزالي واستفاد منه. وأبو البيان محمد بن محفوظ القرشي شيخ الطائفة البيانية ويعرف بابن الحوراني. قال ابن كثير: له تآليف كثيرة وكان هو والشيخ رسلان أولاً مجاورين في المسجد الذي في رأس درب الحجر في أواخر السوق الكبير قريباً من الباب الشرقي. والحافظ

ويليها مقبرة محلة القروانة، وبها جماعة من الأجلاء والفضلاء.

ومنها جبانة باب شرقي بها أبيّ بن كعب رضي الله عنه، وبها جبل بن معاذ رضي الله عنه، وبها ضرار بن الأزور رضي الله عنه في حارة السادة القدماء عفا الله تعالى عنهم.

وتليها مقبرة الشيخ رسلان أعاد الله علينا وعلى المسلمين من بركاته، وعنده جماعة من الأماثل والأجلاء الأفاضل[160].

وخارج باب توما شرحبيل كاتب وحي رسول الله (صلعم) والسيدة خولة بنت الأزور رضي الله عنهما.

وجبَّانة بيت لهيا بها سادة وأعيان وصالحون لهم قدر وشأن.

ويليها مقابر باب الفراديس، بها أبو الدحداح (الصحابي) رضي الله عنه، وبها عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنهما[161].

ومقبرة سويقة صاروجا، بها صالحون من أجلِّ المسلمين.

ومقابر الصوفية بها جماعة من العلماء أئمة الدين وصالحي المسلمين، كابن الصلاح وابن تيمية، وابن المبارك وغيرهم[162].

الكبير ثقة الدين أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عساكر صاحب »تاريخ دمشق« دفن شرقي مدفن معاوية. وتاج الدين عبد الرحمن بن إبراهيم الفزاري المعروف بابن الفركاح تلميذ ابن الصلاح والسخاوي وابن عبد السلام. وبدر الدين ابن مالك. وأبو الربيع سليمان ابن بلال الجعفري الهاشمي تلميذ الفزاري والنووي. وابن هشام وابن رجب، وابن قيم الجوزية، وإبراهيم الناجي، وأبو العباس أحمد الميلي.

[160] قال »ابن الجوزي«: الشيخ أرسلان الدمشقي ابن يعقوب بن عبد الرحمن بن عبد الله الجعبري. مدفون مع شيخه أبي عامر المؤدب، توفي بعد الأربعين والخمسمائة.

[161] قال »ابن الجوزي«: وفي مقبرة باب الفراديس مشهد الخضر، وعنده قبر محمد بن عبد الله بن الحسن المقدسي ثم الدمشقي المعروف بأبي شامة، وكان له شامة كبيرة فوق حاجبه الأيسر، توفي سنة 665.

وفي مسجد الأقصاب سوق حجر بن عدي الصحابي وأصحابه.

[162] مقابر الصوفية: هي الواقعة الآن في حديقة مستشفى دمشق على نهر بانياس عند محطة البرامكة غربي دمشق. قال ابن الحوراني: وممن دفن فيها »قطب الدين أبو المعالي مسعود ابن محمد بن مسعود« انفرد في دمشق برئاسة الشافعية، توفي في رمضان سنة 578.

ومنهم »الفخر ابن عساكر« توفي سنة 620، ودفن مقابل قبر »ابن الصلاح« المتوفى سنة 643.

ومنهم »عبد الرحمن بن نوح« من أشياخ النووي وكان مفتي دمشق في وقته، توفي سنة 654.

ومنهم »عماد الدين بن كثير البصري القرشي« توفي سنة 774، ودفن عند شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية المتوفى سنة 728.

ويليها مقبرة القنوات وباب السريجة، وبها علماء الأمة وأهل الرحمة. آخر من دفن بها شيخنا المرحوم العلامة محب الدين البصروي الشافعي رحمه الله.

ومنها جبانة الحمرية[163]، وبها المرحومون من الأولياء والصالحين.

ومنها مقابر محلة السيدة عاتكة رضي الله عنها، ويقال إن في ظاهرها ضريح المساك لرِكاب النبي (صلعم) رضي الله عنه.

ومنها جبانة محلة القبيبات، وبها العلماء العاملون والمجاذيب والصالحون، كالسيد الشريف الشيخ الزاهد العالم تقي الدين أبي بكر الحصني الشافعي أمدَّنا الله بمدده. وهذه جملة المقابر التي في المدينة الخارجة عن مقابر الصالحية والقابونين وغير ذلك.

وثَم صحابة في قرى الضواحي رضي الله عنهم، كسعد ابن عبادة رضي الله عنه بأرض المنيحة[164]، وتميم الداري رضي الله عنه بقرية تميم التي سميت به، وأبو الدرداء رضي الله عنه، فإنه داخل قلعة دمشق، والسيدة زينب الكبرى بنت الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنهما، وهي أخت أم كلثوم الكبرى التي تزوجها عمر رضي الله عنه، وكانتا مع أخيهما الحسين لما قتل وقدمتا الشام، وهاتان والحسن والحسين ومحسن الذي مات صغيراً أولاد الإمام علي من فاطمة رضي الله عنهما، ثم تزوج بعد موت فاطمة وتسرَّى فجاءه بنون وبنات ومن جملة البنات زينب الصغرى وأم كلثوم الصغرى، هكذا ذكره شيخنا الحافظ برهان الدين الناجي رحمه الله تعالى ورضي عنه. وقال الشيخ العارف أبو بكر الموصلي رحمه الله تعلى في كتابه »فتوح الرحمن« توفيت السيدة زينب الكبرى بنت عليّ رضي الله عنهما بغوطة دمشق عقيب محنة أخيها، ودفنت في قرية من ضواحي دمشق اسمها راوية، ثم سميت البلدة بها، فالآن يقال للبلدة الست ولا تعرف إلا بقبر الست رضي الله عنها قال: وكنت أزورها في أول أحد من العام، ومعي جماعة من

ومنهم »إبراهيم بن سليمان الحموي« له شرح الجامع الكبير في ست مجلدات، وشرح المنظومة في مجلدين.
ومنهم »إبراهيم بن عبد الرزاق الحنفي« شارح القدوري، توفي سنة 807.

[163] قال ابن الحوراني هي بمحلة الشويكة، وممن دفن فيها أحمد بن بدر الدين الحنفي المتوفى سنة 934، ومحمد بن الحر الحنفي توفي 789.

[164] نقل ابن الحوراني عن النووي في »تهذيب الأسماء« قال: سعد بن عبادة الصاحبي الأنصاري الخزرجي الساعدي كان نقيب بني ساعدة، وصاحب الأنصار في المشاهد كلها، قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم: »إنه من بيت جود«، شهد العقبة وبدراً والمشاهد، توفي سنة 16، واتفقوا على أنه كان بحوران ومات بها، قال الحافظ ابن عساكر وغيره: هذا القبر المشهور في المنيحة يقال إنه قبر سعد بن عبادة، فيحتمل أنه نقل من حوران إليها.

أصحابي الفقراء، ولا ندخل إلى قبرها بل نستقبله ونغض أبصارنا، لما قرره علماؤنا في أن الزائر للميت يعامله بما لو كان حياً من الاحترام، فبينما أنا في البكاء والخشوع والحضور، وكأني بها وقد تراءت لي في صورة امرأة كبيرة محترمة موقرة لا يقدر إنسان أن يملأ نظره منها احتراماً، فأطرقت فقالت: يا بني زادك الله أدباً ألم تعلم أن جدي رسول الله (صلعم) وأصحابه كانوا يزورون أم أيمن[165] لكونها امرأة محترمة وبشر الأمة أن جدي محمداً (صلعم) وجميع أصحابه وذريته يحبون هذه الأمة، إلا من خرج عن الطريق فإنهم يبغضونه. فلحقني إزعاج من كلامها غيَّبني، فلما عدت إلى الحسّ لم أجدها، فواظبت على زيارتها إلى يومنا هذا.

وبالقرية المذكورة ضريح السيد الجليل مدرك (الفزاري الصحابي) أعاد الله علينا وعلى المسلمين من بركاته.

وهذا الذي وصل إلينا من معرفة من بدمشق، من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين. وثَمَّ فيها من الأنبياء والصحابة والأولياء والصالحين غير ما ذكرناه، لكن لتوالي المحن واندراس العلم والمعاهد والدمن، وبانقراض المخبر انقطع الخبر فلا عين ولا أثر.

فإن الشيخ محيي الدين النووي رحمه الله تعالى قال في شرح (سنن) أبي داود: الشام من العريش إلى بالس، وقيل إلى الفرات، وقال ابن السمعاني: هي بلاد بين الجزيرة والغور إلى الساحل، ويجوز فيها التذكير والتأنيث والهمز وتركه، وأما شآم بفتح الهمزة والمد فأباه أكثرهم إلا في النسب. والله أعلم.

فعلى هذا أنظر ما في بلاد الشام من الأنبياء والصحابة والصالحين. قال الحافظ العراقي: »دمشق بلاد الأنبياء وموطن الأصفياء من الصحابة، والتابعين، والأولياء«. وبسندي إلى النبي (صلعم) أنه أخبر أنه زويت له مشارق الأرض ومغاربها وقال سيبلغ ملك امتى مازوي لي وأنهم سيفتحون مصر وهي أرض يذكر فيها القيراط، وأن عيسى ينزل على المنارة البيضاء شرقي دمشق.

وأما فضائل الشام فكثيرة، ومحاسنها جمة غزيرة، وبركاتها مشهورة، وأخبار خيراتها مأثورة. ولهذا أطلقنا عنان القلم في غيضاتها وروضاتها وقطوفها الدانية للمتفكر في متنزهاتها،

---

[165] قال الزبيدي في »التاج«: أم أيمن امرأة أعتقها صلى الله عليه وسلم، وهي حاضنة أولاده، فزوجها من زيد فولدت له أسامة.

وهيمنا إلى الدور في تسلسل أنهارها، ونبهنا الأحداق في حدائق أزهارها.

*　　　*　　　*

وقد ختمنا كتابنا بذكر الأنبياء، والصحابة، والأولياء، والمشايخ، والصالحين، والعلماء العاملين، وذكر المقابر، فإن كل إنسان إليها صائر. ونحبس عنان جواد القلم في ميادين طرسه، فإن من دخل إلى المقابر انقطعت أخباره بتواريه في رمسه.

والله تعالى أسأل أن يؤنسنا بالقرآن العظيم في قبورنا، وأن ينقلنا منها إلى الجنان بمحمد شفيعنا (صلعم) صلاة وسلاماً يتأرج شذاها ملء الأكوان، ويفوح ضوعها على نشر الأزهار وطي عرف الريحان، ويكون كالنسيم في دوره بين الرياض والتنسيم، فيكون آخر منتهاه أول مبتداه إن شاء الله تعالى بكرمه ومنّه.